TRAVELS IN THE OTTOMAN EMPIRE

فريق متميزون
E-BOOK

رحلة إلى الإمبراطورية العثمانية

(العراق)

ج. أ. أوليفيه

ترجمة وتقديم
د. أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رحلة إلى الإمبراطورية العثمانية
أدب رحلات - العراق..

الكاتب: ج. أ. أوليفيه.
ترجمة وتقديم: د. أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

مشروع الرحلات..

الرحلة هي متعة التاريخ وتاريخ المتعة، والرحلة هي لذة المشقة، وعين الجغرافيا، ومنظار الفلك، ومسبار الأنثروبولوجيا، وجسر الخبرات بين الأمم، وهمزة الوصل بين الشعوب، والرحلة هي سفير السلطان، ووثيقة المؤرخ ومكتبة العالم وحنكة السياسي ورافد الأديب الذي لا ينضب.

ويكأن الإنسان مخلوق رحالة، من عصر إلى عصر، ومن مرحلة إلى أخرى، يعيش حياته متنقلاً عبر الزمان والمكان، يرتاد الآفاق، ويخترق الأعماق، ما بين إسراء بالجسد، ومعراج بالروح، وسياحة بالعقل.

ولا أظنني مبالغًا فيما وصفت، فقد بدأت الرحلة منذ برهة وجيزة تعود لتكشف عن أهميتها في المجال البحثي الأكاديمي، وترتقي مرة أخرى مكانتها التي تبوأتها من قبل كإحدى رائدات العلم؛ مصدرًا ومنهاجًا.

فالرحلة تمنح الباحث في التاريخ والجغرافيا والسياسة والاقتصاد والأنثروبولجي والآثار... وغيرها من مجالات العلم، تمنحهم مصدرًا ثريًا وواقعيًا نابضًا بالحياة، بعيدًا عن رتابة كتب الوقائع، وملل كتب الحوليات، وجفاف كتب التاريخ الرسمي، ونفاق المؤرخين المكلفين، وجمود جامعي الأخبار وناقلي الروايات.

الرحلة - إذا أحسن القارئ قراءتها والكاتب تدوينها - تصير حياة ثلاثية الأبعاد يحياها القارئ والمستمع، فتعطيه العلم مع المتعة، والخبرة مع المعايشة، والدقة مع الواقعية، والعمق مع الثراء.

ويبدو الآن الاتجاه قويًا لدى الباحثين والمحققين في الاعتماد على كتب الرحلات، سواء العناية بتحقيقها وإخراجها من مظانها، وسواء بالاعتماد عليها كمصدر أكاديمي، وهو ما يعطي قفزة نوعية في البحث العلمي، شريطة الانتخاب الواعي والاستشهاد الممحص، والاستنتاج المنطقي، والنظرة الفاحصة، والاستقراء المتأني المتدرج، الذي يصفّ الجزئيات بعضًا إلى بعض، فيرسم منها لوحة فسيفساء، ولا يفعل العكس، فيعمد إلى اختلاق التعميمات من الأحداث الجزئية، ولا يعتمد على الغث في إدامه، ولا الهزيل في طعامه.

وعلى قدر ما تحمل الرحلة من أهمية، لا تخلو أيضًا من زلات، قد تكثر فتصبح مضللات، إذ نرى بعض الرحالة يأتي إلى قطر غريب عن مشاربه، وهو يحمل في جعبته خلفيته الثقافية والعقائدية، محبًا أوكارها، عميق الثقافة أو ضحلها، فاحص النظرة أو سريع الانفعال، متقلب الآراء والأحوال، بل ترى البعض يكذب مدعيًا أنه رأى ما لم يره الآخرون، واطلع من الأسرار على ما لم يستطعه غيره، فيستجلب إعجاب القارئ والمستمع على حساب الحقيقة والواقع.

لكن بين أهمية الرحلة وخطورتها، يقف الباحث المدقق صاحب النظرة الفاحصة، فيستشف الحقائق، ويستنبط الأسرار، ويستنتج ما وراء الأحداث، ويقرأ ما بين السطور.

ونحن في «المركز الثقافي الآسيوي» نحاول من خلال «مشروع الرحلات» أن نقدم مجموعة

منها في شتى المناطق والعهود، لتغطية أكبر مساحة ممكنة في الزمان والمكان؛ لتكون حلقات مسلسلة في التاريخ، وخبرات متوارثة في الجغرافيا، ومعلومات متراكمة في غيرها من العلوم، ومنبعًا ثرًا وغير تقليدي في البحث العلمي..

ومن خلال هذا المشروع نفتح الباب للتعاون مع الباحثين والمحققين والمترجمين للتواصل والتعاون، كي نسهم جميعًا في السعي نحو خطوة جديدة في طريق التقدم.

والله ولي التوفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمة..

رحلة عالم فرنسي كبير متعدد المواهب والمجالات، ونموذج متميز من الرحلات في أسلوبه وفي أهدافه.

الرحالة هو (G. A. Olivier) ج. أ. أوليفييه صاحب إحدى الموسوعات الفرنسية في علم الحشرات، وعالم مشارك في إحدى موسوعات الرياضيات، وحاصل على الدكتوراه في الطب، بالإضافة إلى عضويته في الكثير من الجمعيات والمعاهد الوطنية في عدد من المدن الفرنسية، مثل الجمعية الزراعية والجمعية العلمية وجمعية التاريخ الطبيعي وجمعية العلوم والآداب والفنون وجمعية التجارة، بالإضافة إلى أنه رحالة وكاتب.

شاركه في هذه الرحلة عالم آخر متخصص في الطبيعة والنباتات (Bruguiere) بروجيير، لكنه توفي في رحلة العودة عندما كانا في إيطاليا متأثرًا بمعاناة الترحال والسفر، وقد أثر ذلك على الرحلة، حيث لم تنشر كل المواد الطبيعية والعينات التي جمعت بالإضافة إلى الرسوم التي احتاجت إلى شرح هذا المتخصص.

والرحلة أو الرحلات بالمعنى الدقيق شملت عدة ولايات من الإمبراطورية العثمانية، وبلاد فارس بين عامي ١٧٩٤ – ١٧٩٦م، وقد جاءت محتويات الرحلة في ستة مجلدات من الحجم الصغير، وطبعة أخرى في ثلاثة مجلدات من الحجم الكبير، مع مجلد رابع عبارة عن ملاحق من الصور والرسوم والخرائط، وصدرت في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر.

كانت الرحلة تكليفًا مباشرًا وأوامر صادرة من الحكومة الفرنسية أو المجلس الانتقالي الحاكم للثورة الفرنسية، وقد صدرت الأوامر في تشرين الأول / أكتوبر من سنة ١٧٩٢م للقيام برحلات استكشافية إلى أنحاء الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية، لتقديم تقرير مفصل في النواحي الزراعية والتجارية والجغرافية والطبية والفيزيقية، وكذلك السياسية والعلاقات الدولية.

إذ كانت فرنسا على أعتاب عهد جديد، وبالتالي استراتيجية جديدة للمستقبل والتخطيط الداخلي والعلاقات الخارجية، مما جعلها في حاجة ماسة إلى ذلك " التقرير العلمي " أو الرحلة ومعلوماتها، وقد كان اختيارهم للعالم ج. أ. أوليفييه مبينًا على هذا الأساس، وقد أدرك هو أيضًا مدى أهمية وخطورة مهمته، فأشار في مقدمته إلى أن هذه الرحلة ليست رواية للمتعة، وليست أوصاف أدبية للمناظر والمناطق الرائعة التي رآها، أو المواقف الشخصية التي مر بها، إنما هي تأريخ للجوانب والأمور التي كلفه بها المجلس التنفيذي للثورة، وأنها " تقرير علمي ".

ورغم ذلك فقد جاءت الرحلة بتنوعها العلمي والوصفي المجرد ممتعة ومتنوعة وذات معلومات غزيرة.

كانت خطوط سير الرحلة متعددة، فقد بدأت من فرنسا إلى القسطنطينية / استانبول، ومرت في طريقها بجزيرة كريت وإيطاليا وجزر الأرخبيل اليوناني، وكذلك معظم مناطق الأناضول وآسيا الصغرى، ومصر والعراق وسوريا وبلاد فارس.

وذلك في خطوط سير متداخلة أحيانًا، وزيارات متعددة لمنطقة واحدة في الذهاب والعودة، مما

جعلنا نجمع بعض الفصول المتناثرة الأخرى التي تتحدث عن نفس المنطقة نظرًا للوحدة الموضوعية، دون النظر إلى الوحدة العضوية لأجزاء الرحلة المطبوعة.

أما لغة الرحلة (الفرنسية) فكانت في معظم الأحيان ميسرة سلسلة لا يصيبها التعقيد إلا قليلاً، وقد استخدم المسميات العلمية في المراجع المعتمدة لوصف وتسمية المواد الطبيعية، كما استخدم المصطلحات العربية والتركية والفارسية في الألقاب والوظائف وغيرها من المسميات الشائعة في تلك المناطق، ولم تخل الرحلة من الوصف الأدبي والحس الجمالي، مع دقة وجودة الوصف للأحوال الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتراثية.

وهو في ذلك يعتمد على مصادر ومراجع أصلية لهذه المناطق، كما يعتمد على الرحلات السابقة لبعض مشاهير الرحالة الفرنسيين والأوربيين الذين زاروا المنطقة قبله.

وألفت نظر الباحثين والمترجمين إلى الأهمية الكبيرة لهذه الرحلة / التقرير، وغزارة معلوماتها وتنوعها الشديد، ليتناولوها بالترجمة والدراسة؛ لتكون إضافة جديدة إلى المصادر العلمية والمكتبة العربية.

وقد طبعت الرحلة في أصلها الفرنسي تحت عنوان:

l’ Egypt et la Parse. Fait par order du ،(Voyage dans l’ Empire Ottoman pendant les six premieres annees de la Republique; par G. A. ،government Obvier).

وقد بدأنا بترجمة الأجزاء والفصول الخاصة بالعراق، على أمل ترجمة بقية الرحلة، لاسيما المتعلق منها بالمناطق العربية.

والله ولي التوفيق

د / أحمد الشرقاوي

الفصل الأول

محتويات هذا الفصل

مغادرة أورفة، ديناميس الكاوي، كاور – كيوري، بقايا مدينة قديمة تحت الأرض، إقامة في كيروسمانا، الوصول إلى ماردين، وصف ماردين، السفر إلى نصيبين، نصيبين وآثارها، تعرض القافلة لخطر النهب، في الطريق إلى الموصل.

غادرت القافلة مدينة أورفة في (٢٦ فنتوز) الموافق (١٦ آذار / مارس ١٧٩٤م) بصحبة رئيس الكرملين في بغداد، وقد كان قادمًا من حلب، ومتجهًا إلى ديره، وأعتقد أن مرافقة هذا الراهب خلال الرحلة ستكون لطيفة ومفيدة للغاية بالنسبة إلينا، نظرًا لأن إقامته الطويلة في تلك المناطق، والتي بلغت ثلاثين عامًا قد مكنته من معرفة عادات وتقاليد السكان، كما أنه يجيد اللغات الشرقية بشكل جيد، بالإضافة إلى أنه قام بزيارة بلاد فلسطين، وسوريا، وما بين النهرين، وكردستان أكثر من مرة، بأمر من رؤسائه، كما قام كذلك بالتوغل خلال جبال سنجار، رغم عدم استقرار الأمن بها.

كانت القافلة كبيرة للغاية، حيث كانت مكونة من خمسين أو ستين أرمنيًا، يقودون خمسين حصانًا تقريبًا، وحوالي ثمانين حمارًا معظمها محمل بنحاسيات قديمة، وكذلك القليل من البضائع الأوربية، وبعض الأقمشة الحلبية، وكمية قليلة من السكر والقهوة، إلى جانب كمية كبيرة من الأرز.

امتطينا خيولنا قبل شروق الشمس، وسرنا لمدة سبع ساعات خلال سهل خصيب مروي في قسمه الأكبر، وتنشر في أرجائه شظايا صخور بركانية، وشاهدنا في هذا السهل بعض المحاصيل، وبعض القطعان الجبلية، كما رأينا من بعيد بعض القرى بسيطة المظهر.

وفي نهاية السهل وجدنا تل كلسي (جيري) ممتد من الشمال إلى الجنوب، يبدأ بذلك الجبل الغير مرتفع الذي ذكرنا سابقًا أنه موجود على بعد فرسخين، شمالي مدينة أورفه.

توقفت القافلة في مكان يسمى الكاوي، ويضم هذا المكان بعض الديناميس أو الحمامات تشبه تلك التي ذكرناها في الفصل السابق، وأقمنا في أحد الحمامات، ووضعنا الأسرة فوق المصطبات التي سبق واستراح عليها منذ زمن بعيد جسدان محنطان.

كان الجو باردًا، والسماء مليئة بالسحب، لدرجة أن أصبح البرد قارصًا خلال الليل، وتغيرت الرياح من شمالية إلى شمالية شرقية.

بقينا في ذلك المكان في اليوم السابع والعشرين من فنتوز، الموافق (١٧ آذار / مارس)، وذلك بسبب بعض اللصوص اللذين سرقوا في الليل أحد الحمير المحملين بنحاسيات قديمة من أحد الرجال الذين تخلفوا عن القافلة، وذهب الرجال إلى متسلم أورفة – أي المسئول عنها مؤقتًا -؛ حتى يبحث عن أولئك اللصوص.

وقرر بعض أفراد القافلة مواصلة الرحلة والتحرك في المساء، بينما قرر الباقون انتظار الأشخاص، الذين ذهبوا إلى أورفة للإبلاغ عن السرقة، أما نحن فقررنا الانتظار مع المنتظرين، وقد دارت هذه الأحداث في الصباح الباكر من الثامن والعشرين من فنتوز.

كانت السماء صافية، ورغم ذلك كان البرد قاسيًا للغاية، وتعرضنا لرياح شمالية شرقية مزعجة.

وأصبح الطريق وعرًا وسيئًا، بعد أن تحولت الأرض إلى أرض صخرية، واستمر سيرنا خلال تضاعيف التلال لمدة ساعتين أو ثلاث، وتركنا هذه التلال أخيرًا، ووجدنا أنفسنا في سهل جميل واسع.

ولاحظت في هذا السهل بعض الآثار البركانية، وبعد مسيرة إحدى عشر ساعة وصلنا إلى قرية أرمينية يبدو أنها مهجورة منذ زمن بعيد، ويطلق عليه الأتراك (كاوور – كيوري) أي قرية الكفار، وهنا اجتمعنا مجددًا مع باقي أفراد القافلة.

لقد علمت أن أهالي هذه البلدة كانوا يفتقرون إلى الماء، فقاموا بسد حاجتهم عبر صهريج كبير مربع، تعلوه قبة جميلة، ورأينا بها أيضًا بعض الحفر الغير عميقة، والمتسعة من الأسفل، والتي كانوا يخزنون بها البقول للحفاظ عليها.

عسكرت القافلة في هذه القرية تحت السماء الصافية المزينة بالنجوم اللامعة، أما نحن فقد قضينا الليلة في مبنى قديم متهدم كما فعلنا في حمامات الكاوي، وقد كانت جدران هذا المبنى مصنوعة من صخور سميكة مقطعة ومرصوفة الواحدة فوق الأخرى، بدون لاصق بينهما، وتوجد أعمدة ضخمة مقامة بالقرب من بعضها البعض، تقوم برفع القبة أو السقف المقام من الحجارة المسطحة، وكان هذا السقف منخفضًا لدرجة تمكننا من لمسه بأيدينا، ولكنني اكتشفت أن الأرضية هي التي ارتفعت بسبب الأنقاض.

في اليوم التاسع والعشرين من فنتوز الموافق (١٩ آذار / مارس)، وبعد مسيرة ساعة واحدة، قمنا بعبور نهر صغير منساب من الشمال إلى الجنوب.

ثم واصلنا المسير خلال سهل آخر تنتشر بأنحائه آثار بركانية لمدة ثلاث ساعات، ثم وصلنا في نهاية هذا السهل إلى نهر صغيرة يشبه النهر السابق، حيث كانت ضفافه جرداء ووعرة، ورغم قلة ماؤه إلا أنهم قاموا بحفر قاعة لمسافة تزيد عن ستين قدم.

وظهرت على حواف مياهه بعض نباتات فلفل الصقالبة، وبعض الشوكيات، ويبدو أن هذه الشجيرات تتغذى بشكل سيء، وأعتقد أن هذا الأمر يعود إلى البرد الشديد الذي تتصف به هذه الأماكن من بلاد ما بين النهرين خلال فصل الشتاء.

عسكرت قافلتنا في بعض الكهوف الواسعة التي وجدناها على الضفة اليسرى من النهر، وعند منصف النهار تقريبًا طلبنا من الخادم، أن يحمل بندقية ويتبعنا، بنية اصطياد الحجل، الذي سمعنا عن انتشاره بكثرة في هذه المناطق، كما اردنا جمع بعض الزعفران والسورنجان والرمسيات، وهي نفسها تلك النباتات التي رأينا أزهارها في الصباح.

وبما أن مكارو أدلاء القافلة كانوا قد أخافوه مرات عديدة من التجول في هذه المنطقة، فقد نجحت محاولاتهم، كما كان هذا الخادم بطيء للغاية، ولذلك فقد قام بكل المحاولات لمنعنا من تنفيذ خطتنا وإقناعنا بالبقاء داخل هذه المغارات التي أقمنا بها، لدرجة أنه حاول جاهدًا أن يقنعنا بمدى الخطورة التي سنواجهها إذا تجولنا في المكان، وأخبرنا أن هذا المكان مليء بالأشخاص الذين يسعون لنهب المسافرين، وأيده الأدلاء مؤكدين، خطورة الابتعاد عن أماكن المنطقة بسبب الكهوف والمغارات المنتشرة على طول النهر.

وعلى العكس تمامًا فلم نتراجع عن رأينا بل ازدادت رغبتنا في استكشاف المنطقة، كما كنا نحاول تهدئة المكارين، وطلبنا من الخادم البقاء مع أفراد القافلة، إذا كان يشعر بالخوف، وأخذنا سيفًا، وبندقية ذات طلقتين وبعض الذخيرة، وتحركنا بمفردنا.

وبما أن بركيير كان متوعك المزاج منذ أيام فلم يتمكن من مرافقتنا، كما أنه كان منشغلاً بطحن بعض النباتات التي وجدناها في الصباح في طريقنا، ومن بينها نباتات سوسن، وقضاب، وزراوند.

كنا واثقين للغاية بأننا إذا أخذنا كل التدابير، وأخذنا حذرنا كي لا نؤخذ على حين غرة، لن نواجه أي مشاكل، من أولئك قطاع الطرق القليلين، كما ازددنا اطمئنانًا؛ لأنهم لا يملكون أسلحة نارية، وليس لديهم سوى هراوة في يدهم اليمنى، وترس صغير في اليسرى، وخنجر أو سيف قصير في الحزام.

تركنا القافلة وانطلقنا بعيدًا عنها بمسافة نصف فرسخ، وصعدنا الضفة اليسرى من النهر، ومن هناك شاهدنا بإعجاب جمال انحدار الضفة المقابلة، حيث تضم كهوف وحمامات متتالية بلا انقطاع، مما يوضح لنا أن هذا المكان كان عبارة عن مدينة مطمورة، وقد تأكدنا من ذلك عندما رأينا الدلائل الواضحة على وجود البشر بها، مثل الأبواب، والشبابيك والمقاعد الخارجية، وبعض البوابات، والأروقة، وكل ما يشير إلى واجهة بيوت المدينة، أما الآن فلا يسكن هذه البيوت سوى البوم، والحمام، وأبناء آوى.

وفي اليوم الثلاثين من فنتوز الموافق (٢٠ آذار / مارس)، سرنا خلال سهول بركانية لا زرع فيها، لمدة ست ساعات ونصف، وبعد مرور ساعة ونصف أخرى سرنا بمحاذاة جبل اصطناعي صغير، ورأينا على جميع أطرافه بقايا سور مكون من حجارة ضخمة موضوعة بجوار بعضها بدون ملاط، وأطراف هذا الجبل مغطاة بحجارة بركانية كبيرة.

كان الجو شديد البرودة في هذا اليوم، وهطلت بعض الثلوج والأمطار، وعبرنا نهر صغير مثل الأنهار السابقة، أي أنه ينساب من الشمال إلى الجنوب، والشوكيات تكسو ضفافه.

أقمنا معسكرنا على الضفة الشمالية، في مغارات واسعة للغاية، وللمرة الثانية نشاهد الخنازير البرية الضخمة، بعد مغادرة أورفه، ونحن في هذا المكان لا يفصلنا عن سلسلة جبال مغطاة بالثلوج سوى ثلاثة أو أربعة فراسخ، وتتدرج هذه السلسلة من الغرب إلى الشرق في القسم الأعلى من بلاد ما بين النهرين، كما أنها تلي جبال طوروس

وقد كنا بالأمس على بعد سبعة أو ثمانية فراسخ منها، وظل الثلج يهطل بالليل، أما النهار، فكان شديد البرودة.

وقد لاحظت أن جميع الجداول والأنهار الموجودة في بلاد ما بين النهرين تحتوي على سراطين كثيرة للغاية، كما في سوريا وفارس، أما عن سمك نكسوس، فقد صورته وتجدونه في (صفحة ٣) الشكل ٢، كما تجدونه مصورًا بشكل غير دقيق في كتاب (تاريخ الأسماك) لروندليه، وشاهده بلون في كريت ومقدونية، ويتوفر أيضًا في أطراف روما وصقلية، ويؤكد إيليون أنه موجود في نهر النيل أيضًا، وقد تحدث عن هذا السمك كل من: ديسقوريدس، وجالينوس، وبليناس، وابن سينا، ونيقاندروس، أما ليني، وفابرينسيوس، وهربست، فلم يتحدثوا عنه.

إن اليوم هو الأول من جرمنال الموافق (٢١ آذار / مارس)، وقد انطلقنا مجددًا في تمام الساعة

الثانية ليلاً، واستمر مسيرنا حتى الحادية عشرة.

عبرنا نهرًا صغيرًا يسمى إيليلي بعد ساعة ونصف، ثم قطعنا سهلاً غير مزروع، يوجد به بعض الآثار البركانية.

وقبل وصولنا إلى المأوى بساعة شاهدنا قرية كردية تسمى (قره موسكوك) أو (ديمي)، مقامة على صخور بركانية، وبقينا للاستراحة في قرية أخرى تسمى (كيروسمانا).

وفي اليوم التالي عجزنا عن مواصلة الرحلة بسبب الأمطار، فاضطررنا للبقاء بها يومًا آخر، وتغيرت الرياح إلى جنوبية غربية، واعتدل المناخ للغاية.

ذهبنا للإقامة في بيت رجل كردي ذو فناء داخلي تبلغ مساحته عشرة أقدام مربعة، وكانت أسرتنا متلاصقة، وقمنا بوضع كل سرير في زاوية، وقد وضعنا سلاحنا تحت الوسادة بمواجهة الحائط للحذر فقط، وكان الأمر يستحق الحذر، فقد استيقظنا خلال الليل على صوت ضوضاء مرتفع، وكان أحدهم يهدم جدران المنزل، ومجرد أن أيقظنا الخادم اختفت الضوضاء، واكتشفنا شقًا كبيرًا في الحائط المكون من الطين عندما سلطنا الضوء الذي زودنا به عليه، ويبدو أن أحدهم كان يحاول سرقتنا.

وعندما نهض صاحب المنزل الذي كان يسكن برفقة زوجته وأولاده، في أحد أركان المنزل، خرج من المنزل، ثم عاد بعد دقائق، ولم يكتشف من الفاعل، ولكن كان لديه بعض الشكوك تجاه جاره الذي زاره قبل قليل و، وعرف أننا نضع أسلحتنا بجوارنا، وهذه الحادثة ستجعلنا نكون أكثر حذرًا في المستقبل.

الوصول إلى ماردين:

في اليوم الثالث من (جرمنال) وبعد مسيرة ساعة، عبرنا مجرى مائي، يبدو أن الأمطار جعلته كبيرًا حتى وصل إلى أطراف القلعة.

وبعد مسيرة ثلاث فراسخ عبرنا نهر آخر صغير عن طريق جسر ضيق لا سياج له، ويبدو في حالة متهالكة، وعند اقترابنا من الجبل شاهدنا في أسفله بعض أشجار الزيتون الكبيرة، وقد كانت أكثر خضرة من المعتاد.

ذهب بعض أفراد القافلة إلى قرية من قرى السهل للبقاء بها، وسوف يواصلون الرحلة منطلقين من هناك.

أما نحن فقد صعدنا الجبل برفقة باقي أفراد القافلة، وكان الطريق سيء للغاية، كما أننا سنحتاج إلى ساعة ونصف أخرى للوصول إلى (ماردين)، ومنذ خروجنا من (كيروسمانا) قد مر علينا حتى الآن سبع ساعات ونصف.

تقع (ماردين) بمحاذاة قمة جبل عالي، بدرجة ١٩.٣٧ دقيقة من الطول الشمالي، وهي ماردي أو ميريدي القديمة، وهي في انحدار، وتمتد نحو الجنوب، وتستطيع الأعين أن ترى من هذا المكان المرتفع أرض واسعة للغاية، وهذه الأرض هي سهول بلاد ما بين النهرين الخصيبة، التي تمتد حتى نهاية البصر، ولا يقطعها سوى جبال سنجار الواقعة على بعد عشرين فرسخًا نحو الجنوب الشرقي، ويسكنها اليزيديون، وقد سمعت أن أخلاقهم وعقائدهم لا تشبه جميع سكان بلاد ما

بين النهرين، فتجدهم شعب قاسي وغير مضيف.

وإلى الجنوب الغربي والشرقي نرى (حران القديمة)، كما نرى أيضًا بعض الجبال الأخرى التي يقصدها البدو، ويتصف هؤلاء البدو بأخلاق ألطف ودين متسامح.

تسيطر على مدينة (ماردين) قلعة كبيرة كادت تتهدم، ويحيط بها سور كبير أقيم بغرض حمايتها، وقام باشا بغداد بإصلاحه.

ويحب أهالي (ماردين) التفاخر بأن (تيمور لنك) قد حاصر المدينة لمدة خمس سنوات دون الاستيلاء عليها، ولكن بالاستناد إلى أقوال المؤرخين العجم، يتضح أنه دخلها بدون مقاومة، وهكذا فهم مخطئين.

أما الشخص الحقيقي الذي لم يوفق في دخول المدينة فهو المدعو (هولاكو)، حفيد (جنكيز خان) الذي أصبحت بلاد ما بين النهرين وفارس من نصيبه بعد موت ذلك الغازي، وقد وقعت هذه الأحداث في أواسط القرن الرابع عشر.

مما لا شك فيه أن هذه القلعة وأسوارها كانت في هذا الوقت بحال ممتازة، وأيضًا لابد أن السكان كانوا أكثر مما هم عليه الآن.

ورغم اتساع مدينة (ماردين) إلا أنها تبدو كقرية أكثر منها مدينة، وهي تضم ثلاثة آلاف كردي تقريبًا، وخمسة آلاف أو ستة آلاف عربي وتركي، إلى جانب ألف وخمسمائة أرمني يعقوبي، ومثلهم تقريبًا من النساطرة (الكلدان) ولهم أسقف في المدينة.

ومن المعروف أن أولئك الأخيرين قد اتحدوا مع الكنيسة الرومانية، ويقيم بطريركهم في أنطاكية، أما بطريرك اليعاقبة فيقيم في ديار بكر.

كما يقيم أيضًا في مدينة (ماردين) حوالي عشرين عائلة يهودية، ويوجد بها دير للكرمليين الحفاة، ولم نر به سوى راهب واحد.

وقد كان السلطان فيما مضى يعين للمدينة حاكمًا سنويًا، ولكنها حاليًا تتبع باشا بغداد الذين يعين متسلمًا.

وقد اندهشت كثيرًا عندما علمت أنها ليست ملحقة بباشوية ديار بكر، حيث إن بغداد تقع على بعد مائة وخمسين فرسخًا ونيفًا من (ماردين) بالطريق العادي، بينما تقع على بعد ثمانية عشر أو عشرين فرسخًا من ديار بكر، أو قره آمد (آمد القديمة) وهي إحدى المدن الكبيرة في آسيا الصغرى، وتقع على الجانب الأيمن من نهر دجلة، إلى الشمال الغربي من مدينة (ماردين).

أقمنا في مدينة (ماردين) لمدة خمسة أيام، مما أتاح لنا التجول في جميع أرجائها، وقطفنا بعض النباتات المزهرة، ورأينا بعض الكروم، وبعض أشجار الفستق، والعديد من أشجار اللوز، والكرز، والخوخ، والكمثرى، والتفاح، وبعض الأشجار الأوربية المثمرة الأخرى.

ونتيجة لارتفاع موقع هذه المدينة فإن البرد بها شديد للغاية في فصل الشتاء، وعلى العكس تجده حار جدًا في فصل الصيف، خاصة عند قمة الجبل.

ويزرع الأهالي على هذا الجبل القطن والسمسم، وكذلك كميات كبيرة من الحنطة والشعير.

أما من جهة التجارة في هذه المدينة، فلها قيمة كبيرة، وذلك لأنها تقع بعيدًا عن طرق الموصل، والجزيرة، وديار بكر، وأورفة، وحلب، ودمشق، كما أنها تعتبر مخزن لبضائع القرى الواقعة نحو الشمال الشرقي، حيث يقوموا بصنع بعض الأقمشة القطنية والمراكشية، وتصنع كميات كبيرة من هذه الأقمشة في مدينة (ماردين) لتصدر إلى حلب.

في اليوم الثامن من (جرمنال) الموافق (٢٨ آذار / مارس) استأنفنا رحلتنا حوالي الساعة التاسعة صباحًا، وهبطنا من الجبل قبل الفجر، وعبرنا أرض سهلة خصبة ومزروعة، ولكن لا تحتوي على أشجار، من خلال طريق سيء، شبيه بطريق الأمس، وقد كانت الصخور الموجودة به كلها بركانية.

بعد مسيرة ثلاث ساعات توقفنا بالقرب من قرية صغيرة تقع في السهل، وأمضينا الليل بها، أخذونا إلى إسطبل، وضعنا أسرتنا في أحد أركانه، بينما وضعوا بضائع القافلة كلها بشكل نصف دائري، حتى تفصلنا عن الحمير والخيول.

وفي اليوم التاسع من (جرمنال) واصلنا رحلتنا قبل الفجر، واجتزنا أرض سهلة خصبة ومزروعة خالية من أي أشجار أو شجيرات.

على يسارنا تركنا (قرة – ديري) التي كانت فيما مضى مدينة كبيرة، ولكنها حاليًا أصبحت قرية صغيرة، ويوجد بها خرابات كثيرة من بينها بقايا كنيسة ما زال برج ناقوسها قائمًا، وقد لاحظت كثرة صهاريج المياه الكبيرة والتي لها قبة مبنية بشكل جيد في (قره – ديري) وفي أطرافها.

ويوجد بها أيضًا الكثير من الكهوف المنحوتة في الصخر، يلجأ إليها الأكراد الرحل في فصل الشتاء.

ويبدو أن هذه الكهوف كانت قبورًا فيما مضى، لأننا وجدنا فيها توابيت حجرية.

تقع قرية (قره – ديري) على نفس البعد بين (ماردين ونصيبين)، وأعتقد أنها ربما تكون القلعة التي بناها الإمبراطور (أناستاسيوس) في أواخر القرن الخامس للميلاد، وأطلق عليها اسمه، أما الرحلة (تافرنبيه) فيسميها (قرة – سيرا).

واصلنا المسير لمدة سبع ساعات ثم وجدنا قلعة مربعة يحيطها اثني عشر برجًا، وقد سمعت أن الذي بناها هو (بيليزير)، ثم مررنا ببعض السواقي التي تكونت بفعل مياه الأمطار أو ربما تكون وسعتها فقط، وأخيرًا وصلنا إلى نصيبين في منتصف النهار تقريبًا، بعد أن قضينا على ظهور الخيول إحدى عشر ساعة.

ما زال هناك بعض الآثار القديمة في نصيبين، حيث وجدنا فيها قوس نصر متهالكًا، وهيكل صغير مربع في حالة جيدة، ويبدو أن صناعته رومانية، بينما يقول (نيبور): والأرمن الموجودين في المدينة أنه شيد من قبل كنيسة في القرن الرابع على اسم (مار يعقوب) أسقف هذه المدينة.

ولكننا لا نصدق على هذا الرأي، بل نعتقد بأن هذا الهيكل شيد في زمن الرومان أو الإغريق، وعندما سيطر المسيحيون على هذه البلدة حولوه إلى كنيسة، وبعد الإسلام شيد مكانه جامع.

ورأينا في أرضية هذا الهيكل ناووسًا (تابوتا) بسيطًا من المرمر الأبيض، مع غطائه، وقد أكد لنا الأهالي أن هناك شبيه له في أرضية مكان آخر متصل به، ولكننا لن ندخل هذا المكان الآخر لأنه

مليء بالأنقاض.

ويوجد كاهن أرمينيًا يقيم الشعائر الدينية تحت قبة ظاهرة لهذا الهيكل، ويوجد بالقرب من هذا المكان خمسة أعمدة في حالة لا بأس بها، من بينها ثلاثة محتفظين بتجانسهم، ولكنها طمرت حتى منتصفها بالأنقاض.

وشاهدنا من مسافة أبعد (قد) مرمر أبيض وأسمر، معظمه مغطى بكتابة لاتينية، ولكنها ممحوة للغاية، ولذلك لم أستطع قراءة الكثير مثل:

(عربة، نصرًا، في الميدان....)، وربما يكون هذا الميدان الذي كانت تقام به سباقات الخيل.

ومن المعروف أن مدينة (نصيبين) كانت مدينة مهمة في عهد الإغريق والرومان، وتقع هذه المدينة إلى القرب من نهر صغير يسمى (مقدونيوس أوساو كوراس)، ويستمد هذا النهر مياهه من نبع مائي يقع في وسط جبال قريبة، ويمتد حتى يصب في (الخابور) ثم في نهر(الفرات) عند (سيرسيسيوم)، التي يطلق عليه حاليًا (قرقيسية) كما تقع نصيبين أيضًا في سهل واسع وخصب، وعلى بعد فرسخ واحد من جنوب الجبل الذي يكمل امتداد الجبل الذي شيدت على قمته مدينة (ماردين).

وخلال عهد (السلوقيين) اتخذت (نصيبين) اسم (أنطاكية)، وأصبحت مفتاح (قبادوقية)، وهي المقاطعة التي تقع شرقي بلاد ما بين النهرين، ثم خضعت لملوك أرمينيا حتى فتحها (لوكللوس)، بعد أن هزم كلاً من (ميتريدات) و(تيجران) أكثر من أكثر من مرة.

كما شكلت جزءًا من إمبراطورية (الفرثيين) عندما استولى (تراجان) على بلاد ما بين النهرين وألحقها بالإمبراطورية الرومانية.

وقد خلف (يوليانس) في الحكم (جوفيان) الذي كانت فترة حكمه قصيرة، وقام خلالها بهدم ما شيده سلفه، وعندما طلب (شابور الثاني) ملك الفرثيين الصلح، تحقق طلبه، وعندها تم عزل (نصيبين) عن البلاد الواقعة شرقي هذه المدينة.

أما الآن فإن مدينة (نصيبين) تتبع باشا بغداد، ويحكمها (ويوضة) (ماردين)، و(نصيبين) عبارة عن قرية متهالكة لا يتعدى سكانها الألف نسمة، ومعظمهم من الأكراد والعرب، ويوجد فيها بعض الأرمن واليعاقبة الذين يتعايشون على مرور القوافل.

وقد شيدت هذه القرية بالقرب من النهر في مكان المدينة القديمة، شوارعها ضيقة جدًا وغير متناسقة إطلاقًا، وليست مبلطة أيضًا، وبيوتها منخفضة، وغير مريحة، وبنائها ليس جيد، تحتوي على فناء غير مبلط ولا سور حوله، والجدران من الطين، والسقف من القش، ويضعون فوقه خليط من التبن والطين لحمايتهم من المطر، ولكننا اكتشفنا أن هذه الطريقة لا فائدة منها، ففي اليوم العاشر من (جرمنال) الموافق (٣٠ آذار / مارس) كان الجو ممطر، وعمت الفوضى جميع أركان غرفتنا، وسقط المطر من كل أجزاء السقف، رغم أننا كنا مقيمين في بيت يبدو في حالة جيدة

يمتلك أهالي (نصيبين) بعض القطعان، ويقومون بحراثة بعض الأراضي، ويقوم معظمهم بزراعة الأرز.

لم يكن المطر السبب الوحيد الذي جعلنا نبقى في (نصيبين)، فقد كان الأهالي يريدون التأكد من صحة الإشاعات المنتشرة، حيث أخبرونا بأن هناك عصابة أوقفت قافلة قبل وصولنا بيوم، وأرغمتها على دفع غرامة، وبالفعل فقد صادفنا قافلة وصلت في اليوم العاشر من (جرمنال)، وأكدوا لنا أنهم أجبروا على دفع تلك الضريبة، وقد كانت هذه القافلة قادمة من الموصل، ولم يسمحوا لها بالعبور إلا بعد أن تخلت لهم عن حمل أقمشة قطنية، وعشر عباءات، وأربعين قرشًا فضيًا.

وبلغنا أيضًا أنه كان هناك قافلة قادمة من (ديار بكر) جاءت إلى هنا قبلنا، وتعرضت لمشاكل كثيرة من قبل تلك العصابة التي تزداد قوة يوم بعد يوم، أي أنه كلما تأخرنا أكثر كلما تعرضنا لمشاكل أكثر، وذلك لأنهم يكثرون كلما مر عليهم الوقت، وبذلك ينجحون في الهجوم على القوافل بسهولة حتى القوافل القوية، ولحسن الحظ لم تتعرض قافلتنا لأي مكروه.

وبعد الحصول على هذه المعلومات، واصلنا رحلتنا في اليوم الحادي عشر من (جرمنال) وقد كان الجو ممطرًا، والرياح جنوبية غربية شديدة، وعبرنا النهر عبر جسر ذو اثني عشر قوسًا صغيرًا، وبعد مسيرة خمس ساعات وصلنا قرية عربية مقامة على أكمة اصطناعية، وقطعنا عدة سهول تبدو شديدة الخصوبة.

وعندما أنزلنا الأمتعة قام الأغا بزيارتنا، وهو رجل في السبعين من عمره، ذو جسم ضخم، قوي البنية، وما زال في صحة جيدة تجعله قادرًا على استعمال الرمح وركوب الخيل، ومطاردة أعدائه، حتى يبدو كأنه أقوى وأسرع شخص في القرية.

وقد عرفنا من هذا الأغا أن هذه القرية تتبع باشا بغداد، وتتم زراعة أراضي هذه القرية وتدفع الضرائب من المحصول السنوي، كما أخبرنا أيضًا أن القبائل الموجودة في أطراف جبال سنجار مستقلة إلى حد ما، وأن أحد هذه القبائل هي التي أوقفت القوافل منذ أيام، ولا أحد يعرف السبب حتى الآن.

وأضاف قائلاً: إن قبيلته معادية لتلك القبيلة، ولكنها أضعف منها، ولذلك يدافع عنها أمير الجزيرة، وهو شخص غني وذو سلطة، ويعتبر صديقًا لباشا بغداد.

وقد حذرنا الأغا من الأشخاص الذين جاءوا لزيارتنا، وأكد لنا أنهم سوف ينهبوننا بمجرد مواصلة التحرك، ونصحنا بالعودة إلى (ماردين)، أو الذهاب إلى (الموصل) عن طريق (الجزيرة).

ومدينة (الموصل) هذه تقع على نهر دجلة، وعلى بعد عشرة أو اثني عشر فرسخًا جنوب شرقي القرية التي كنا فيها.

كما كان يردد هذا الحديث دائمًا: (إن واجبي أن أحميكم طالما أنتم في أراضي، أما بعد ذلك فعلي أن أحذركم من المخاطر التي ستقعون بها).

وخلال حديثنا مع الأغا كان يتفحص أسلحتنا باستمرار، وهي عبارة عن زندان صغيران حربيان مع حرابهما، ومسدسان، وبندقية ذات طلقتين، وقد طلب منا أن نعلمه كيفية استخدام تلك الحراب، وعرف مدى فائدتها للشخص الذي يحارب مترجلاً، ولكنه أيضًا أخبرنا أن الفارس العربي لديه ما هو أفضل أي الرمح، كما أظهر إعجابه بالمسدس، ولكنه رآهما قصيرين، ولكنه ألح علينا لنترك له بندقيتنا ذات الطلقتين، حتى أنه عرض علينا أن نحدد السعر الذي نريده

مقابلها وسيدفعه على الفور، ولكننا لم نوافق بالطبع على هذا العرض المغري، وشرحنا له أن السفر في بلد مضطرب الأمن ينبغي أن يكون بالتسلح الجيد.

وعندما يئس من موافقتنا عرض علينا بندقية أخرى بديلاً عنها، وكانت هذه البندقية طويلة، وقديمة للغاية، ومركبة على الطريقة التركية، كما كان وزنها ثلاثة أضعاف بندقية الحرب الأوربية، فاعتذرنا له وقلنا إن بندقيته تصلح للحروب وأنها أكثر قيمة من بندقيتنا التي لا تصلح سوى للصيد، وعرضنا عليه أن نحضر له بندقية مثلها من (حلب) بسعر (٥٠) أي (٦٠) قرش، ولكنه ازداد إصرارًا، وكذلك تشبثنا أكثر بالرفض دون أن يبدو عليه أدنى انزعاج.

كان اليوم هو الثاني عشر من (جرمنال) الموافق (١ نيسان / أبريل)، وما زالت الأمطار تهطل، حتى أنها ازدادت انهمارًا، وكان أفراد القافلة معسكرين في العراء، أما نحن فقد نزلنا عند أحد الأعراب، في منزل من الطين، مكون من فناء مساحته (١٢) قدم مربع، وقامت زوجته وأولاده بإكرامنا، وتقديم كل ما يلزمنا بشدة، وقد وجدنا في هذه القرية زبدة وحليب فاخر، وعسل لذيذ، وجبن سيء، ويتوفر بها البيض بكثرة، كما أن الدجاج دسم للغاية.

ففكرنا بالاعتذار من الأغا بطريقة مناسبة، على عدم موافقتنا على بيعه البندقية، فقمنا بإرسال بعض أرطال السكر والقهوة له، فتقبل هذه الهدية برحابة صدر، وكافأنا عليها بخروفين.

مر النهار ببطء شديد، ولم يتمكن أدلاء القافلة حتى الآن من اتخاذ أي قرار، ولذا فقد اقترحنا أن نرسل خبير إلى شيخ القبيلة، طالبين منه إذن بالمرور مقابل هدية، وهذا كان راي الأغا، وتقبله جميع أفراد القافلة، ولكن بمجرد اتخاذ وضع التنفيذ تردد الجميع فأصبحنا كما لو أننا في مجلس شورى، حيث إن جميع أهالي القرية اعترضوا على هذا القرار، وقالوا إنهم في حالة حرب مع أولئك الأشخاص، ولم يقبل أي فرد من القافلة تنفيذ المهمة، واقترح بعضهم أن يكون الطلب من أمير الجزيرة

ونظرًا لوقوع الجزيرة على بعد مسيرة يوم من هنا، فقد تعهد الأغا بإرسال الرسالة مع بعض الضباط مقابل عشرة قروش، وقال إننا سنتسلم الرد صباح اليوم التالي، وقمنا بإعطاء عشرين قرش إلى المكرين ليوافقوا على هذا الرأي، ولكننا لم نكن على يقين من هذا الأمر، ومر ذلك النهار أيًا دون التوصل إلى أي نتيجة.

وفي اليوم الثالث عشر من (جرمنال) كان الموقف محير، ولم نحدد القرار الأخير، فقرر البعض الرجوع إلى (ماردين) بينما فضل الآخرون البقاء والانتظار، وبدأ بعضهم في العودة بالفعل.

وحوالي الساعة العاشرة صباحًا من الرابع عشر من (جرمنال) رأينا قافلة قادمة من الموصل، وعلمنا أنها تمكنت من المرور بسلام، لأنهم قدموا هدية مقدارها خمسين قرشًا إلى رئيس القبيلة، وهكذا سمح لهم بالعبور من خلال أراضيه بدون التعرض للمشاكل.

وبعلمنا بهذا الأمر اقتنعنا بأن كل مشاكلنا قد زالت، وأننا سنتمكن من الوصول إلى (الموصل) بكل سهولة بسبب بضع دراهم، لكننا لم نشك بأن أدلاءنا لن يتقيدوا بما قدمه لهم هؤلاء الأشخاص من أمثلة.

وفي ظهر اليوم الرابع عشر بدأنا المسير مرة أخرى، وكان المطر قد انقطع، وأصبح الطقس لطيف للغاية، وبعد ابتعادنا عن القرية بمسافة فرسخ وصلنا إلى نهر صغير قد أثرت به الأمطار،

وجعلته كبيرًا، وبينما نحن نعبر هذا النهر شاهدنا ثلاثة أعراب مسلحين قادمين نحونا، أحدهم يركب حصانه، أما الآخران فكانا مترجلان.

وبدا على جميع أفراد القافلة الذعر، وكأن القبيلة كلها قد أتت لمهاجمتنا، ولم يكن يفترض أن نشعر بالخوف، حيث إننا لم ندخل أراضيهم حتى الآن.

واقترب منا هؤلاء الثلاثة، وقالوا: إنهم لن يجعلونا نمر إلا إذا دفعنا لهم عشر قروش، وقد كان المبلغ زهيد، وكان بإمكان القافلة تنفيذ طلبهم، وهموا بفعل ذلك لولا أننا قلنا لهم:

لم تدفعوا لأولئك الأفراد الثلاثة الذين لا تخشون بأسهم، في حين أنه بإمكاننا تأديبهم، ووضع حد لتجرأهم علينا؟

ولذلك قررت القافلة التراجع والتصدي لهم، وكانت أسلحتنا النارية بمثابة درع الحماية الذي يطمئنهم ويزيد من ثقتهم، فحدثت مشادة بسيطة بيننا وبين أولئك الأشخاص، وكنا نظن أنها ستؤدي إلى إراقة الدماء، حيث هددونا عدة مرات بأنهم سيضربوننا، وكانوا يقتربون منا أحيانًا ليتفحصوا أسلحتنا، وللتأكد من مقدار تخوفنا منهم.

وكنا نحن صامتين، وعلى أتم استعداد لاتخاذ موقف الدفاع إذا تفاقم الأمر، وعندما طالت المشادة، وأصبحت مملة، قام الراهب الذي يرافقنا، بالتحدث معهم قائلاً: (إما أن تنسحبوا في صمت، أو أننا سوف نطلق عليكم النار إذا استمررتم في إزعاجنا).

وعندما عرضوا علينا مرافقتنا إلى القبيلة المجاورة مقابل مبلغ من المال، فوافقنا، ولكن طلبنا منهم أن يسلمونا أسلحتهم، وسنردها إليهم عندما نصل، ولكنهم رفضوا وتركونا ورحلوا.

واصلنا طريقنا، وبعد ثلاثة فراسخ من هذا المكان عبرنا نهرًا آخر، ودخلنا أراضي القبيلة التي كنا نشك في أنها مفتعلة هذه الحوادث، ولم يكن الوقت يتعدى الخامسة، ولكن رفض جميع أفراد القافلة التقدم أو تقديم أنفسهم إلى شيخ القبيلة، وسيطر القلق على الجميع طوال النهار.

وعندما كنا في القرية التي عسكرنا بها، قال الأغا لإدلائنا أنه استلم أمرًا من والي (ماردين) يسمح لنا بالمسير ليلاً مع حماية كافية، وأن هناك بريد مرسل من القسطنطينية إلى بغداد، وعرض على القافلة الانضمام إليه، وكان هذا العرض مغري جدًا للدلائل حتى أنهم كانوا يستقبلونه بكل فرح، لولا خوفهم من عبور الأنهار ليلاً بالحمير المحملة، لذا قرروا الانطلاق وانتظاره في مكان آخر، واتفقوا معه على أنه سوف يصلهم في الساعة العاشرة، وتخطت الساعة الثانية عشر ليلاً، والأغا لم يأتِ، فظنوا أنه إما لم يأت بعد أوانه مر دون أن يعلموا، واجتمع الأدلاء كلهم منتظرين الأغا، فاتحين آذانهم لسماع أي حركة ممكنة، وبدءوا يتحدثون عن مغامرات القوافل من حين لآخر.

أما نحن فقد جلسنا غاضبين من تصرفاتهم، وكنا قد أوشكنا على النوم عندما أقبل علينا الراهب حوالي الساعة الواحدة قائلاً: (إن القافلة كلها قائمة وخائفة، لأنهم سمعوا بعض الرجال يتحدثون في مكان قريب، وقد ذهب بعضهم لمعرفة مصدر الصوت).

فقلنا له: (لم الخوف، لابد أن الأغا قادم، فليمضوا سراعًا، وليدعوه ريثما ينتظرنا لحظة).

ولكن لم يجرؤ أي شخص منهم على الذهاب إلى الطريق، ورغم أنهم أخبرونا أن أولئك الرجال

مخيمين على بعد مائتي خطوة من موقعنا، إلا أننا اكتشفنا أنهم لم يكونوا على بعد أكثر من عشر خطوات منا، وقد كان من المفروض أنهم قائمون بمهمة الرصد.

وفي اليوم الخامس عشر من الشهر، وقد أشرقت الشمس وعم ضوؤها على كل مكان، وما زال القوم حائرين، فلم يكونوا يجرؤوا على مواصلة المسير، وكذلك لم يجرؤوا على الذهاب، وتقديم أنفسهم إلى شيخ القبيلة، حتى أنهم كانوا خائفين من التحدث بصوت مسموع، ولكنهم كانوا يتركون الحمير يقرعون أجراسهم التي هي أعلى من صوتهم، وكانت هذه الحمير تعبر عن مشاعر الحب بينها بشكل عنيف، دون أن يصدر الإدلاء أي تأثر أو إحساس، وعندما رأينا هذه التصرفات قلنا:

(ترى ما هذا السلوك؟ أية سخافة؟ وأي جبن؟ أترى التجارة بيد أناس مثل هؤلاء؟ إن كان شخصان فقط كافيين على أخذ ضريبة منهم؟ فقد كنا واثقين بأن رجال الأمس الثلاثة، يحمل أحدهم رمحًا فقط، وللاثنين الآخرين خنجر رديء في الحزام، كان بوسعهم الحصول على القروش العشرة لو لم يخفهم حضورنا، ويبعث الطمأنينة في أفراد القافلة).

وبدأنا نشعر بالشفقة تجاه أهالي هذه المناطق بسبب الوضع المزري الذي وضعتهم فيه حكومتهم التي لا تراعي سوى القوي، لدرجة أنها صنعت جدارًا قويًا بين جماعات السكان، بفرضها الضرائب على البعض وإعفاء بعضهم الآخر، وبينما نحن شاردون في هذه التأملات، إذ بنا نسمع صياحًا وصراخًا مرعبًا من أفراد القافلة، ويبدو أنهم قد رأوا فرسانًا قادمين عليهم من بعيد، فملأ الرعب قلوبهم، وبدأ بعضهم يقبلون الأرض، ويقرعون صدورهم، ويطلبون الغفران، وشاهدنا نحن هذا الموقف المخزي، مما جعلنا نبتسم مشفقين عليهم، ثم تحولت الشفقة إلى احتقار وامتعاض، وبدأنا نتمنى لو أنهم نهبوا وعوملوا معاملة سيئة، والطريف في الأمر أن هؤلاء القادمين كانوا عشر رجال فقط، بينما كنا نحن أكثر من خمسين، ورغم ذلك فقد خافوا وزعروا عندما رأوهم، وبدأت أتعجب وأحدث نفسي قائلاً:

(إن كانوا يخافون الموت هكذا، فلم يستسلمون له بدون أي دفاع عن النفس؟ وإن كانوا يتطلعون إلى ضياع بضائعهم وكأنه الشر الأكبر، فلم لا يدافعون عنها بحياتهم؟ إن الخوف عند الخطر ضعف معذورًا أحيانًا، ويدعو للشفقة دائمًا، أما الاستسلام وعدم الدفاع عن النفس، وعدم التصدي لما يعرض الممتلكات للخطر، فإذا كان الشخص قادرًا على الصمود، فلا يوجد سوى تفسير واحد وهو أنه جبان ولا يستحق إلا الاحتقار والموت أفضل له).

ورغم أننا لم نكن خائفين مثلهم إلا أن الحذر واجب، ولذلك جهزنا سلاحنا، ووقفنا بجانب أنا والخادم والراهب، وفكرنا أن هؤلاء ربما يكونون الأغا وبرفقته عشرة رجال، ورغم أن افراد القافلة لم يصدقوا على هذا الرأي إلا أنه هدأ من روعهم قليلاً، وعندما اقتربوا منا اكتشفنا أنهم حقًا الأغا ورفاقه، وأبدى الأغا مدى تعجبه لعدم انضمامنا إليه منذ أن مر علينا بالأمس.

وأفادنا أنه قد أوصل البريد حتى آخر أراضي قبيلته دون أن يقابل أي شخص، بل ونصحنا بمواصلة الرحلة على الفور.

اعتقدنا أنهم سيكتفون بهذا الكلام الموثوق، ولكننا أخطأنا، فقد جلسوا ساعتين أخريين مترددين، ولم نكن نعلم ماذا سيقررون لو لم تأت قافلة أخرى من الموصل، وتخبرنا بأنهم قد أرسلوا أحدهم إلى شيخ القبيلة الذي أجابهم بأنه لن يتعرض لأي قافلة، ولن يطلب منهم أي

مبالغ، وهكذا مرت هذه القافلة بسلام، وبفضل هذا التأكيد واصلنا رحلتنا قرابة الظهر، وبالفعل لم نصادف أي أحد.

وبعد مسيرة خمس ساعات عبرنا نهرًا صغيرًا قاعة محفورة بعمق في أرض بركانية، وأقمنا خيامنا على ضفته اليسرى، خارج حدود القبيلة التي ترددوا في دخولها، والتي تعجبنا من سلوكها الغريب، حتى وصلنا إلى الموصل، حيث علمنا هناك بأن باشا بغداد كان مريضًا، حتى أنه اقترب من الموت في تلك الأيام، ثم أشيع بأن صحته قد تحسنت، وأنه سيعود إلى كامل صحته قريبًا.

بعد عبورنا ذلك النهر الصغير الواقع على بعد فرسخ من تلك القرية العربية التي أقمنا بها، توغلنا في الصحراء.

ومنذ خروجنا من (ماردين) وحتى وصولنا هذه القرية العربية ونحن نرى بعض القرى الآهلة بالعرب، كما شاهدنا قطعان الأبقار والأغنام والعديد من المزروعات في جميع أنحاء الريف، وكانت الأراضي سهلة وخصبة للغاية.

أما الأراضي الواقعة بين النهر وضواحي الموصل، فقد كان يرعى بها بعض مواشي العرب، ولا يوجد بها أي محاصيل زراعية، رغم أنها سهول واسعة وخصبة للغاية، كما أنها تنبت مراعي كثيفة، وترى بها قطعان العرب والأكراد أيضًا، ولكن الأكراد لا يتجاوزون حدود الأراضي المتفق عليها، حيث إن جميع العشائر تقف ضد العشيرة التي تخل بذلك الاتفاق الذي أقره أسلافهم.

ويحق للقوافل ترك دوابهم وحيواناتهم ترعى بحرية في هذه الأراضي دون التعرض لأي مشاكل، وقد رأيتهم يتوقفون في أي مرعى طبيعي كما في الحقول القريبة من المناطق السكنية.

وينتشر العشب بكثرة في هذه الأراضي لدرجة أنه يفيض عن الحاجة، ويجب أن يؤكل في مكانه، ولذلك لا يهتمون بفصل المراعي، ووضع العلف في أهراء الشتاء، ويعوض عن العشب في فصل الشتاء بوضع حصة من الشعير صباحًا ومساءًا.

حتى إن خيول المدينة لا تعرف طعامًا آخر، فتجدها تتناول العشب الطري في الربيع لمدة خمسة عشر يومًا، من أجل التطهير، أما باقي أيام العام، فلا تأكل سوى التبن والشعير.

في اليوم السادس عشر من (جرمنال) سرنا ثماني ساعات، وهطل المطر بغزارة طوال النهار وبعض الليل، وأقمنا خيامنا في حقل يعلو فيه العشب الغزير، وأرض مروية، وبسبب هذه الأمطار الغزيرة قمنا بحفر حفرة صغيرة حول خيامنا لحماية أمتعتنا وأسرتنا من الماء.

واستمرت الأمطار في اليوم السابع عشر، وسرنا لمدة عشر ساعات ونصف، ثم استرحنا بضع ساعات على حافة ساقية ذات مياه طفيفة الملوحة، وبعد الغداء سرنا مسافة فرسخين ونصف، ورغم أننا نسير على أرض سهلة إلا أنها أصبحت غير مستوية، وعلى بعد فرسخ ونصف يقع تل في طريقنا.

وفي اليوم الثامن عشر سرنا لمدة ثماني ساعات، ثم استرحنا على ضفة جدول يسميه (نيبور كاسفي) (كوبري)، ومن عليه شاهدنا آثار جسر عالي ذو ثلاثة أقواس، وشكله جميل.

والأرض هنا ليست مستوية، وقد رأينا فيها جبس أسمر وجبس أبيض ذو لون جميل، يشبه المرمر، وشكله جميل.

وشاهدنا بعض الجمال من بعيد، وفي تمام الساعة السادسة واصلنا المسير، حتى الساعة العاشرة، وبعد مضي ربع ساعة من امتطائنا الخيول، وجدنا على اليسار بعض الخيام، وبعد ذلك رأينا مجموعة كبيرة من الأضواء في مكانين مختلفين، ويبدو أنهم أعراب الموصل، الذين ينتقلون إلى هنا في بداية الموسم الجميل لرعي مواشيهم في هذه الأراضي التي لا زرع فيها.

في اليوم التاسع عشر من (جرمنال) سرنا بين مرتفعين، يبعدان عن بعضهما البعض بمسافة تزيد عن فرسخين، وما زالت الأرض سهلة وغير مستوية، كما أنها مزروعة، وتبدو شديدة الخصوبة.

وبعد ست ساعات ونصف من المسير وصلنا مدينة (الموصل)، ونزلنا في دير الرهبان الدومنيكيين.

الفصل الثاني

محتويات هذا الفصل:

وصف الموصل، السكان، القرى والمحاصيل، إنتاج هذه المدينة وتجارتها، سلوك الباشا،، السفر إلى بغداد، جولة في نينوى.

تقع مدينة الموصل في سهل يقع على الضفة الغربية من نهر (دجلة) بدرجة (٣٦هـ و ٢٠هـ دقيقة).

وتعتبر هذه المدينة مهمة للغاية، من حيث عدد سكانها، وكذلك موقعها وتجارتها، وقد قام الرحالة (نيبور) برسم خططها، ويبلغ قطرها حوالي ١٣٠٠ خطوة هندسية، كما أن المنازل الواقعة في الشمال الغربي لا تصل إلى الأسوار، حيث إن امتداد المدينة نفسها لا يزيد عن ألف خطوة.

وهذه الأسوار تشبه أسوار جميع المدن التركية والعربية، من حيث الارتفاع، واحتوائها على عدد كبير من الأبراج، ويحيطها حفر عميقة أو خنادق، يمكنها أن تملأ النهر إذا تعلم العثمانيون طرق الدفاع عن المواقع.

وفي الجانب الأيمن يوجد قصر مهمل على جزيرة في نهر (دجلة) ولا يحتوي على أي مدافع، ورغم ذلك إلا أن هذه المدينة قادرة على الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم مفاجئ، مهما كان مصدر الهجوم، وبالفعل لقد انتصرت هذه المدينة عدة مرات على الفرس بفضل قوتها فقط.

وفي عام (١٧٤٣م) قام (نادر شاه) بتجهيز جيش كبير اشتهر بانتصاراته وجاء لمهاجمتها، ولكنه لم ينجح في هذا الهجوم.

لقد كان ذلك السور فيما مضى يمتد على طول نهر (دجلة)، أما الآن فلا يوجد منه سوى البقايا، وذلك بسبب الإهمال في الصيانة، وأعتقد أنهم ظنوا أن النهر كافي لحماية المدينة بالكامل، وتبدو الأسوار التي في الجنوب الغربي أحدث من تلك التي في الشمال الغربي، وقد لاحظت أيضًا أنهم قاموا ببناء بعض البيوت فيما بعد في أماكن عديدة وجعلوا من جدرانها سور.

ومن المؤكد أن امتداد المدينة في الماضي كان أكبر من الآن، وقد تأكدنا من هذا الأمر خلال رؤيتنا للعمال المنهكين في الحفر خارج المدينة وسط الأطلال لاستخراج المواد المختلفة التي تصلح للاستعمال مرة أخرى.

ومن المعروف أن الموصل قد سقطت عام (١٥١٦م) وقد قام (محمد باشا) والي (ديار بكر) بإحراقها في عهد سليم الأول، ولم يكتفِ بذلك بل قام بذبح الأهالي.

وأعتقد أن نطاق المدينة من الجانب الجنوبي قد قل خلال هذه الفترة مما أدى إلى ترك مسافة خاوية في الشمال الغربي حتى الآن.

ويوجد الكثير من الجوامع الجميلة التي تزين المدينة، وتحتوي أيضًا على خمسة عشر خانًا، من بينها عشر خانات ذات بنيان جميلة.

وأسواق المدينة كثيرة وجميلة، وكذلك الحمامات العامة والمقاهى.

وبها كنائس كثيرة للمسيحيين، ودير للدومنكيين وجدنا به ثلاثة رهبان، وقد علمت أن رئيسهم طبيب ثقة لدى الباشا.

ورغم أن المدينة جيدة البناء، إلا أن طرقاتها ضيقة وغير متناسقة، والقليل منها مبلط، ولذلك يضطر الأهالي للسير في الأوحال لمدة ستة أشهر، وستة أشهر أخرى في الأتربة.

ويوجد بكل منزل سطح أو أكثر، ويتم بنيان الأسطح بحيث تكون في غطاء عن الجيران، وفي ليالي الصيف تصعد النساء عليها لتستنشق الهواء، وطوال ثلاثة أو أربعة أشهر يقوم الأهالي بأخذ أفرشتهم إلى الأسطح، وتختلف أفرشة الأغنياء عن الفقراء، فتجد أن أفرشة الأغنياء عبارة عن مطرح أو مطرحين من القطن، أما أفرشة الفقراء فهي عبارة عن بساط أو فرش بسيط حسب الحالة المادية، أما الأغطية بشكل عام فتكون ثقيلة بعض الشيء؛ لأن برودة الليل تساوي حرارة النهار.

ومعظم مباني المدينة من الطين، وهناك بعضها من الحجر، أما الجدران فهي مغطاة بطبقة من الجص، ويعملون الإيوان والأرضيات من الرخام الذي يبدو لأول وهلة أنه مرمر جميل أبيض وأسمر، ولكنه لا يحتفظ بهذا الجمال كثيرًا.

وهذا الحجر الذي وصفه (نيبور) بالمرمر ينتشر بكثرة في أطراف الوصل، ويبدو أنهم يستعملونه في المدينة منذ زمن بعيد، حيث رأينا أنهم يستخدمونه بكميات كبيرة.

وتستخرج هذه المادة من مقاطع في جنوب المدينة، ثم تقطع القطع الكبيرة وتنظف، أما القطع الصغيرة المفتتة فتحول إلى جص

يوجد في الموصل سبعة أو ثمانية آلاف مسيحي، منهم يعاقبه ونساطرة، وألف يهودي تقريبًا، وخمسة وعشرين ألف مسلم عربي، وحوالي خمسة عشر أو ستة عشر ألف كردي، ومثلهم تقريبًا من الأتراك، ولا يوجد بها أي يزيديون، حيث إن الناس لا يرحبون بهم في هذه المدينة.

ولا يسمح لهم بممارسة دينهم بحرية، ولذا يفضل اليزيديون الإقامة في جبال سنجار، أو في بعض القرى الواقعة شرق دجلة، مما يوفر لهم بعض الاستقلال.

كان في الموصل باشا ذو ثلاث طوغات، بينما الباشا الحالي لديه طوغين فقط، ولذلك فعليه في حالة إعلان حرب على فارس أن يسير خلف لواء باشا بغداد.

ويوجد تحت إمرته سبعة أمراء سناجق، ومائتان وأربعة وسبعون زعيمًا، يستطيعون تجهيز ستمائة من رجال القتال الأشداء مع جبلييهم، إلى جانب الخيالة، ويبلغ عددهم مائتي فارس تقريبًا، أما قوات الانكشارية فعددهم ستة أو سبعة آلاف.

وحاليًا لا يزيد عدد حرس الباشا عن مائتين حارس.

ولا تمتد هذه الباشوية كثيرًا، فهي لا تبلغ في الشمال إلى أبعد من (آسكي موصل) و (كسفى كوبري) بينما تمتد إلى الجنوب حتى (تكريت)، وتمتد في شرق دجلة حتى (الزاب الكبير)، (حافات الجبال) أما باشوية بغداد فتضم المجرى الشرقي لدجلة بالكامل، وحتى (الزاب الكبير) ومناطق الأكراد، وفي الغرب تمتد لتشمل الغرب، وكل بلاد الجزيرة حتى (ماردين) وأطرافها.

ويبلغ عدد سكان باشوية الموصل مائتي ألف نسمة، ومن بينهم سكان المركز.

ولا تصل واردات الضريبة الاعتيادية وجميع المصروفات المرتفعة إلى مبلغ مائة بورصة (كيس) أو مائة ألف فرنك.

وباشوية الموصل رغم أنها محصورة في رقعة صغيرة، إلا أنها مليئة بالسكان، ولها أرض خصبة للغاية، وتكثر بها المحاصيل.

وتبعد الموصل عن الجبال بمسافة اثني عشر أو خمسة عشر فرسخًا، كما تبعد عن جبال الثلوج بمسيرة ثلاثة أيام.

ويمكننا رؤية بعض السهول والتلال التي تمتد في الشمال والشرق، وحتى مشارف جبال كردستان العالية، وتقوم هذه الجبال بفصل بلاد فارس عن الإمبراطورية العثمانية، وتمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

إن مناخ مدينة (الموصل) شديد الحرارة في الصيف، ومتقلب جدًا في فصل الشتاء، وعادة ما يكون هواء الشتاء صافيًا ولطيفًا، عندما تسود رياح الجنوب، أما عند هبوب رياح الشرق والشمال، فيصبح الجو قاسيًا وقليل البرودة، بينما تسبب الرياح الغربية هطول المطر في الشتاء، والرطوبة في الصيف.

إن الموصل مثل جميع بلاد ما بين النهرين السفلى، تصبح مأهولة خاصة في الشهور الحارة جدًا من العام بفضل هبوب رياح البحر المتوسط بشكل قياسي خلال النهار.

وبدءًا من شهر (بريريال) وحتى شهر (فندمبير) لا تتكون السحب أبدًا ولا يهطل المطر الذي يتساقط في الربيع وفي أواخر الخريف، أما ليالي الصيف فتزداد بها الرطوبة، ويشتد الحر خلال النهار بدءًا من الحادية عشر ظهرًا وحتى المساء.

وبشكل عام فإن جوها صحي للغاية، ونادرًا ما تتعرض المدينة لمرض مستوطن، وتندر فيها أمراض الحمى المتواترة والصفراوية المتقطعة، وكذلك يندر الطاعون الذي يسبب أضرارًا فادحة في الساحل السوري، حيث إن حركة المياه تجعله يتجدد ويتطهر بشكل مستمر.

وتعتبر المناطق الواقعة في السهول أو الموجودة على مرتفعات، أكثر صحية من تلك الواقعة في الأودية أسفل الجبال، وعادة ما يكون التعرض لهذه الأمراض في البلدان الحارة أكثر خطورة، حيث تكون أعراضها واضحة أكثر، ولنفس السبب نجد أن المدن الواقعة على حافة البحر يتمتع سكانها بصحة جيدة وبنية سليمة، خاصة إذا توافر بها الجبال بكثرة، وإن لم تكن محاطة بالبرك والمياه الراكدة.

ورغم ذلك نجد أن المدن الأولى لها مميزات خاصة، حيث إنها تستمد مياهها من الأنهار التي تتميز مياهها بالعذوبة بدلاً من مياه الينابيع والآبار والصهاريج. كما أن أهالي (الموصل) لا يشربون إلا من مياه نهر (دجلة)، حيث يملئون به القرب ويأخذونه إلى منازلهم، ثم يتركونه يركد قبل أن يشربوه.

ونظرًا لابتعاد الجبال الثلجية فلا يمكنهم الحصول على ثلج وبما أنهم لا يفقهون كيفية صنع المجمدات التي تملأ بالمياه في الصيف لتبريدها فهم يستخدمون الآنية الفخارية لتبريد المياه في الصيف لتبريدها، فهم يستخدمون الآنية الفخارية لتبريد المياه كما يفعل أهالي مصر، ويضعونها في الهواء الطلق لساعات طويلة، فتصبح المياه باردة إلى حد ما مما يساعد على تقبلها، ويكون

هناك خمس أو ست درجات كفارق بين حرارة الجو وبرودة الماء.

تعتبر مدينة (الموصل) من أهم الأسواق التجارية في الشرق، حيث إن معظم الأقمشة وعقاقير الهند والسلع التي تفد إلى البصرة وبغداد تمر على (الموصل) في طريقها إلى (الآستانة) من خلال آسيا الصغرى، وكذلك أيضًا بشأن قهوة مخا وبضائع فارس.

كما أنها تعتبر أيضًا مخزن أو مستودع للعفص والصمغ وشمع كردستان، وقطن المناطق القريبة.

وتصنع بها الأقمشة المراكشية ذات النوعية الفاخرة، والأقمشة القطنية التي يستخدمها الأهالي.

بينما يصل العفص والصمغ والكثيراء إلى حلب، حيث تباع هناك إلى التجار الفرنسيين الذين يرسلونها إلى (مرسيليا).

وهناك قماش يسمى (الموصلي) وهو قماش قطني اتخذ هذا الاسم لأنه يمر بمدينة الموصل أثناء ذهابه إلى أوربا، كما يصل من الهند إلى فارس عن طريق الخليج العربي.

تستورد مدينة (الموصل) احتياجاتها مثل العباءات المصنوعة في سوريا، ويأتيها من سوريا وبلاد ما بين النهرين والأناضول وأرمينيا وكردستان نحاسيات قديمة تمر بها قبل وصولها إلى الهند عبر بغداد.

ويكثر وصولها في الموصل وبغداد ومدن البلاد الجبلية نوع من (المن) يستخدم في صناعة حلويات صغيرة بيضاء، ذات طعم يشبه عجين اللوز شديد الحلاوة، أو كخليط من العسل مع عجين السمسم، وهذا ما ظننته في أول مرة تناولته به.

وهذا المن اللذيذ غير مسهل، ويجمع في (كردستان) وشمال فارس، ويطلقون عليه (كيزن – كيبان) ويصل مخلوطًا بأوراق شجر لم نستطع تحديدها بسبب تفتت الأوراق، وعندما سألنا التجار الذين يقطعون تلك الجبال لم نستفد شيئًا، حيث أخبرنا بعضهم أنهم يجمعونها قبل طلوع الشمس من على شجرة ضخمة، وأشار لنا آخرون على شجرة شبيهة بشجرة الصمغ، أما الأغلبية فقد أشاروا إلى شجرة متوسطة الحجم، أو شجرة كبيرة تشبه البلوط.

وقد ذكر هذا المن كل من (سترابون) و(ديودورس الصقلي) و(كوبنتوس كرس)، ووصفوه بأنه جزء من العسل، ويستخلص في (هيركانيا) من على أوراق الشجر، وأضافوا أنه يجب الحصول عليه قبل شروق الشمس، ومن هنا نجد أن هذا المن يتخلف عن المن الذي يستخرج من الجنزبيل، وسوف نذكره في موضع آخر، وقد اتخذنا نماذج من النوعيين الأول والثاني.

وتنتج بساتين (الموصل) ليمونًا حلوًا، وأترجًا، وفستقًا، وتينًا، ورمانًا، وخوخًا، ومشمشًا، وأجاص، وأشجار أخرى مثمرة، كما في أوربا، أما الأراضي المحيطة بها فتنتج الحبوب والقطن بكثرة.

ويملك سكانها قطعان ماشية كثيرة، وهم يصنعون كميات قليلة جدًا من الخمور، رغم أنهم يستسيغون الكرمة كثيرًا.

وتحصل الموصل على أجود أنواع العنب من (كردستان) و(الأناضول)، وتحصل أيضًا من (كردستان) على الزبيب الذي يستخدمه المسلمون في تصنيع الشراب، ويستخدمه المسيحيون

في صنع عرقًا فاخرًا بواسطة التخمير والتقطير.

ولا يعرف سكان المدينة شراب التوت وشجرة التوت عندهم كبيرة الحجم، وتزودهم (كردستان) أيضًا بأحد أنواع التبغ، ولكنه أقل جودة من ذلك التبغ الموجود في (اللاذقية).

أثناء إقامتنا في (الموصل) سمعنا التجار والأهالي يتحدثون عن الباشا، بكل خير، ويمدحون فيه وفي حسن إدارته، وكيف أنه وفر لهم الأمن في جميع أنحاء ولايته، كما أظهروا إعجابهم ببساطته وبساطة موظفيه، وأخبرونا بمدى ارتياحهم الشديد للهدوء المستمر في كل مكان، والحماية التي وفرها للتجارة.

وبالفعل فقد تأكدت من صحة هذه الأقاويل، فاكتشفت أن الباشا يبذل أقصى مجهوده لدفع يزيدي سنجار، والأكراد، والكلدان، والأرمن الذين في (كردستان) والعرب الذين في (بلاد ما بين النهرين) إلى جلب محاصيلهم الزراعية إلى مدينة (الموصل)، كما أنه يحذر أي تعسف أو تعصب ضدهم، ويعاملهم بكل عدل وحيادية، وكوسيلة لذلك قام بإجراء بعض التعديلات على رسوم دخول هذه المواد الغذائية، كما أنه يسعى لتسهيل معاملات التجار من قبل موظفي الجمارك، وهو شديد الحرص على تقليل معاملات التجار من قبل موظفي الجمارك، وهو شديد الحرص على تقليل الرسوم المحصلة عن البضائع، وشغله الشاغل هو انتشار النظام، وحماية الضعفاء والتصدي للأقوياء، ولا يكترث لإظهار سلطته التي لا يحتاجها.

وقد كان هذا الأسلوب الحكيم والسياسي النتيجة المرجوة، فقد تعرضت (الموصل) في الماضي أكثر من غيرها إلى فتن وحروب داخلية، وقد نشأت هذه الصراعات بسبب اختلاف عادات وأديان الأقوام التي تفد إليها أو تسكنها، وليس بسبب بعدها عن العاصمة، وبعد ذلك شهدت انتهاء هذه الفتن وانتشار الأمن، ولذا فقد أصبحت حرمتها قائمة في الحروب التي جرت بين الأكراد والعرب، حتى أن الباشا بنفسه بذل ما بوسعه للتصدي لهذه النزاعات.

وعندما نشأت النزاعات اللاهوتية بين النساطرة واليعاقبة، لم تتطور المسألة لسفك الدماء، وإنما اكتفوا بالصياح العالي دون أن يصغي أحد الطرفين للآخر، ورغم تبادلهم الكراهية؛ إلا أنهم لم يتعرضوا لبعضهم البعض.

وتوافد التجار والباعة الذين وجدوا أنفسهم في مأمن جماعات جماعات، وقاموا بتوسيع مجالاً حرًا لأعمالهم التجارية.

ونظرًا لزيادة استهلاك المدينة، تزايد عدد القوافل، وبمساعدة الأوضاع التي ذكرتها سابقًا أصبحت المدينة مستودع ضخم جدًا، ومنذ هذا الوقت كثرت بها الحرف والصناعات، كما تضاعف الإنتاج الزراعي، وزاد عدد السكان، وعندما يلاحظ السكان هذه الرفاهية، يستفيدون أيضًا بفوائد هذه الحياة الرغيدة، الخالية من الهموم والمشاكل والتظلمات.

وجميع هذه المميزات لا ترجع فقط إلى أسلوب الباشا الحكيم فقط؛ بل تعود أيضًا إلى الضمان السنوي الذي يحصل عليه هذا الوالي لتجديد ولايته، وكذلك ليكون خلفه في الولاية أحد أقربائه المقربين.

ومنذ وصول عائلة عبد الجليل الكبيرة ذات الاقتدار الكبير، والتي هي في الأصل من (الموصل) إلى تولي حكم هذه المنطقة، فقد وجد السلطان نفسه مضطرًا إلى إصدار فرمان كل عام لتأييد

حكم العائلة، وذلك بناءًا على طلب الأهالي، وما الضرر من ذلك إن كان يحصل على أموال الضرائب بانتظام، كما أن أوامر الباب العالي تنفذ على الفور.

وفي حالة موت الباشا، يتم تعيين الشخص الذي يرشحه الأعيان، بحيث يكون هذا المرشح قادرًا على فرض سيطرته أكثر من غيره.

وبما أن الباشا يستطيع دعم نفسه بسبب سمعته ووجاهة عائلته، فهو لا يحتاج إلى حراسة كبيرة العدد، فقد اشترى هذه الباشوية بأمواله.

وبما أنه متأكد من استرجاع هذه الأموال بالتدريج، فلا يحتاج للتضييق على الشعب، على عكس ما كان أسلافه المبجلون يفعلون بسبب طمعهم. أو كالذين لا هدف أمامهم سوى جمع المال، ونتيجة لتأكده بثباته في موقعة، فنجده يغير نظرته إلى حكمه، ويتطلع إليه كأنه ملكيته الخاصة التي ينبغي تحسينها.

ولم يكتفِ الباشا بمنع المظالم والاختلاسات والأعمال الارتجالية فقط؛ بل فقد استوعب مدى أهمية تشجيع الزراعة والصناعة والتجارة، مما يساعد على تنمية ثرواته أيضًا.

ولا يزيد حرس الباشا الخاص عن مائتي رجل، وذلك لأنه محاط بالرأي العام، ومساندة الشعب الذي يحبه، ولذا فهو آمن من بين أولئك المائتين المخلصين، على عكس حال باشا (عقرة) المحاط بعسكر يكن له الكره والبغضاء، والذي على أتم استعداد للدخول في طاعة أي باشا آخر يدفع أكثر.

وباشا (عقرة) في أمس الحاجة لعسكره لاستمرار استقلاله، ويعيش هذا العسكر على النهب والسرقة والمصادرة، بينما يكتفي باشا (الموصل) بحامية بسيطة، لخدمته في قصره، ولتوصيل قراراته إلى خارج المدينة، ويحصلون على رواتبهم من واردات الدولة الاعتيادية.

ومن ذلك نستنتج الفرق الكبير بين باشا (الموصل) وباشا (عقرة)، فباشا الموصل باقٍ في مقره بتأييد السلطان، بينما باشا عقرة باقٍ لأنه عاصٍ عليه، ولأنه غير قادر على الحفاظ على نفسه ضد محاولات حجاب السلطان ورسله، إلا بواسطة التجسس والحذر.

وبينما ينام الأول قرير العين وسط حاميته وكأنه وسط عائلته، ينتقل الآخرين بين خبايا قصره في خوف وفزع، رغم البنادق والمسدسات والخناجر المحيطة به، وبينما يستطيع الأول التنقل من مكان لآخر وحده وبدون حماية، نجد الآخر مجبرًا على إحاطة نفسه بعدد غفير من الحرس.

وبينما تصل الحقيقة إلى الأول بوثوق، يكون الحديث مع الآخر بالتملق والنفاق، وبينما يسمع الأول قصائد المديح وعبارات الشكر والخير، لا يسمع الآخر سوى صوت آلام التعساء الذي يعذبه، ولا يحيط به سوى الحانقين عليه وعلى حكمه.

وبينما يكافئ الأول بطمأنينة النفس وتقدير الناس الطيبين، نجد الآخر معذب النفس، متألم الضمير، محملاً بالاستياء العلني.

وإذا توفي الأول يودعه الشعب بالأسى، بينما يشيع الآخر بلعنات الشعب وكرههم.

كان علينا مقابلة الباشا، وقد سمعنا أنه ينتظر لقاءنا بسرور حتى يتحدث إلينا عن أخبار أوربا المهمة، وبما أننا لا نحب تبادل تلك الأحاديث خاصة مع الباشوات، ونكره المراسم التي تؤدي

عند القيام بهذه الزيارات التي لا فائدة ترجى منها، ونجدها كلها متشابهة، فقد طلبنا من رئيس الدير أن يحاول إعفاءنا منها، وأعطيناه الفرمان الذي حصلنا عليه، وأريناه رسالة الوزير الكبير (الصدر الأعظم) إلى باشا بغداد.

وبناءً على هذه الرسالة قدم لنا باشا (الموصل) ضابطًا من حرسه لمرافقتنا حتى (تكريت) في حالة سفرنا نحو (بغداد) عن طريق (دجلة) أو مرافقتنا حتى (كركوك) إذا أردنا السفر إليها برًا.

وبما أننا حصلنا على معلومات لا تنم عن الثقة عن شكل القوارب المستخدمة في التنقل، وعن طريق السباحة في النهر، حيث علمنا عن الحوادث التي تحدث من حين إلى آخر بسبب عدم التمكن من قيادة القوارب بطريقة جيدة، والتي قد تنقسم إلى نصفين، إذا اصطدمت بالصخور المختفية تحت المياه، أو بجذوع الأشجار التي يجرفها النهر أثناء مواسم فيضان المياه.

أما الخطر الأكبر الذي يتعرض له المسافر عبر النهر هو البدو الذين يرصدون الآكلاك – القرب المنفوخة والمربوطة الواحدة بالأخرى بواسطة أخشاب صفصاف طويلة أو ركائز طرفاه تثبت في الأعلى – ثم يضعون ألواح الصنوبر فوقها البضائع، وينصب المسافرون مصطبة يجلسون عليها في إحدى الجهات.

وتكفيهم أربعة أو خمسة أيام للوصول إلى بغداد.

وهذه الأكلاك لا تمضي إلى أبعد من ذلك، لأن الملاحة من بغداد إلى البصرة تتم عن طريق زوارق أو سفن شراعية، ولذلك يقوموا بتفكيك هذه الأكلاك في بغداد، ويبيعون هذه القرب التي تستخدم في نقل المياه من نهر (دجلة) إلى البيوت، أو يستخدمونها في حفظ التمر، وهي أفضل وسيلة لحفظه، وذلك لأن الحشرات والقوارض لا تستطيع وضع بيضها أو فراخها فيها.

وبما أننا أدركنا مدى هذه المخاطر التي قد نواجهها إذا اتخذنا الطريق النهري، فقد قررنا الذهاب برًا، ولم يكن هناك قافلة مستعدة للسفر إلى (بغداد)، ولكنهم أكدوا لنا أن الطريق آمن، فقررنا أن نطلب من الباشا ساعيًا، ليرافقنا كما طلبنا منه منحنا أمرًا لتزويدنا بالخيول التي نحتاجها على طول الطريق، وقد منحنا هذا الأمر بكل سهولة.

قبل مغادرتنا مدينة (الموصل) دفعنا الشوق إلى زيارة الأرض التي يقال إن (نينوى) الشهيرة بنيت عليها.

ومدينة (نينوى) هي عاصمة الإمبراطورية الآشورية، وكنا نأمل مشاهدة بعض آثار مدينة عين اليهود، التي تمتد بمسافة خمسة عشر أو عشرين فرسخًا على طول النهر، وقد كنا سمعنا عنها حكايات عجيبة، حيث ذكر (ديودور الصقلي) بأن امتدادها يصل إلى مائة وخمسين غلوة طولاً، وحوالي خمسة عشر ألف وتسعين غلوة عرضًا.

ويبلغ ارتفاع أسوار (نينوى) مائة قدم، والأسوار عريضة بحيث تستطيع ثلاث عربات السير عليها، أما الأبراج فيبلغ عددها ألف وخمسمائة وارتفاعها ضعف ارتفاع الأسوار.

ويظن المسيحيون واليهود في الموصل أن (نينوى) تضم المنطقة الواقعة بين (القاضية) و (يارمجة) وهاتان القريتان تبعدان عن بعضهما البعض بحوالي سبعة أو ثمانية آلاف غلوة.

ويبدو أن كل الجغرافيين المعاصرين متفقين على موقع هذه المدينة القديمة، ويضعونها بالكامل

على الضفة الشرقية من نهر (دجلة)، بجوار (الموصل) وأظن أن هذا الموقع هو الأكثر طبيعيًا، ولكن يجب العلم بأنه لم يتبقَ أي أثر للمدينة في كل أنحاء السهل المزروع الذي قطعناه، ربما تكون تلك الآثار قد أزيلت منذ زمن خرابها لتشيد مكانها مدن أخرى، ومن المحتمل أن يكون المحراث قد سوى الأرض فيما بعد، خاصة وأن جدران المنازل شيدت من الطين، وما زالت كذلك حتى الآن كما رأيناها في جميع أنحاء المدن سواء كانت قديمة أو حديثة.

ورغم أنه لا يوجد أي أثر في ذلك السهل لهذه المدينة إلا أن هناك بعض آثار الحيطان على الضلع الذي يحد ذلك السهل من الشرق، وهذا المكان يسمى (قلعة نينوى)، ويوجد أيضًا القليل إلى الجنوب على نفس التل، حيث القرية المسماة (نونيا)، وقد سمعت من بعض أهالي الموصل أن النبي يونس مدفون في هذه القرية.

الفصل الثالث

محتويات هذا الفصل

السفر من الموصل، عبور الزاب، الأكلاك وانطباعات بشأنها، ملاحظات حول مكان وقوع معركة أربيلا، وصف أربيل وألتون كوبري، كركوك، طاووق، طوزخورماتو، وقرة تبة، والخالص.

في الخامس والعشرين من (جرمنال) الموافق (١٤ نيسان / أبريل) حوالي التاسعة صباحًا، غادرنا الموصل مستقلين أربعة عشر من خيول البريد تحت قيادة دليل، وقد كان الجو ممطرًا.

عبرنا النهر في قرابة الساعة بواسطة قارب من خشب البلوط خشن الصناعة، وكان قاعه مسطحًا تقريبًا، ومقدمته مرتفعة بشكل واضح، أما مؤخرته فقد كانت مفتوحة في بعض الأجزاء، ومغلقة من جهتنا، وكانت مرتفعة بارتفاع الأطراف أكثر من ثلاث أقدام في الماء، ولذلك فقد وجدت الخيول صعوبة كبيرة في صعوده والنزول منه.

وتتصل الموصل بالجانب الشرقي بواسطة جسر قوارب، ويتم العبور عليه بحرية طوال العام تقريبًا، وعندما يفيض النهر بسبب الأمطار وذوبان الجليد، يقومون بسحب هذا الجسر، ويستخدمون القوارب التي ذكرتها.

وعندما عبرنا النهر كان ضعف عرضه الاعتيادي، وهو أسرع بكثير من نهر (السين) في (باريس) في أوج جريانه.

وفي قرابة العاشرة امتطينا الجياد، وبعد مضي أربع ساعات وثلاثة أربع الساعة وصلنا بخطى ثابتة إلى (قرة قوش)، وهي عبارة عن قرية سريان كاثوليك، وتضم حوالي ثلاثمائة بيت من الطين، ومعظم هذه البيوت تشبه البيوت الموجودة في (حروران) أي القرية الأولى التي صادفناها عند مغادرتنا (حلب) وهذه البيوت منخفضة وتعلوها قبة.

كان الطقس لطيف للغاية منذ أكثر من عشرين يوم، والليالي باردة ورطبة، أما النهار فهو حار، خاصة عند ارتفاع الشمس في الأفق، ففي الساعة الواحدة بعد الظهر يشير مقياس الحرارة إلى ١٦، ١٧ وأحيانًا ١٨ درجة في الظل.

وعند خروجنا من (الموصل) لاحظت أن النباتات متقدمة في النمو، وكأننا في (باريس) في أواخر موسم الأزهار، ولاحظت أيضًا أن الأراضي الواقعة شرق نهر (دجلة) شديدة الخصوبة ومزروعة بشكل جيد، وقد وجدنا بها مقدار كبير من نباتات مزهرة، سوف نذكر فيما بعد أوصافها وشكلها.

في اليوم السادس والعشرين من (جرمنال) الموافق (١٥ نيسان / أبريل) وبعد مسيرة ثلاث ساعات عبرنا نهر يسمى (الخازر) ويسميه القدماء (بومادوس) أو (بوميللوس).

وقد تسببت الأمطار في كبر حجمه، لدرجة أن المياه بلغت ثلثي بطون الخيول.

وقد سمعت أن هذا النهر يجف في فصل الصيف، وبعد ساعتين وصلنا نهر (الزاب) أو (زرب صوي) أو (النهر القوي) وهذا النهر أكبر وأسرع من نهر (السين) في فصل الشتاء كما نراه أمام (الأنفاليد).

ويسمى نهر (الزاب) لدى الفرس القدامى (زاباتس)، بينما يسميه اليونانيون (ليكس).

وقد قام جماعة من اليزيديين الذين قابلناهم بإنزال حمولة خيولنا، ورفعوا سرجها وبرادعها، وكان بعضهم يحمل قربة منفوخة، ويتناول الأحصنة من زمامها الواحد تلو الآخر، ويجعله يسبح، وهو يمسك الزمام بيد، والقربة باليد الأخرى، وكانت بطن الحصان وفخذاه تستريح عليها، وقد كانت هذه الجياد تتقدم بقوة بسيقانها وأرجلها، وكان التيار يجرفها كثيرًا، ولكنها وصلت جميعها بخير.

أما أمتعتنا فقد وضعوها على أكلاك مكونة من اثنين وثلاثين قربة مربوطة ببعضها، ومثبتة تحت أخشاب الصفصاف بحوالي عقدة ونصف من السمك، وقد جلسنا فوقها.

وكانوا يجدفون بمجداف ذو مسند على هيئة مقبض، وأعتقد أنه لم يكن سيوصلنا إلى الطرف الآخر لو لم يكن الحصان الذي يقوده اليزيدي يجرنا.

لقد استأجرنا قاربين حتى تقل حمولتنا، ولا نعرض أمتعتنا للبلل وكذلك أوراقنا، وكنا مرتاحين جدًا من مهارة الملاحين، ومن السرعة التي أنزلوا بها أمتعتنا من على الخيول، ووضعوها على الأكلاك.

بعد اجتياز النهر، امتطينا الخيول مرة أخرى، وأعطينا الدليل بضعة قروش ليعطيهم للملاحين، وأخذوهم بكل سرور، وقد عبرنا هذا النهر خلال ساعة واحدة فقط.

إن طريقة الملاحة المتبعة هنا سهلة جدًا واقتصادية، وقد يندهش المرء لعدم استخدامها أحيانًا من قبل الجيوش الأوربية عند اضطرارها إلى عبور سريع وعاجل لقنوات وأنهر دون أخطار، لاشك أن النجاح في هذه المهمات يرجع إلى براعة التنفيذ.

ولكنها حتمًا مفيدة في حالة عبور قسم من العساكر النهر قبل أن يعترضها العدو، وكذلك تمكن من الاستغناء عن المعابر البعيدة، والتي تحتاج إلى حراسة، وبهذه الطريقة تستطيع الجيوش رفع القوارب الموجودة في الضفة المقابلة، وكذلك تأمين مواد معاشية تنقص في العادة، وأيضا يمكنهم حمل بريد من الصعب حمايته، وبما أن كل جندي يستطيع أن يحمل ما يحتاجه بالسرعة والضمان المطلوبين، فإن هذه الطريقة تستحق أن تنال اهتمام رجال الحرب.

وهذا الأمر يدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه الوسيلة كانت تستخدم منذ زمن بعيد جدًا، على مختلف الأنهار الشرقية.

فمثلاً في حملة (قورش) عند انسحاب العشرة آلاف جندي نجد الجنود اليونانيين يصنعون لهم أكلاكًا وجلودًا مليئة بالتبن ليعبروا نهر (الفرات) للبحث عن مواد معاشية، وبعد ذلك يقترح أحدهم عبور نهر (دجلة) بأربعة آلاف رجل من المشاة دفعة واحدة على ألفي قربة منفوخة.

وعندما أراد (الإسكندر) عبور نهر (الاستر)، ليقوم بمهاجمة (الحيثيين) استخدم الخيام الجلدية، وصنع منها قربًا وملأها بالقش، وبنفس الطريقة قام بعبور نهر (هيداسب) من قبل فريق الخيالة، وبنفس الطريقة أيضًا عبر نهر (اشيزينوس).

وأعتقد أن (اليونان) و(الرومان) استخدموا هذه الطريقة في حملاتهم في (آسيا) بعد (كزينيفون) و(الإسكندر)، وإن لم يكن من أجل عبور جنودهم، فربما يكون للحصول على ما يسهل لهم

العبور بسرعة.

وأعتقد أن القول بأن (اليونانيين) و(الرومانيين) قاموا بعبور (دجلة) و(الفرات) والأنهار الأخرى في الشرق بواسطة جسور القوارب أو على الأكلاك مكونة من قرب منفوخة، ليس أقل صحة من أن هذه الأكلاك تستخدم حاليًا في الملاحة العادية في نهري (دجلة) و(الفرات) ليس فقط لأنهم بهذه الوسيلة الاقتصادية ينقلون أهم البضائع والسلع إلى مسافات بعيدة، وإنما لأن الأهالي جميعًا اعتادوا على استخدام هذه القرب في القيام بأسفار بعيدة.

حتى أننا عندما صعدنا (الفرات)، لدى عودتنا من بلاد فارس، رأينا عائلات بأكملها يتبعون مجري المياه، وهم على قربهم، وكان الآباء والأمهات يحملون أطفالهم الصغار على ظهورهم، أما الأطفال في سن السابعة أو الثامنة، فقد كانوا يجيدون الطوف على قربة ماعز، والمؤن كانت موضوعة في قربة أو أكثر تسير خلفهم.

وكان هؤلاء المسافرون يصلون إلى اليابسة في المساء فيناموا براحة على الساحل، وفي اليوم التالي يواصلون سفرهم.

مررنا بالقرية الواقعة على الضفة اليسرى، ولم نتوقف بها مطلقًا، وقد لاحظنا أنها قرية واسعة، ويرد اسمها على خارطة بوشامب الخطية باسم (كلك)، ولا يقيم بها سوى الزيديين.

وقد تحدث الرحالة (نيبور) عن قرية تقع على الضفة اليمنى من نهر (الزاب) تسمى (عبد العزيز) وأعتقد أننا مررنا بها على بعد بضعة أميال باتجاه الجنوب.

وقد سمعنا عن وجود عدة قرى يزيدية على طرفي النهر، وكان لكل قرية أغا، وبالنسبة لموقعهم فقد كان بعض الأغوات يتبعون باشا الموصل، والبعض الآخر يتبعون باشا بغداد.

وقد علمت أن عادات ومعتقدات هؤلاء اليزيديين هي نفسها عادات ومعتقدات اليزيديين في (سنجار)، ولكنهم أكثر خضوعًا، فتجد أن رؤساءهم يدفعون الضرائب بانتظام.

وجميعهم يسكنون القرى، ويعملون في زراعة الأراضي، كما أنهم يمتلكون قطعان ماشية كثيرة، أما معظمهم فيعملون فقط في تأمين عبور القوافل على الأكلاك، وعادة تأتي هذه القوافل من العمادية، والجزيرة، والموصل، متجهة إلى أربيل، وكركوك، وشهرزور، أو بغداد، أو العكس.

امتطينا خيولنا قبل الظهر، وقد كنا على بعد بضع فراسخ شمالي الجبال التي أخذنا نبتعد عنها، وتقدمنا بخطوات سريعة وعدونا أيضًا أحيانًا وفي غضون خمس ساعات إلا ربع وصلنا إلى (عينكاوه).

تقع قرية (عينكاوه) على بعد سبع غلوات عن نهر (الزاب الكبير)، ويسكنها الأكراد والسريان الكاثوليك، ويتبعون أغا كرديًا.

والأراضي الواقعة بين هذه القرية والزاب الكبير مستوية وشديدة الخصوبة، وجميعها مزروع تقريبًا، وأظن أنها من أجمل السهول التي شاهدناها في هذه المنطقة.

نحن الآن على بعد اقل من فرسخ من مدينة (أربيل) التي أعطت اسمها للواقعة التي انتصر فيه (الإسكندر) على (داريوس)، وانتهى بها عصر الإمبراطورية الفارسية.

وقد سمعت أن هذه المعركة لم تقع أحداثها في سهل (أربيل) وإنما وقعت بالقرب من قرية

تسمى (كوكاميلا)، التي أظن أنها تقع إلى يمين نهر (الزاب).

وقد قام الإسكندر بهزيمة الفرس في مضيق (كرانيك) وفي مضيق (قيليقية) وسيطر على سردس، وميليت، وهاليكارناس، وكل آسيا الصغرى، كما قام أيضًا بتخريب مدينة (صور) واستسلمت له كلاً من سوريا، وفينيقية، ومصر، ووضع أسس مدينتين بحريتين تحملان اسمه: الأولى شمال سوريا، والأخرى شمال مصر.

ونتيجة لطموحه وتفكيره في الانتصارات الجديدة، وانشغاله بالتجهيز للمعارك الجديدة، فلم يهتم بمصر وسوريا كثيرًا، وقام بإصلاح كل ما يتعلق بإدارة تلك المناطق الغنية، ثم رجع مرة أخرى، ثم توجه نحو (الفرات)، وعبره عند (تابسا كوس) بواسطة قوارب، ولم يكترث (داريوس) لتلك القوارب فلم يحرقها، ولم يرفعها من مكانها، ودخل بلاد ما بين النهرين دون أن يواجهه أي عدو، وعبر نهر (دجلة) على معبر قوارب (كلك) وعسكر على بعد عدة أميال من النهر.

أما (داريوس) فقد ابتعد وترك (بابل) وعبر نهر (دجلة) متجهًا نحو (أربيل) وكأنه يريد إزالة كل الحواجز، وقام بإنشاء جسر على (ليكس)، ثم تقدم ثمانين غلوة، وخيم على ضفة نهر (الزاب).

وقد كان يستطيع جمع كل قواه في سهول ما بين النهرين الواسعة، حيث كان يستطيع بكل سهولة تدمير عسكر عدوه عند اجتيازهم (الفرات) ولكنه لم يفعل ذلك وقام بالتقدم نحو (أربيل).

عندما كان (الإسكندر) يستعد للهجوم على (داريوس) كان نهر (دجلة) إلى يمينه، وإلى يساره جبال (قردو).

وكان يقوم بتوجيه جنده في المعركة على حسب خبر ظهور عدوه، وكان (داريوس) معسكرًا على بعد مائة وخمسين غلوة تقريبًا، إي حوالي ١٥ ميلاً، ليس هناك من يقول بأن (الإسكندر) قد عبر (الزاب) لكي يقترب من ميدان المعركة، وإنما يذكر (كونتينوس كورسيس) العكس، ويقول إن (داريوس) عسكر على ضفافه، ثم تقدم حوالي عشر غلوات ليرتاح قليلاً، ثم يستعد للقتال، وبما أن المنطقة الواقعة بين النهرين تبلغ سبعة أو ثمانية أميال، فيتضح لنا أن (داريوس) هو الذي عبر نهر (الزاب) وليس الإسكندر، وأن المعركة قد حدثت على الضفة اليمنى من النهر، وعند تقدم الإسكندر للمعركة كان نهر دجلة إلى يمينه، وكانت جبال (قردو) إلى يساره باتجاه الجنوب الشرقي، وأعتقد أنه قد عبر دجلة عند الموقع الذي تقع عليه اليوم مدينة الموصل.

ويذكر (الزاب) بعد انهزام (داريوس)، وبما أننا في نهاية فصل الصيف، أي قبل هطول أمطار الخريف التي عادة ما تتأخر في هذه المناطق، فقد علمنا أن المعركة وقعت في (٢ تشرين الأول/ ديسمبر) أي عندما يكون هذا النهر جاف تقريبًا.

وقد سمعت أن (داريوس) عندما هرب عبر نهر (الزاب) مرة أخرى في نهاية النهار، ووصل إلى (أربيلا) قرابة منتصف الليل.

لذلك فمن المحتمل أن المعركة قد استمرت منذ الصباح وحتى الساعة الرابعة عصرًا، وأن (داريوس) قد سار ساعتين حتى وصل إلى (الزاب) ووصل إلى (أربيلا) بعد مسيرة خمس أو ست ساعات، وهذا ما يوافق المسافات التي وجدناها تمامًا، لأننا سرنا ساعتين تقريبًا من نهر (الخازر) حتى نهر (الزاب) وسرنا خمس ساعات من (الزاب) إلى (أربيلا).

في اليوم السابع والعشرين من (جرمنال) غادرنا (عينكاوه) وبعد مسيرة نصف ساعة اجتزنا أسافل (أربيل).

إن مدينة (أربيل) مبنية فوق تل اصطناعي عالي ومسطح القمة، وهي حاليًا تشغل نفس المكان الذي كانت تشغله القلعة فيما مضى، ويحيط بها سور قديم جدًا، أما التل الذي بنيت عليه فهو أعلى بكثير من تل (حلب) ومن جميع التلال التي صادفناها في بلاد ما بين النهرين، ولا يسهل الاقتناع بأنه تل اصطناعي.

إذ لم يوجد في هذه البقعة من آسيا عدد كبير من هذه التلول، ولو لم يكن واضحًا للمرء بأن التراب مجمع في كل الأطراف في أرض مسطحة، فانحدار التل كبير ومغطى بالأعشاب، وفي الأسفل نرى حفرة تكاد تكون مملوءة، والقسم الآخر من المدينة يقع في السهل أي جنوب التل.

ولا يزيد سكان أربيل حاليًا عن ألفي شخص، وكلهم تقريبًا من الأكراد والكلدان، ويبدو أن هذه المدينة كانت فيما مضى تضم رقعة أكبر ممتدة في السهل، أما الآن فلا يوجد بها سوى بعض الخرائب، وعلى مسافة بعيدة من المدينة نرى برج مربع يبدو أنه كان منارة في عهد الخلفاء.

وقد ذكر (نيبور) أنها بنيت على يد سلطان يسمى (مسافر)، وهذه المنارة من الطابوق والجص، ويصعد إليها بدرجتين متقابلتين.

وتتبع مدينة (أربيل) باشوية (بغداد)، ولها سنجق، وحامية قوية من الينكشرية، ترسلهم القسطنطينية.

كانت الأمطار تهطل طوال النهار، وتسود رياح غربية، وسرنا لمدة ثماني ساعات ونصف، وأثناء مرورنا بقوش تبة شاهدنا قرية لا أهمية لها، ثم اجتزنا بعض تلول الحصى والتراب، المليئة بالخضرة.

وأخيرًا وصلنا قرية (آلتون كوبري) أو (جسر الذهب) وهذه القرية مشيدة على صخرة موجودة بين ضفتي نهر الزاب الصغير أو كابروس حسب الأقدمين.

ندخل القرية من جسر مشيد على صخور قرميدية، ونغادرها من جسر آخر ذو قوس عالي وضخم جدًا، وقوسين آخرين صغيرين، حتى إن الخيول تجد صعوبة كبيرة في تسلقه، وفي هذا الوقت كان النهر مرتفع جدًا، نتيجة لهطول الأمطار وانصهار الجليد، حتى ظننا أننا أمام نهر (السين) في فصل الشتاء.

أقمنا عند أغا القرية، وتناولنا العشاء مع أولاده، وقام خدم بيته بخدمتنا، وكانت وجبة العشاء مكونة من:

-طبق أرز به قطع لحم خروف.

-صفحة كبيرة جدًا من حليب الغنم، وصحن لبن، أو الحليب المخثر.

ولم يقدموا لكل فرد طبق خاص، فأكل الجميع من الطبق الكبير، وعندما طلبنا منهم ملاعق، أحضروا ملاعق خشبية، وهذه هي الملاعق الوحيدة التي تعرفها البلاد العثمانية وفارس، أما أولاد الأغا فقد كانوا يتناولون الطعام بأيديهم، وكانوا يخلطون الأرز ببعض شرائح اللحم أو باللبن، ويشربون الحليب بالتناوب، وبعد انتهائنا من العشاء قدموا لنا التبغ والقهوة.

وهكذا كان الطعام طوال الرحلة تقريبًا، وكان الأرز يطبخ عادة بالسمن، ولا يتم تقديمه إلا في المساء، وكانوا أيضًا يقدمون إلينا طبق من البيض، وعندما دخلنا القرى التي يوجد بها النخيل، أصبحوا يقدموا لنا في كل وجبة تمرًا مقليًا بالبيض، ويضيفون الأرز في المساء.

وبعد ربع ساعة من العشاء، أقبل علينا شخص ليخبرنا بأن الأغا سينضم إلينا ليقضي معنا الأمسية، ولكننا اعتذرنا وشكرناه، وأعربنا له عن مدى حاجتنا للراحة، فقبل اعتذارنا، وانسحب أولاده بسرعة أيضًا متمنين لنا سفرًا سعيدًا في الصباح.

في اليوم الثامن والعشرين، امتلأت السماء بالسحب، ولم تنكشف هذه السحب حتى الساعة الثامنة صباحًا.

في بداية مسيرتنا كانت الأرض حصوية قليلاً وغير مستوية، ثم سرنا بين سلسلتين من التلال، وكان السهل ممتد أمامنا حتى ظننا أن أمامنا مسيرة تسعة أو عشرة أميال، ولكن بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف انعطفنا نحو اليمين بزاوية حادة، واجتزنا تلاً مكونًا من التراب والحصى، ورأينا بعض الملاط، واسفله يسيل النفط في اتجاهات عديدة، وعلمنا أنهم يحفرون آبارًا بعمق خمسة أقدام إلى اثني عشر قدمًا، ويستخرجون النفط يوميًا، ثم يجمعونه ويضعونه في قرب ويحملونها على ظهور الحمير إلى (كركوك).

وأخبرنا الراهب المرافق لنا، أنه على بعد فرسخ واحد من هذا المكان نحو الجنوب الشرقي تمتد مسافة كبيرة يخرج منها لهيب أحيانًا، وأكد لنا هذا الحديث رجال البريد، فعرضنا عليهم أن يطلعونا على هذا المكان مقابل مكافأة جيدة، ولكنهم لم يقبلوا خوفًا من العقاب، حيث إنهم بذلك يغيرون مسارهم.

وأخيرًا وصلنا إلى (كركوك) بعد مسيرة ساعتين أخريين، وبمجرد وصولنا ذهب الدليل المرافق لنا لتسليم الرسالة التي لديه من باشا (الموصل) إلى المتسلم، وليطلب منه دليل آخر لمرافقتنا إلى بغداد. ومن بعده ذهب الراهب لمقابلة بعض الكلدان، الذين تربطهم به علاقة.

لم نبقَ في (كركوك)، وواصلنا المسير مسافة فرسخ واحد حتى وصلنا قرية تسمى (تسعين). وكلا من (كركوك) و (تسعين) لهما أرض خصبة تروى، وتقع كركوك على تل اصطناعي وسط سهل كبير مثل مدينة أربيل، ويحيطها سور لحمايتها ضد أي هجوم، ولها حامية قوية من الانكشارية، ويعين باشا بغداد عليها متسلمًا، وهناك جزء منها يقع أسفل التل الاصطناعي، أما قرية (تسعين) فتقع في سهل.

وقد كانت مدينة (كركوك) فيما مضى تابعة لباشوية (شهرزور) لمدة طويلة، ثم أصبح لها باشا ذو طوغين، أما الآن أصبحت (شهر زور)، وجميع الأراضي الواقعة شرق نهر (دجلة)، بدءًا من (الزاب الكبير) وحتى (كردستان) ضمن باشوية (بغداد) ولا يوجد لكركوك سوى متسلم يعينه باشا بغداد.

وأعتقد أن مدينة (كركوك) موجودة في نفس مكان مدينة (مينيسس القديمة) والدليل على هذا الاعتقاد هو الآتي:

يذكر (كوينتش كورسيس) أن (الإسكندر) عند تقدمه مع جنوده نحو (بابل) وصل من (أربيلا) إلى (منيسس) خلال أربعة أيام، ومينيس، هذه مدينة شهيرة بمغارة ينزل منها كمية كبيرة من

القار، ويعتقد الناس أن أسوار مدينة بابل مطلية به.

وبالفعل يقوم الناس باستخراج القار في ضواحي (كركوك)، كما ذكرنا من قبل، وقد قطعنا المسافة من (أربيل) إلى (كركوك) في خمس ساعات ممتطين خيول بريد، وبما أن (أربيل) تقع على درجة ١١.٣٦ دقيقة، بينما تقع (كركوك) على درجة ٣٩.٣٥ دقيقة، فهذا يوضح أن المسافة بينهما تبلغ عشرين فرسخ، أي مسيرة أربعة أيام للعساكر.

ولم نر في أطراف (كركوك) أي أطلال أو آثار تدل على وجود موقع مدينة أهم من كركوك)، كما أن التل الاصطناعي الذي أقيمت عليه المدينة مرفوع بنفقات كبيرة فوق أرض سهلة، ويبدو أنه لم يشيد في الماضي إلا بغرض بناء مدينة مهمة فوقه.

منذ مغادرتنا مدينة الموصل لم نستخدم للإنارة سوى النفط، ويقوم الأهالي بصناعة فتائل كبيرة من القطن لهذا الغرض، ويضعونها مع هذا القار السائل في إناء طيني له رأس منقار.

ورائحة هذا الضياء المنتشر في غرفة لا تحتمل، حيث إنهم لم يهتموا بصنع نوع من المداخن في الحائط، لتسهيل خروج الدخان ورائحته.

كما أنهم يصنعون من فضلات البقر والتبن الهش أقراصًا تغمس في النار، ويستخدمونها لإنارة الفناء أو لطهي الطعام.

ويصنعون أيضًا مشاعل من قطن قديم مشبع بالنفط للإنارة خلال المسير في الطرقات.

جاءنا الدليل الجديد بدلاً من صاحبه الذي رافقنا من الموصل، في مساء اليوم نفسه ونحن في (تسعين)، وجاء الراهب في الصباح الباكر، مما سهل لنا مواصلة المسيرة في اليوم التالي.

بعد مضي ساعة ونصف من مغادرتنا (تسعين) عبرنا نهرًا صغيرًا، بالقرب من قرية صغيرة تحيطها البساتين والأشجار المثمرة، وبعد ست ساعات ونصف من المسير وصلنا إلى (داقوق).

إن قرية (داقوق) قرية محاطة بالبساتين المزروعة بالنخيل والليمون والتين والتوت والمشمش والآجاص والرمان، وقد رأينا القليل من أشجار الزيتون بين هذه الأشجار، وهذه القرية الأولى التي رأينا فيها النخيل بكثرة، وينضج التمر بها جيدًا.

وفي اليوم الثلاثين من (جرمنال) عبرنا مجرى مائي لا بأس به، يقع على بعد فرسخ واحد من (داقوق) مسجل على خارطة (نيبور) باسم (دوس)، ولكنه مسجل على معظم الخرائط باسم (توروناتوس) أو (أودورنيج) أما (بطليموس) فيسميه (كوركس) بينما يسميه زينيفون (الفيسكس).

وبعد ثلاثة فراسخ ونصف عبرنا مجرى مائي آخر يكاد يكون جاف، وبعد مسيرة ست ساعات وصلنا إلى (طوز خرمال) وهي قرية محاطة بالبساتين كالقرية السابقة، وعلى بعد نصف فرسخ يقع جبل عالي بمحاذاتنا في ذلك النهار، أما السهل فكان يمتد بانحراف قليل جهة اليمين، وهو أقل خصوبة من السهول التي مررنا بها.

ويقوم سكان هذه القرية بعصر الخمر، ويبيعونه إلى مسيحيين بغداد، وفي المساء زرنا أطلال قريبة من القرية، لا يتعدى زمنها عهد الخلفاء، وما زال بها برج من الطابوق على حاله، وهو شبيه ببرج أربيل.

وقد كان هذا البرج قديمًا مئذنة جامع، وعلى بعد مسافة قليلة من هذه الأطلال وجدنا باب

المدينة القديمة، وما زال هو الآخر قائمًا وجيد الحال، وقد شيد بالطابوق وليس به ما يستحق الذكر.

وقد لاحظت أن المدينة القديمة كانت واسعة للغاية، على عكس القرية الموجودة حاليًا.

في اليوم الأول من (فلوريال) الموافق (٢١ نيسان / أبريل) سرنا لمدة ست ساعات ونصف للوصول إلى كفرى، وعلى بعد فرسخ واحد من (طوز حرمل) عبرنا جدول يستخدم لرى بساتين المدينة والحقول القريبة.

وفي منتصف الطريق أخبرنا رجال البريد أنهم يستخرجون النفط من الجبل الممتد على يسارنا، والذي كان بمحاذاتنا منذ بدأنا المسير بالأمس، وقد لاحظنا وجود بعض آثار الجبس في الطريق، وقد علمنا أن هناك كميات كبيرة منه في الجبل.

أما الأرض التي نسير عليها، فقد كانت يابسة وصخرية وتصلح قليلاً للزراعة، وعند وصولنا (كفرى) أقمنا عند أغا المدينة، الذي طالبنا بإكرامية مقابل إقامتنا، رغم أنه لا حق لديه في طلب هذا، لأن البريد في الدولة العثمانية مجاني كتعويض عن الضريبة، ولم يكن لدينا ما نقدمه له.

ولا يشارك في البريد سوى عمال الحكومة، أو الأشخاص الذين يتمتعون بحماية خاصة من قبل الباشوات، وأحيانًا يسمح هؤلاء الأشخاص لبعض التجار بالانضمام للتتار الذين يرسلونهم، وفي هذه الحالة لا يدفع التجار أي مبالغ سوى للتتاري، كما ندفع نحن للساعي.

عندما أجبنا الأغا بأننا لا نملك ما نقدمه له، جاء إلينا بنفسه معتقدًا أن حضوره بنفسه سوف يضطرنا إلى تنفيذ طلبه، وبمجرد دخوله علينا حدثنا بلهجة غليظة قائلاً: إننا يجب أن نقدم له هدية تليق بمكانته، فقلنا له إننا لا نملك ما نقدمه له، ولسنا مضطرين إلى تقديم أي شيء، فازداد إصرار وبدا كأنه يهددنا، وازداد إصرارنا بالرفض مع إصراره، فقال لنا إنه في هذه الحالة لن يقدم لنا أي جياد، فقلنا نحن بدورنا وفي هذه الحالة سنضطر إلى انتظار الساعي الذي نرسله إلى باشا بغداد، حيث لنا رسائل من قبل الوزير الأكبر (الصدر الأعظم) وكان هذا بمثابة تهديد للأغا وقد أثمر بالنتائج المرجوة، فطلب منا الأغا المعذرة، وادعى أنه ظن أننا من مسيحيي الإمبراطورية، وطلب منا ألا نذكر سوء التفاهم هذا أمام الباشا، وعاملنا بغاية اللطف، وكأنه لم يسئ إلينا مطلقًا.

في اليوم الثاني من (فلوريال) الموافق (٢٢ نيسان / أبريل) سرنا ست ساعات وتركنا خلفنا الجبل الذي كان بمحاذاتنا خلال اليومين الماضيين، وبعد مسيرة خمس ساعات في سهل مزروع اجتزنا تل أرضه صخرية وسيئة، ثم عبرنا منخفضًا خفيفًا حتى وصلنا إلى قرية (قرة – تبه).

وهذه القرية تسقي أراضيها من المياه الغزيرة التي يجلبونها من النهر الذي يفترض أن نعبره غدًا، وهذا ما سمعناه.

وقد بنيت هذه البلدة بنوع أفضل، ويبدو أن حالة سكانها أفضل من الآخرين، ويحيطها بساتين مزروعة بالنخيل والأشجار الأخرى المثمرة.

وفي اليوم الثالث من (فلوريال) الموافق (٢٣ نيسان / أبريل) سرنا لمدة سبع ساعات حتى وصلنا إلى خان (دلي عباس) ويقع هذا الخان على نهر يسمى (الخالص) وأعتقد أن هذا النهر عبارة عن

قناة تستمد من نهر (ديالي)، وقاعه عميق.

وبعد أن قطعنا سهل (قرة تبه) الذي تزيد مسافته عن ثلاثة فراسخ، اجتزنا سلسلة تلال مكونة من حصى ورمل وتراب، وقد رأينا أسفلها حجر (المسن) في أماكن عديدة، ووجدنا أيضًا في هذا المكان نباتات نادرة وغريبة أكثر من أي مكان آخر منذ مغادرتنا (الموصل).

في اليوم الرابع من الشهر أي (٢٤ نيسان / أبريل) سرنا لمدة اثني عشر ساعة حتى وصلنا إلى (الخالص).

وعبرنا النهر بواسطة جسر بعد مغادرتنا (دلي عباس) مباشرة، ثم اجتزنا سهولاً جرداء لا زرع فيها، رغم إمكانية زراعتها وريها، وبعد ثلاث ساعات عبرنا نهرًا آخر أصغر من النهر السابق بواسطة جسر أيضًا، وأعتقد أن هذا النهر ليس سوى قناة أيضًا، واسترحنا قليلاً في خان، وأخيرًا وصلنا إلى سهل واسع تنتشر في جميع أرجائه صفوف من النخيل، التي توضح عدد المنازل.

ويتبع أهالي (الخالص) المذهب الجعفري، والقرية ضيقة بعض الشيء وتحيطها بساتين ومعظمها مزروع بالنخيل، ويزرع الأهالي في ضواحيها حقول مروية، والقطن، والسمسم، والخروع، وجميع أنواع الحبوب الاعتيادية، ومنذ بضعة أيام بدأنا نرى طيور الدراج، والخضار، والشقراق.

أما الأراضي التي مررنا بها بعد خروجنا من خان دلي عباس فهي أراضي رسوبية كانت تروى فيما مضى من القنوات المائية التي تأخذ من ديالى، ولكنها الآن مهملة.

وفي اليوم الخامس من (فلوريال) سرنا ثماني ساعات حتى وصلنا إلى بغداد، وقد اضطررنا للاستدارة نحو الشمال للابتعاد عن نهر (دجلة)، حيث وجدناه قد أغرق قسمًا من الأراضي الواقعة على الطريق، وهذا ما جعل مسيرتنا تزداد ساعة أو ساعتين.

الفصل الرابع

محتويات هذا الفصل

وصف بغداد، تاريخ تأسيسها، ازدهارها الحضاري قديمًا،
أخلاق الأهالي وعاداتهم، الطقس وطيب المناخ.

تقع بغداد في سهل على الضفة اليمنى من نهر (دجلة)، بدرجة ٢٠.٣٣ دقيقة من الارتفاع الشمالي، وهذا طبقًا لمشاهدات (نيبور)، أما (بو شامب) فيضع دقيقة أخرى نحو الجنوب لهذه المدينة، ويبدو أن الشخص الذي رسم خططها، وضع لها أقل من ألفي خطوة هندسية طولاً، واقل من ألف خطوة عرضًا، ولكنها لا تقتصر على هذه المساحة وحدها.

ونرى الآن على الضفة الغربية ضاحية مليئة بالسكان وتمتد باتجاه الشمال الغربي، وتنتهي بخرائب تجعلنا نظن أنها بغداد القديمة.

ويحيط المدينة خندق واسع وعميق محاط بأسوار عالية من الطابوق لحمايتها، ويبدو أنها جيدة الصيانة، وقد شيد هذا السور على الطريقة الفارسية، بحيث يكون سميكًا للغاية من الأسفل، ثم يعلو بضيق، وهو مثقوب بكوى صغيرة لتمكن الجنود من إطلاق النار على العدو الذي يحاول تسلقه، ويوجد أيضًا عدد كبيرًا من الأبراج المتقاربة بعضها أكبر من الآخر، تقوم بحماية الخندق، وتنتهي هذه الأبراج بسطح عليه مدفعان أو ثلاثة، ولا يستمر امتداد السور مع النهر، كما هو الحال في معظم المدن العثمانية، حيث تبنى البيوت على حافة المياه.

أما سراي الباشا، فيوجد في زاوية المدينة العليا أو الغربية، ومساحته واسعة جدًا نتيجة لتعدد ساحاته ومساكن الحرس الكثيرين الذين يقوموا بحماية المدينة.

وقد رأيت فيها من جهة النهر، مبنى يشبه القلعة، ولكنه لا يصلح إلا لتخزين الأسلحة والبارود، ويوجد أيضًا ساحة كبيرة بين السور والبيوت، من الشرق والجنوب، ولا يمتد السور لأكثر من ألفي خطوة هندسية طولاً، وألف خطوة عرضًا.

كان لبغداد فيما مضى أربعة أبواب من جهة الحقول، ما زال فيها ثلاثة أبواب فقط، لأن السلطان مراد الذي استولى على المدينة وطرد الفرس، دخل من الباب الجنوبي الشرقي، فأمر بإغلاقه حتى لا يدخل منه شخص آخر.

ولا يوجد للمدينة سوى باب واحد من جهة نهر دجلة، يقود إلى جسر قوارب لا يسحبونه إلا قبل الفيضانات الكبرى، وهذا الجسر مكون من ثلاثين قارب مربوطين بسلاسل قوية، وتزيد أعدادها حسب ارتفاع المياه، وبما أن هذه القوارب لا تثبت بمرساة، فعادة ما تتعرض للانكسار، وتزيد هذه الحوادث في حالة الفيضانات الشديدة والفجائية أو عند هبوب ريح شمالية أو شمالية شرقية، فيأتي تيار قوي يجرف هذه القوارب، وأحيانًا عندما تكون المياه مرتفعة، وتهب رياح شديدة من الجنوب إلى الجنوب الشرقي، فتعمل على تحريك المياه بقوة مما يؤدي إلى انكسار الجسر.

عند عودتنا من بلاد فارس نزلنا في بيت مطل على نهر دجلة، وفي شهر (جرمنال) انكسر الجسر بسبب فيضان مفاجئ، وكانت الرياح حينها جنوبية، والحرارة مرتفعة بعض الشيء، أما الأيام السابقة فقد كانت الرياح غربية، ومن المحتمل أن تكون هذه الرياح سببت أمطارًا شديدة في

المجرى الأعلى للنهر، ولم تهطل كثيرًا في بغداد.

وعند انكسار السلاسل وانجراف القوارب، تصادف وجود قارب يقطع النهر، وكان به عشرة أو اثني عشر أعرابيًا، فانقلب القارب، ولكن ركابه أنقذوا أنفسهم بالسباحة، ومن بين هؤلاء الركاب كانت امرأة تحمل بين ذراعيها طفلها البالغ من العمر عام واحد، وعندما فاجأتها حركة القارب واهتزازه، وأرغمتها الطبيعة البشرية على تجنب الخطر، وجدت نفسها تسبح بعيدًا إلى الضفة، ثم إعادتها طبيعتها الأمومية إلى رشدها، فما رأيناها إلا سابحة في النهر تبحث عن طفلها في كل الاتجاهات، وعندما لمحته صارعت وضاعفت سباحتها لتصل إليه، وبالفعل نجحت في إمساكه بين ذراعيها، وعندما رآها الأعراب سبحوا في النهر لتقديم يد العون لها، وحاول أحدهم إمساك طفلها بدلاً منها، ولكنها رفضت أن تترك ولدها بين أيديهم، فلم يكن من السهل عليها الاقتناع بأنه سيكون أكثر أمانًا مما هو بين أيديها.

إن الضاحية ليست محصنة كالمدينة، ولكنا محاطة بخزف صغير، وسور بسيط لحمايتها ضد أي خطر، وقد قام الباشا الحالي بتشييد بعض الأبراج ووضع فيها مدفعًا.

يبدو أن مدينة (بغداد) ليست كبيرة، ولا يقطنها الكثيرون مثل حلب ومنازلها ليست عالية وبناءها غير متين، ومظهرها بسيط من الخارج، وفيها عدد قليل من الشبابيك، وهي طابقين فقط، وجميعها مرتب على هيئة مربع ملتف حول فناء صغير به نبتة أو نبتتان ونخلتان أو ثلاثة.

أما بيوت الأثرياء فيوجد بها فناء آخر يستخدم كحديقة، ومبنى آخر مخصص للنساء، ويقيم به الحريم، ولا يدخله أي رجل سوى السيد أو الرئيس الذي بيده المفاتيح، وفي هذا المبنى لا تفتح أي نوافذ تطل على الطريق.

وفي كلا المبنيين توجد غرفة في الطابق الأول أكبر من باقي الغرف، وتكون مفتوحة تمامًا إلى جهة الشمال أو الشمال الشرقي، ويوضع بها أثاث للجلوس فقط لأنها غرفة الجلوس أو الديوان.

ويقضون بها قسمًا من النهار في جميع المواسم، أما في الصيف فينزلون إلى (السرداب) بدءًا من الساعة الحادية عشر صباحًا، وحتى غروب الشمس.

وهذا السرداب عبارة عن قبو واسع مقبب جدًا، ومزين بعض الشيء، ومحفورًا بعمق أربعة أو خمسة أقدام تحت الأرض، ويشعر الإنسان به بأن درجة الحرارة لا تتجاوز ٢٥ أو ٢٦ درجة مئوية، بينما تكون درجة الحرارة في الغرف الأخرى ٣٤ أو ٣٥ درجة مئوية.

ويصنعون نوافذ هوائية بهذه السراديب، تصل إلى الجزء العلوي من البيت، كالمداخن التي نصنعها نحن، وهذه النوافذ تساعد على تجديد الهواء في السراديب في المساء والصباح، وذلك بفضل تلك الشبابيك الصغيرة.

تمتاز (بغداد) بمظهرها الشرقي أكثر من أي مدينة عثمانية، فتجدها تضم عددًا كبيرًا من الأسواق والمتاجر المخصصة للتجار والعمال.

وهذه الأسواق هي الطرق الرئيسية للمدينة، ويتم تزيينها على أكمل وجه، وكذلك تسقف تسقيفًا جيدًا، كما أنها واسعة ومرتبة جيدًا وأسقفها عالية جدًا، ومشيدة من الطابوق، وتفتح بها فتحات ليدخل منها ضوء كافٍ لإنارة المكان بالكامل، وهذا ما يريده كل التجار في مختلف

البلاد.

أما الدكاكين فهي مرصوصة على الجانبين، ويجلس بها التجار، عارضين بضاعتهم أمام المشترين.

يدخل المشتري إلى داخل الدكان عبر طريق ضيق عرضه قدمان أو ثلاثة أقدام، بحيث لا يبقى للسابلة سوى عشرة أو اثني عشرة قدم وسط السوق أو حتى خمسة عشر قدمًا.

تغلق هذه الدكاكين بالمساء، ويستطيع التجار أن يناموا دون قلق في أماكن أخرى دون الخوف من السرقة، حتى إذا لم يتركوا باب الدكاكين مغلقة جيدًا، وإن كان الدكان يحتوي على بضائع ثمينة للغاية.

أما باقي أجزاء المدينة فتجدها قذرة وموحلة في الشتاء، أما في الصيف فتكون مليئة بالتراب، وأزقتها ضيقة وأقل ازدحامًا من الأسواق، وحين يرغب الناس في التجول سواء على الأقدام أو بالجياد، فإنهم يلجأون إلى الأسواق، لأنهم بها يكونون بعيدين عن حرارة الشمس والرياح والأمطار، حيث إن المناخ بها يكون أقل حرارة من الأزقة، كما أنهم أثناء تجوالهم بها يمتعون أعينهم ببضائع جميلة.

تأسست بغداد في عام ١٤٥هـ. أي ٧٦٢م، وقام بتأسيسها الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، وذلك لعدم رغبته في الإقامة في الكوفة، حتى لا يعرض نفسه للمشاكل الدينية، فقرر بناء مدينة جديدة ليجعلها مقرًا للخلافة، فقام بنقل مقر خلافته مسافة ثلاثين فرسخًا شمال الكوفة، أي على الضفة الغربية من نهر (دجلة)، وقام ببناء هذه المدينة بالمواد التي زودته بها بابل، وساليق، وطيسفون، كما قام بإنفاق ما يزيد عن أربعة ملايين قطعة ذهبية على بناء بغداد، ونجح في بنائها بالشكل الذي يريده، لأن العديد من الأشخاص وفدوا إليها من مختلف أنحاء العراق وسوريا وكل بلاد ما بين النهرين وفارس، وبالمقابل قدمت لهم هذه المدينة موقع لطيف، ومناخ طيب، وأرض خصبة.

وأطلق عليها أبو جعفر المنصور اسم مدينة أو (دار السلام)، وقد كان اسم المنطقة في السابق (بغداد) وظل هذا الاسم غالبًا عليها، واستمر كذلك حتى الآن.

وبعد فترة ليست طويلة أقام المهدي ابن المنصور مدينة أخرى على الضفة اليمنى من (دجلة)، وسميت باسم (الرصافة)، وعرفت بالمدينة الغربية، وازدادت هذه المدينة اتساعًا بعد أن تم إحاطتها بسور لحمايتها ضد هجوم الفرس.

وكان للخليفة قصر في كل من المدينتين، ولم يمر الكثير حتى أصبحتا مدينة واحدة، وأطلق عليهما نفس الاسم.

لقد سطع نجم بغداد خلال خمسة قرون بشكل لم تصل إليه أي مدينة أخرى في الإمبراطورية العثمانية، ولم يصل إلى مكانتها في زمن العباسيين أي مدينة مثل دمشق التي كانت المقر الاعتيادي للخلفاء الأمويين، أو القاهرة التي حاول السودانيون وخلفاء مصر زيادة أهاليها وجمالها، أو فارس التي وضع فيها سلاطنة الأتراك كرسي إمبراطوريتهم في بادئ الأمر، أو القسطنطينية التي تميزت بموقعها وبنائها البديع، ومناخها الممتاز، أو أي مدينة إسلامية مهما كانت مزدهرة وغنية وآهلة بالسكان أو مزدهرة التجارة كبغداد، ولم يتح لأي مدينة أخرى أن

ترث بابل وساليق وطيسفون.

وقد أصبحت (بغداد) في فترة من الزمن مركزًا تجاريًا بين الشرق والغرب، وهكذا أصبحت من أعظم عواصم الإمبراطوريات التي قامت حتى عهدنا هذا.

ويذكر المؤرخون العرب أن هذه المدينة كانت مزدانة بقصور جميلة ومساجد فخمة وخانات واسعة، والكثير من الحمامات العامة، وكانت محلاتها التجارية تعرض كل فاخر ونفيس تنتجه الهند وأفريقيا وآسيا، وجميع منتجات أوربا المفيدة، ولكن هذا الازدهار والإشراق اختفى فجأة في عهد الخليفة المستعصم بالله، أي عام ٦٥٦ هجريًا.

لقد هوجمت بغداد فجأة من قبل التتر المغول الذين كانوا بقيادة هولاكو خان، حفيد جنكيز خان، بالاتفاق مع الوزير ابن العلقمي، فهزموا الجيش الضعيف الذي وضعه الخليفة لمواجهتهم شر هزيمة، ودخل التتر المغول المدينة، وعاثوا فيها خلال أربعين يومًا، وقاموا بارتكاب أبشع المنكرات التي تجذب أي عسكر غير نظامي لا يعرف سوى الجهل والهمجية.

وقد عبر عن وضع بغداد في هذه الفترة الكاتب العربي (ابن يوسف الحنبلي) في كتابه (تاريخ الخلفاء والسلاطين الذين تولوا مصر)، والذي احتفظ بأصله خطيا، وبالترجمة أيضًا، وقد وضح الكاتب في هذا الكتاب مدى الترف والازدهار التي وصلت إليه بغداد، وكيف دمره التتر المغول، حيث قال:

" لقد كان الخليفة المستعصم بالله ضعيف الروح، وكثيرًا ما كان سلوكه مذمومًا، وحكم سبع عشرة سنة حتى قتله التتار، فرأت بغداد آنذاك إراقة دماء مليوني شخص من أهاليها، وخربت بيوتها وجوامعها، وألقيت الكتب المقدسة في دجلة.

لقد كان في هذه المدينة يومذاك اثنا عشر ألف خان ضمن أسوارها، واثنا عشر ألف حي، وأربعة وعشرون ألف سوق، وستون ألف حمام، وأربعة وعشرون ألف مدرسة، ومائة ألف جامع، من بينها مسجد الرصافة الشهير، الذي كان يتسع لمائة ألف رجل. وقد كان يقتضي ثلاثة أيام وثلاثة ليالي للطواف حول أسوار هذه المدينة، كما كان عرض الأسوار كبيرًا، بحيث إن ستين فارسًا يتمكنون من السير على الواجهة ".

وظلت بغداد تحت سيطرة المغول حتى عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م، عندما استولى عليها (تيمور لنك) للمرة الأولى في عهد السلطان (أحمد)، ثم استولى عليها مرة أخرى عام ٨٢٣هـ، أيضًا في عهد السلطان (أحمد)، لكنه سلمها له، وظلت تحت حكم السلطان أحمد حتى طرد على يد (ميران شاه) ابن (تيمور لنك) وبعد ذلك عندما كانت تحت حكم (أبي بكر) ابن (ميران شاه) انتزعها منه التركماني (قره يوسف) واحتفظ بها لنفسه ولخلفائه من بعده، وفي عام ٨٧٥هـ سيطر عليها (أوزون حسن) الأمير التركماني، وظلت بغداد تحت حكمه وحكم عائلته حتى انتزعها منهم الشاه (إسماعيل) ملك الفرس في عام ٩١٤هـ.

وفي عام ٩٤١هـ تقدم إليها الأتراك بقيادة سليمان الأول، واستولوا عليها بدون مقاومة.

ثم استردها منهم الشاه عباس ملك فارس عام ١٦٦٦م، ثم جاء مراد الرابع شخصيًا لمحاربته عام ١٦٣٨م، وأخذها منه بعد حصار دام ستة وثلاثين يومًا، كما قام بإعدام ما يزيد عن ثلاثين ألف فارس، قاموا بإلقاء أسلحتهم بعد موت قائدهم، رغم أنه وعدهم بأن يحافظ على حياتهم

وحريتهم، ولا يتعرض لهم مطلقًا.

عندما دمرت بغداد على يد التتار كانت تقع على ضفتي نهر دجلة، وبعد هذه الواقعة تحول مركز الثقل إلى مصر، فلم تعد بغداد تضم سوى جزء صغير من سكانها السابقين، ولم يعد ممكنًا تشخيص القسم الغربي منها، أما القسم الآخر، فقد أصبح محصورًا ضمن مسافة ضيقة.

وفي عهد الصفويين استعادت هذه المدينة جزءًا من مكانتها؛ لأنها كانت محطة تجارة تربط فارس بسوريا، وبابل، وعدة أقسام من الجزيرة العربية.

كما أنها أيضًا كانت مركز اتصال بين فارس ومكة، وكان الوافدون لزيارة ضريحي علي والحسين – رضي الله عنهما-، يمرون من خلال بغداد، وعلى الرغم من ذلك إلا أن سكان بغداد قد تناقصوا بشكل كبير عندما وقعت تحت حكم العثمانيين، وخاصة عندما قام السلطان مراد بقتل ثلاثين ألف فارسي وفرض على سكانها ضرائب قاسية.

ومنذ هذه الفترة أصبحت بغداد مجرد قرية كبيرة شبه مهجورة، وعندما زارها الرحالة (تافرنييه) عام ١٦٥٦ لم يجد بها سوى خمسة عشر ألف شخص، رغم أننا نرى بأن امتدادها في تلك الفترة يشبه امتدادها الحالي، حسب الخارطة التي رسمها بنفسه.

وخلال عهد العباسيين كانت بغداد تمتد من جهة حتى مشهد الإمام موسى (الكاظم) ومن الجهة الأخرى حتى الإمام الأعظم.

وبالقرب من الأسوار الحالية ما زلنا نرى باتجاه جسر القوارب مدرسة تحولت إلى خان مشيدة منذ سنة ٦٣٠هـ، ونرى أيضًا جامعًا مشيدًا منذ ٦٣٣هـ.

وقد قام بتشييد هذه المدرسة والجامع الخليفة المستنصر بالله، أي قبل ٢٣ أو ٢٦ سنة قبل غزو بغداد وتدميرها من قبل التتار.

أما في الضاحية الواقعة غرب النهر، فنرى خرائب وبناية نجد عليها كتابة عربية متضررة للغاية، تحمل تاريخ عام ٥٣٤هـ.

وفي نفس الجهة، على بعد أربع عشرة أو ست عشرة ياردة من دجلة، نرى برجًا صغيرًا مدفون به جثمان السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد منذ عام ٢١٦هـ، ونرى أيضًا قبورًا مختلفة يبدو أنها جميعها ضمن أسوار بغداد القديمة.

وخير دليل على أن المدينة القديمة كانت ممتدة في هذا الاتجاه إلى حد ميلين من النهر، هو وجود الحفريات التي تجرى بالأرض لاستخراج الطابوق وموارد أخرى للبناء، بل وبامتداد ثلاثة أو أربعة أميال.

وقد ذكر (نيبور) أنه قرأ على واجهة باب المدينة، كتابة توحي بأن الخليفة الناصر قد أكمل بناءه عام ٦١٨هـ، وذلك يعني أن بغداد قبل تدميرها لم يكن لها العرض الموجود الآن في الاتجاه المذكور.

ولكن نظرًا لأن الأسوار أحدث في جزئها الأعلى، فبوسع المدينة، كما ذكرنا أن تمتد أكثر على طول النهر، وتستمر حتى مشهد الإمام الأعظم، بحيث تبلغ سبعة آلاف ياردة تقريبًا.

أما مشهد الإمام الأعظم فهو عبارة عن قرية تقع على بعد نصف فرسخ إلى الشمال الغربي من

بغداد، على الضفة الشرقية من دجلة، ويطلق عليها اسم (المعظم) وقد سميت بهذا الاسم نسبة للمسجد الذي دفن فيه أبو حنيفة النعمان، أحد علماء الإسلام والملقب بالأعظم، ومعظم أتراك الإمبراطورية العثمانية يتبعون مذهبه.

أما ضاحية موسى الكاظم، فتقع على الجانب الآخر من دجلة، على بعد فرسخ من بغداد وربع فرسخ من النهر، وسميت أيضًا بهذا الاسم نسبة إلى الجامع الذي يضم رفات الإمام (موسى الكاظم)، وينحدر هذا الإمام من سلالة النبي محمد r من جهة ابنته فاطمة زوجة علي –رضي الله عنهما-، وقد أمر الخليفة هارون الرشيد بإعدامه عام (١٨٥هـ) بعد أن شك في أنه يحاول الثورة مع أتباعه عليه، ويقدره الشيعة كثيرًا، ويعتبرونه الإمام السابع الشرعي.

كما ذكرنا سابقًا أن بغداد ليس بها سوى جسر قوارب، ويقومون بقطعه أثناء الفيضانات الشديدة، ولكن المتاح عبور النهر في أي وقت بالقوارب الخفيفة المسماة (قفف) وهذه القوارب مصنوعة من الخيزران أو الخوص، وتشبه سلالنا، وتطلى من الخارج بطبقة سميكة من القار المخلوط بالتراب حتى يمنع تسرب المياه إلى داخل القارب، وتتسع هذه القوارب إلى ثمانية أو عشرة أشخاص، وهي ذات شكل دائري وعميقة للغاية.

ولا تحتوي على شراع أو مقود، ولكنها تسير بمجداف أو مجدافين على هيئة رفش يمسك به واحد أو اثنان باليد، وأحيانًا يدور القارب مرة أو مرتان حول نفسه، إما بسبب شكله الدائري أو طريقة القيادة، وبهذا يبقى الركاب في المياه العميقة لمدة ربع ساعة على الأقل، وعادة لا يصل الركاب إلى الضفة الأخرى بدون انحراف أو تأخير.

وقد قدر (نيبور) عرض دجلة بستمائة أو ستمائة وعشرين قدم، ولكنني أعتقد أنه أكثر من ذلك، بسبب شد المياه التي تحدث في الشتاء، خاصة في الربيع، حيث تختلط مياه الأمطار في الربيع في جزء من كردستان وبلاد ما بين النهرين، بالمياه المجمعة من ذوبان الثلوج في بلاد فارس وكردستان وأرمينيا وأعالي بلاد ما بين النهرين.

بينما تقل مياهه جدًا في أواخر الصيف وأوائل الخريف، حيث ينقطع المطر تمامًا في هذه المناطق قبل شهري (برومير) و(فريمير).

أما بالنسبة للقوارب والسفن التي تصعد في النهر من البصرة إلى بغداد، فهي تشبه القوارب التي في أوربا، حيث إنها مغطاة بالكامل بطبقة سميكة من القار المخلوط بالقليل من التراب، حتى تحافظ عليها وتمنع تسرب المياه داخلها.

وعند إخراج قوارب (القفة) من الماء، وتركها لفترة تصبح غير صالحة للاستعمال، فيقوموا بأخذ القار من عليها، ويعرضونه إلى نار لطيفة حتى ينفصل عن التراب، ويسيل في حوض يوضع خصيصًا لجمعه، وهكذا تعود إليه نفس الجودة التي كان عليها عند استعماله الأول.

ويقوم الأهالي باستخراج هذا القار من أطراف (هيت) حيث إنه يتوفر في عيون تقع على بعد بضعة فراسخ غرب هذه المدينة.

وتجعله الحرارة يخرج من باطن الأرض، فيقوم الأعراب بجمعه في أواخر الصيف، وينقلونه إلى بغداد، ويستخرج بكميات كبيرة، بحيث لا يقتصر استخدامه على الأغراض البحرية في بغداد والبصرة فقط، وإنما يستخدم في طلاء المجاري وغرف الحمامات ومغاسل المطابخ، وكل ما

يكون معرض باستمرار للماء ونخشى إفساده.

وهناك احتمال بأن أسوار بابل المشيدة من الطين كانت قد طليت بهذا القار من الأعلى للحفاظ عليها من تأثيرات الماء والهواء.

إن أهالي بغداد يقدرون عددهم بما يزيد عن مائة ألف نسمة، بينما يقدرهم (روسو) -وكيل العلاقات التجارية الفرنسية– و(ليوني) –رجل الأعمال الإيطالي الذي أقام بها منذ أكثر من أربعين عامًا، ورئيس دير الكرملين-، الذين تحدثنا إليهم جميعًا بما لا يزيد عن ثماني ألف نسمة، ويوزعونهم على النحو التالي:

خمسون ألف عربي، وعشرون ألف تركي، من ضمنهم الانكشارية وحرس الباشا، وألف كردي تقريبًا، وألف وخمسمائة مسيحي من الكلدان والأرمن، وألفان وخمسمائة يهودي.

ويؤكد هؤلاء الأشخاص أنه منذ أن تولى سليمان باشا باشوية بغداد، ازداد عدد الأهالي من ثلاثين إلى أربعين ألف نسمة، من بينهم اثنا عشر أو خمسة عشر ألف من الفرس، كانوا قد هربوا من الاضطرابات والحروب الأهلية التي وقعت في وطنهم منذ أكثر من نصف قرن، كما وفد للإقامة بها العديد من اليهود والأرمن لأغراض تجارية مع تركيا والهند، حيث إن الباشا يبذل مجهود كبير في التشجيع على ازدهار التجارة، وهذا ما سنذكره لاحقًا.

إن مدينة بغداد كانت منذ فترة طويلة مقرًا للخلفاء والمرجع الرئيسي لإمبراطورية واسعة ومركزًا للإسلام وملتقى العلماء والشعراء العرب وغيرهم، ولكنها لم تمكن إلا من الحفاظ على بعض آثار ذلك العمران، والتفنن، والسعي وراء الملاهي التي تتميز بها العواصم الكبرى.

وخلال وجودي هنا اكتشفت أن أهلها طيبين للغاية، وكبارهم مثقفين، ولطفاء، وتجارها أكثرًا نشاطًا وحرصًا من باقي تجار الإمبراطورية العثمانية، كما أنهم أقل حدة في تعصبهم الديني، حتى أن حسدهم أقل قسوة وأكثر إنسانية.

إن نساء بغداد محصنات في حرمهن، كما هو الحال في المدن الأخرى، فهم لا يختلطون أبدًا بالرجال.

وعند خروجهن من منازلهن يكن متحجبات، أما في منازلهن فتجد أنهن يتمتعن بحرية كبيرة، فيتبادلن الزيارات، وكثيرًا ما يقمن الاحتفالات ويستمتعن بالرقص وسماع الموسيقى بحرية تامة.

أما نساء الطبقة العليا فعادة يكن جميلات ورشيقات، ومعظمهم من الجواري الجورجيات، اللاتي يتم شرائهن بأسعار عالية، وهن على قدر من الثقافة والحيوية، وبلاغة الحديث، ومعظمه أحاديثهن عن الأناقة، ولغتهن المعتادة هي التركية والعربية.

أما نساء العامة فلا يتحجبن عند خروجهن إلا بغرض تحسين المظهر فقط، وعادة لا يتمسكون بالحجاب، وهن نحيلات في معظم الأحيان، ولكنهن رغم ذلك رشيقات، ولهن رأس بيضاوي، أما الأنف فهو جيد البروز غالبًا يكون دقيق، وملامحهن ذات مقاس اعتيادي، أما أعينهن فتجدها كبيرة وسوداء، وبشرتهن سمراء، ووجههن بالكامل جميل جدًا، ولكنه يتغير قليلاً بسبب اللون الأسود الذي يضعنه على حواجبهن وحول أعينهن، إلى جانب الأزرق، الذي يصبغن به شفاههن كما يفعل جميع سكان سواحل البحر المتوسط.

ويضعن قرطًا ذهبيًا في أنفهن، ولا يرتدين ثياب كثيرة، عادة ما تكون قميص أزرق على على جسدهن، ومنديل حول رؤوسهن، ولا يرتدين أحذية في أقدامهن، ولغتهن هي العربية.

وتقوم النساء الثريات بشراء أفخر أقمشة الهند، أما زينتهن فتجدها عبارة عن قبعة كبيرة عالية ومسطحة ودائرية من الأمام، بميل بسيط من الخلف، ويضعن عليها مناديل من قماش الموصلين، منقوشة ومطرزة بالذهب والفضة، وأحيانًا تزين بالماس أو أحد الأحجار الثمينة الأخرى.

وفي المناسبات البسيطة يرتدين قبعة سوداء كبيرة مخملية مائلة إلى الخلف، منتهية بشرابات من الحرير أو الذهب، وإن كانت من الذهب تكون مغطاة بشريط، ويثبتن هذه القبعة على رؤوسهن بواسطة شال من الكشمير.

أما شعرهن فيقمن بتضفيره على هيئة عدة ضفائر مدلاة، ويقمن بقصة من الإمام، وينزلنه على جبينهن، ويغطين رقبتهن بمنديل من القماش المزين أو المطرز بخيط حرير ذهبي اللون، مفتوح من الأمام مثل قمصان الأوربيين.

والثوب لا يغطي القميص من الأمام، فهو لا يلف سوى الفخذين، ويثبت بكلاب وفوق هذا الثوب يرتدين رداء ضيق يغطى الظهر فقط، ولا يصل إلى أسفل الثوب.

وجميع نساء بغداد يتجولن في منازلهن حافيات الأقدام، ولا يرتدين الخفوف إلا عند خروجهن إلى الشارع.

إن جميع نساء بغداد يخضبن أيديهن وأرجلهن باللون البرتقالي أي الحناء، بينما يصبغن أظافرهن باللون الأسود، وكذلك شعرهن.

ويفعلن ذلك بالطرق الآتية:

معجون لصبغ الأظافر بالأسود:

يحضرن المكونات التالية: مسحوق المرتك (أكسيد الرصاص) في مقدار درهم. والجير (الكلس) المنطفئ في مقدار ستة دراهم. ومن الصودا مقدار ثلاثة دراهم.

ويسحقن المقادير كلها، ويخلطنها بالماء، ثم يضعنها على أظافرهن، ويبللنها حتى تجف على الأظافر، من سبع إلى ثمانِ مرات، وبعد مضي ربع ساعة تغسل الأظافر وتفرك بالقليل من الزيت حتى تصبح أكثر لمعانًا، وليزيد مفعول المعجون الذي وضع عليها.

معجون لصبغ الأيدي والأرجل بالأحمر البرتقالي أو الأسود البنفسجي:

تسحق أوراق الحناء، ويبلل المسحوق بالماء، ثم يوضع على أطراف اليد والقدمين حسب الرغبة، وتترك لمدة ثماني أو عشر ساعات.

وفي حالة الرغبة في الحصول على لون أسود بنفسجي فعليك بعد رفع الحناء وقبل غسل اليد أو الرجل، بوضع مسحوق أوراق النيلة بدلاً من الحناء، وتبللها بالماء.

معجون لتسويد الشعر:

تحضر العفص الصلب والثقيل بمقدار ٣٦ درهم. ومقدار أربعة دراهم من الإثمد، ومقدار ١٢

درهمًا من القرنفل، ومقدار ثلاثة أقداح من الخل الجيد.

يسحق العفص ويقلى في القليل من زيت الزيتون، ثم يقشر الجوز ويسحق مع الإثمد والقرنفل، وتنخل المساحيق كلها. ويوضع هذا المسحوق في ثلاثة أقداح خل، ثم يوضع على نار هادئة حتى يتركز المعجون.

طريقة الاستخدام:

يغسل الشعر جيدًا بالماء الساخن والصابون، وينشف جيدًا بقطعة قماش، وذلك في المساء. ثم يدهن خصلة خصلة بالمعجون السابق، ويغطى الشعر، ويترك حتى الصباح، ثم يغسل مرة أخرى بالماء والصابون وينشف جيدًا، وهكذا يصبح لونه أسود، ويبقى على هذا الوضع لفترة طويلة.

وهذه الطريقة يستخدمها النساء والرجال العجائز معًا، وكذلك الشباب الذين يريدون صبغ لحاهم من وقت إلى آخر حتى يبدو مظهرهم أكثر شبابًا.

وتشيع هذه الطريقة في صبغ الشعر في جميع أنحاء الدولة العثمانية، وبشكل خاص في بغداد وبلاد العجم، وقد لاحظت ذلك، حيث إنني لم أرَ أي شيخ ذو لحية بيضاء، ولا شابّا ذو لحية حمراء أو شقراء.

كما يضع الرجال والنساء يوميًا معجونًا اسود، لإبراز جمالهم، ونساء العجم ينشرونه على أهدابهن وعلى حواف جبينهن، حتى تبدو أعينهن واسعة وجميلة، وتصبح جفونهن مثل قوسين كبيرين سوداوين.

وعلى هذا الوضع تصبح النساء أكثر جمالاً من النساء اللاتي لا يضعنه، وذلك من وجهة نظر الأشخاص الذين يرونهن بشكل اعتيادي، حيث إنهم أيضًا يلطخون وجوههم بنفس الطريقة. أما نحن فلم نشعر بذلك، حيث إننا اعتدنا على الجمال الطبيعي الذي تتمتع به الأوربيات.

وفي رأيي أن هذه الجفون والأهداب السوداء المستوية في أعلى الأنف، إلى جانب الحاجبين السوداوين المنتشرين في الأطراف، تكسب المرأة ملامح قاسية ومشوشة، خاصة عند اقترانهم ببياض العين، ويزداد الأمر سوءًا إذا كانت العينان زرقاوين.

عند وصولي (بغداد) في أوائل شهر (فلوريال) الموافق (٢١ نيسان / أبريل) لم يكن مقياس الحرارة (ريامر) يسجل أكثر من ١٨ درجة، ولكنها أصبحت فيما بعد ٢١ و ٢٢ درجة، ثم ازدادت تدريجيًا حتى أصبحت ٢٦ درجة، وفي منصف (بريريال) أو (أوائل حزيران/يونيو) ارتفعت ووصلت إلى ٣٠ و ٣١ درجة عقب ريح شرقية خفيفة، جاءت محملة بكمية كبيرة من الجراد.

وتزداد درجة الحرارة كثيرًا خلال الصيف، وعادة تهب الرياح من الشمال الغربي، مارة بأراضي جرداء، وعند وصولها هذه المنطقة تصبح شديدة جدًا.

وفي الظهيرة ترتفع درجات الحرارة إلى ٣٢ أو ٣٤ أو ٣٥، وتبقى هكذا حتى المساء، وخلال هذا الوقت نجد بغداد أكثر شبهًا بالصحراء المقفرة، فلا ترى أي شخص في شوارعها، وتغلق الأسواق بدءًا من الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحًا حتى غروب الشمس، ويلجأ الأهالي

إلى سراديبهم التي تكون درجة الحرارة بها منخفضة كثيرًا، ولا تزيد عن ٢٥ أو ٢٦ درجة.

ولكن بما أن الهواء يتجدد بصعوبة داخل هذه السراديب، فإن كل من بداخلها يحتاجون إلى جرعة ماء كل نصف ساعة تقريبًا.

وعلى عكس درجة الحرارة المرتفعة بالنهار، نجد الليل شديد الرطوبة، هذا هو السبب في سحر ليالي بغداد التي يعتز بها أهاليها، فتجهدهم منذ غروب الشمس يخرجون من تلك السراديب، ويصعدون إلى أسطح منازلهم حاملين عشاءهم ويفرشون المنام عليها أيضًا.

وفي هذا الوقت تبدأ الزيارات وساعات الأنس، فيقوم الأغنياء بجلب الراقصين والموسيقى والقارئين، الذين يسردون الحكايات مثل (ألف ليلة وليلة).

أما في فصل الخريف فتنخفض درجة الحرارة، وتصبح الرياح متقلبة، ولكن الرياح تبقى حارة أثناء النهار عندما تهب من جهة الشمال، وأحيانًا تكتسي جبال كردستان وفارس بالثلوج، وكذلك المناطق المنخفضة من بلاد آشور تكون ترطبت بالأمطار.

أما في حالة سكون الهواء في شهر (فندمير) وهذا ما يحدث في معظم الأحيان، تصبح الحرارة لا تطاق، رغم أن المقياس لا يسجل أكثر من ٢٨ أو ٣٠ درجة.

وفي أواخر (فريمير) لا يشعر المرء بالبرد أثناء النهار، وعادة ما تكون السماء صافية والرياح متقلبة جدًا، وتهب الرياح الشرقية والشمالية والشمالية الغربية، ورغم أنها جافة وعليلة إلا أنها ليست باردة، بينما تكون الرياح الغربية رطبة بعض الشيء، وهذه الرياح هي نفسها التي تحمل الأمطار إلى بغداد أحيانًا، بينما يحدث ذلك في معظم الأوقات في أطراف الموصل والجزء الأوسط والأعلى من بلاد ما بين النهرين.

وتعم الريح الجنوبية عادة في أواخر الخريف وأوائل الشتاء، وعندما تهب لا تكون شديدة ولا تطول فترتها.

وبدءًا من أواخر (فندمير) الموافق (أواسط تشرين الأول) ينخفض مقياس الحرارة (ريامر) من ٢٤ إلى ٢٠ ومن ١٨ إلى ١٥ درجة.

أما في شهر (نيفوز) فتنخفض الحرارة خلال النهار لتصل إلى ٨ و١٠، وأحيانًا تصل إلى ٤ و ٥، وأحيانًا تصل إلى صفر أو ١ خلال الليل، لدرجة أن الماء الموجود في فناء المنازل كان يبدو في الصباح مغطى بطبقة جليدية سمكها خطان أو ثلاثة.

وكما يبدو أن مناخ بغداد، أكثر دفئًا من مناخ صعيد مصر، حيث إن الرياح القادمة من البحر الأبيض المتوسط، تمر في طريقها على ١٥٠ فرسخًا من الأراضي الصحراوية شديدة الحرارة، مما يجعلها تصل إلى هذه البلاد شديدة الحرارة، وتهب على بغداد طوال النهار.

أما البصرة التي تقع على بعد ٨٠ فرسخًا إلى الجنوب، فتكون أقل حرارة من بغداد، نظرًا لتأثرها برياح جنوبية شرقية قادمة من الخليج، فتجعلها أكثر رطوبة من بغداد، ولا ترتفع درجات الحرارة بها إلى أكثر من ٣٢ درجة.

وعلى الرغم من ذلك إلا أن حرارة بغداد الجافة واللافحة أكثر احتمالاً من حرارة البصرة الرطبة، وذلك لأن الهواء في بغداد يحتفظ بلزوجة، لدرجة أننا شعرنا مرات عديدة بأننا أصبحنا أكثر

شهية، وأقل إرهاقًا، وأخف تألمًا ونحن في درجة حرارة وصلت إلى ٣٠ أو ٣١ أو ٣٤ في جو رياح شمالية غربية، بينما لم نشعر بذلك ونحن في جو رياح جنوبية، أو جنوبية شرقية، رغم أن الحرارة لم تتجاوز ٢٦ أو ٢٨ أو ٣٠ درجة.

ومن المعروف أن الحرارة مهما كانت شديدة يمكن احتمالها بسهولة إذا كانت مصحوبة بهبوب ريح سريعة، ومن الصعب احتمال الحرارة المعتدلة إذا كانت مصحوبة بريح ساكنة.

أما الشتاء في بغداد فهو بارد، نتيجة لهبوب الرياح من جبال كردستان وفارس الجليدية، ورغم بعدها إلا أنها تصل إلى بغداد باردة.

أما في مصر فنجد أن الرياح تفقد شدتها عند اجتيازها البحر المتوسط أثناء قدومها من الشمال، ولذلك فإن الأشجار الغريبة التي تنمو في مصر مثل أشجار الموز والحناء، لا تنمو في بغداد، حيث إنها تموت عندما تنخفض درجات الحرارة إلى اثنين تحت الصفر في بعض الليالي.

ولكن هذه البرودة الشديدة لا تنال من الأشجار الحمضية المزروعة في بغداد، وكذلك لا تؤثر على أشجار النخيل التي تنمو جيدًا في هذا المناخ أكثر مما تنمو في مصر.

وبالرغم من النهار الحار، والليالي الباردة في بغداد، إلا أن ذلك يمنعها أن تنعم بجميع فوائد المناخ الصحي، وذلك نتيجة لوقوعها في سهل واسع، وتهب عليها الرياح في جميع فصول العام، مما يمنع تكون الأوبئة، هذا إلى جانب ماء نهر دجلة الصالح للشرب والصحي للغاية.

وتقل الأمطار في بغداد حتى فصل الشتاء، وسمائها دائمًا صافية، ومناخها نقي في الصيف، لدرجة أن المرء لا يشعر بالرطوبة أو الندى إلا بالقرب من النهر.

وإن تم زراعة جميع الأراضي المحيطة بهذه المدينة، وتم حبس مياه نهري دجلة والفرات بها، ووزعت على قنوات، ثم جمعت بعيدًا، ووزعت على الحقول والبساتين المراد ريها، وإن لم يسمح بتكوين المستنقعات والبرك التي تلوث الهواء، حتى على بعد مسافات كبيرة من المدينة، فإننا نعتقد أن بغداد ستكون أفضل منطقة على وجه الأرض من حيث المناخ الصحي، وستكون أيضًا الأكثر حيوية، والأوفر غنى، والأكثر إنتاجًا وازدهارًا.

لقد سمعت أن التنجيم نشأ في هذه البلاد، وأنا أصدق هذا القول، حيث إن سكانها يقضون أشهرًا عديدة من السنة على أسطح المنازل، والمناخ هنا نقي في جميع المواسم، والسماء صافية بحيث تشاهد النجوم اللامعة بدرجة لا تراها في أوربا.

وليس من الغريب أن ينشأ هذا العلم في مكان تتجه فيه كل الأنظار نحو السماء، وبما أن العقيدة نفسها تستخدمه، فإن تقدم الكلدانيون في علم مثل هذا ذو سحر وجاذبية بالنسبة للبدائيين، وسبقوهم فيه بفضل الغريزة والطبيعة الإنسانية.

هذا إن لم يكن من فوائد جعلتهم يتجهون إلى هذا العلم، مثل ما أفادهم هذا العلم في ميدان الزراعة أيضًا.

الفصل الخامس

محتويات هذا الفصل

امتداد باشوية بغداد، وحالتها العسكرية، ومصادر دخلها،
حصار البصرة، مرض سليمان باشا و شفاؤه.

لقد كانت باشوية بغداد محدودة جدًا، عندما كان يوجد باشا آخر من الدرجة الأولى، في شهرزور، وباشا من الدرجة الثانية في البصرة، ومتسلم في ماردين، وعندما جمعت كل الباشويات الأخرى، أصبحت باشوية بغداد إحدى أهم باشويات الإمبراطورية العثمانية وأوسعها، وقد حدث ذلك الأمر أثناء تشويشات فارس، عندما قام نادر شاه، بتهديد بغداد والبصرة والمناطق الواقعة إلى الشرق والغرب من نهري دجلة والفرات، مما جعل العثمانيين يفكرون في مشروع يعمل على تقوية وتركيز القوى القادرة على ردعه والتصدي له.

عندما أصبح باشا بغداد حاكمًا على ولاية خصبة للغاية، ومزدهرة التجارة كهذه، ومليئة بالسكان بقدر مصر، أصبح قادرًا على تجنيد جيشًا مكونًا من أربعين إلى خمسين ألف مقاتل بكل سهولة، وأصبح أيضًا قادرًا على إعالتهم ورعايتهم بموارد ومحاصيل بغداد نفسها.

كما كانت القبائل العربية المنتشرة في بلاد ما بين النهري، والتي تقيم على ضفتي نهر شط العرب، قادرة على منحه قوة مكونة من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف فارس عندما يحتاج إليها.

وحتى ينجح في ذلك يجب أن يكون على وفاق تام مع هذه القبائل، وأن يمتلك المال الكافي للإغداق عليهم وشراء ولاءهم.

ويستطيع هذا الباشا أيضًا أن يقود الباشوات الأكراد الثلاثة الخاضعين له، ويمكنه استخدامهم أيضًا.

وكلاً من هؤلاء الباشوات يسكنون في أماكن مختلفة، فالأول يقيم في شهرزور، التي تقع على بعد ١ فرسخًا من أربيل من جهة الشرق الجنوبي الشرقي، بينما يقيم الثاني في قلعة قره جولان الواقعة بالقرب من حدود فارس، أما الباشا الثالث فيقيم في سربيل وهي آخر قرية على طريق بغداد وهمدان.

وهؤلاء الباشوات الأكراد ليس لهم سوى طوغ واحد يعطيهم إياه باشا بغداد، ويحصلون عليه حسب واردات ولايتهم، وذلك لحثهم على التنافس مع بعضهم البعض، وهؤلاء الباشوات الثلاثة مجتمعين بإمكانهم جمع اثني عشر أو خمسة عشر ألف فارس، يضع باشا بغداد كل اعتماده عليهم، حتى أكثر من اعتماده على القبائل، وذلك لأنه يستطيع معاقبتهم بكل الوسائل القاسية إذا انسحبوا من المعركة قبل نهايتها.

أما حرس الباشا فهم عبارة عن أربعة آلاف فارس، وألفين من المشاة، أما الفرسان الأتراك، فيبلغ عددهم ألفًا أو ألفًا ومائتين في كل الباشوية.

بينما تبلغ قوات الانكشارية المسجلون في كل المدن، أعدادًا كبيرة بحيث يمكنها تشكيل جيشًا كبيرًا، هذا إن كان بالإمكان قيادتهم جميعًا.

ويمكن أيضًا جمع ما يزيد عن خمسة عشر ألف تحت الأعلام بكل سهولة، من بينهم ثمانية

آلاف في بغداد يقومون بمهمة حمايتها، وهم تحت قيادة أغا يتم تعيينه من قبل الباب العالي.

كما أنهم يتلقون الأوامر من الباشا، ولكنه لا يستطيع استخدامهم في مشاكله المتعددة سواء مع البدو أو الأكراد، حيث إن هذه القوة مخصصة فقط لحماية المدينة والدفاع عنها، أما إذا اضطرت إلى الخروج لمواجهة الأعداء، فيجب أن تتلقى أوامرها من الباب العالي أو الصدر الأعظم، وليس من الباشا.

وفي الحالات الضرورية يتم تجنيد عدة فرق مسلحة متطوعة، وهذه الفرق يزداد عددها كلما كان الباشا محنك وعلى دراية بأسلوب معاملتهم.

كما أن أعدادهم قد تصل إلى خمسة آلاف أو ستة آلاف مسلح بكل سهولة، إذا كانت الحرب تدور على أراضي فارسية، لعلمهم بالغنائم الثرية التي سيحصلون عليها.

لم نتمكن من معرفة مصادر دخل هذه الباشوية بدقة، ولكننا من خلال جميع التقارير التي قدمت لنا قدرنا أنها تزيد عن أربعة آلاف كيس، أي أربعة ملايين فرنك، ولا يصل ثمن هذا المبلغ إلى استانبول، حيث إن المبلغ بالكامل ينفق لتمثيل الباشا، وتدفع منه رواتب الموظفين الرئيسيين ورواتب عساكره.

وإذا حدث خلاف بينه وبين الأكراد أو البدو، تقل الحصة التي يجب إرسالها إلى الآستانة كثيرًا، لأن الباشا ينفق معظمها لدفع المصاريف الغير اعتيادية التي أجبر على القيام بها.

وهذه الواردات المتمثلة في أربعة آلاف كيس مصدرها هو (الميري) أو الضرائب المحصلة من الأراضي، إلى جانب الجزية، أو الرسوم الشخصية التي تفرض على غير المسلمين، وهناك أيضًا بعض المزارع التي يتولى المحصلون إدارتها، ثم يجلبون المحاصيل إلى خزينة الباشا.

إلى جانب الرسوم الجمركية، والمساهمات الواجبة على البدو واليزيديين والأكراد، وقد ازدادت أهمية تلك الرسوم الجمركية خاصة عندما بدأت بضائع الهند تمر من خلال البصرة وبغداد، ولا تمر في فارس إلا نادرًا.

كما يوجد أيضًا حقوق أخرى متعددة تدخل ضمن الواردات مثل حق الوراثة وحق مصادرة الأملاك بعد الحكم بالإعدام على أحد الرعايا.

وكذلك الحقوق الناتجة عن البيع أو التنازل عن الزعامة والتيمار، أو عن التعيينات والوظائف والمهام عند تسميتها من قبل الباب العالي.

وجميع هذه الواردات و مصادر الدخل تذهب مباشرة إلى خزينة السلطان.

إن كان جمع كل هذه القوى والواردات الكثيرة، ساعد على التصدي لهجمات الفرس في بعض الأحيان، بل ومنح الباشوات طرق كثيرة للاحتفاظ بمراكزهم بصرف النظر عن موافقة السلطان، فإنه لم يمكنهم من كسب الرأي العام أو محبة القوات الانكشارية، ولم تمكنهم أيضًا من جعل جميع ضباط حراستهم مخلصين لهم، مما جعلهم في حاجة دائمة إلى فرمان السلطان الذي يصدره كل عام لتثبيت ولايتهم والاعتراف بها.

وجميع هذه الأمور تحقق منذ عهد (حسن باشا) الذي تولى باشوية بغداد للمرة الثانية عام ١٧٠٢، وكان له الفضل الأكبر في أن يصبح مفيدًا خلال اثنتين وعشرين سنة متتالية، حيث إن

السلطان لم يعد المسيطر الوحيد، والذي يتمكن من تعيين الباشا الجديد لبغداد عند وفاة حاكمها، أي أنه لم يعد له صلاحية في خلع الباشا إذا كان مدعومًا ومؤيدًا من الشعب والعساكر.

حتى أن الأمور وصلت إلى حد تجهيز جيش حتى يتولى الباشا الذي يعينه الباب العالي أمور الباشوية.

ولكن الباب العالي لم يكن مستعدًا لتجهيز جيش لتولي هذه الأمور، وذلك نتيجة للحالة السيئة التي تعرضت لها هذه الإمبراطورية، كما اكتفى السلطان بالاحتفاظ بمظهر السيادة في ولاياته البعيدة والعاصية، وكان يكتفي أيضًا بالحصول على الواردات بانتظام.

ورغم المحاولات العديدة للسلطان لانتزاع هذه الباشوية من خلفاء (حسن باشا) إلا أنه لم ينجح أبدًا، حيث إن جميع الباشوات الذين كان يعينهم كانوا لا ينجحوا في الوصول إلى بغداد، فكانوا إما أن يقتلوا في الطريق، أو يجبروا على الانسحاب بعد فترة قصيرة من تسلم الولاية.

كما أن جميع المحاولات في القضاء على خلفاء حسن باشا فشلت، حيث إن الأشخاص الذين أرسلهم السلطان للقضاء عليهم قتلوا، ولم ينجحوا في إنهاء مهمتهم أبدًا.

ونتيجة لهذا خلف أحمد باشا أباه حسن باشا، فحكم بغداد لمدة ثلاث وعشرين سنة، ومن بعده جاء سليمان باشا صهر أحمد باشا، وتولى الحكم لمدة ثلاث عشرة سنة، ومن بعده تولاها علي أغا والي البصرة، ثم تولاها عمر الذي تزوج الابنة الصغرى لأحمد باشا.

وكان سليمان باشا يفضل علي أغا، ولكنه قتل بتحريض من (عادلة خاتون) الابنة الكبرى لأحمد باشا، فقام الديوان بتعيين عمر الذي استلم الفرمان من الباب العالي بعد فترة طويلة، أي عام ١٧٦٤.

وفي عهد ولاية عمر قام كريم خان بمحاصرة البصرة عام ١٧٧٥، وكان سليمان باشا والي بغداد، متسلمًا على البصرة في هذه الفترة، فأحكم كريم خان الحصار على البصرة لمدة ثلاثة عشر شهرًا.

وبما أن ترقية سليمان من كونه متسلمًا على البصرة إلى هذا المقام أي واليًا على بغداد، يرجع إلى دفاعه عن البصرة، فينبغي علي أن أشرح لكم باختصار أهم أحداث حصار البصرة.

لقد بدأت هذه الواقعة عندما تسبب كريم خان، وهو أحد مغتصبي عرش فارس، في نشوب خلافات مع عمر والي بغداد، وذلك بسبب الزوار الذين يمرون بالمدينة في طريقهم لزيارة ضريح الإمام علي t، وقد وصلت هذه الخلافات لدرجة أنه طلب من الباب العالي رأس عمر، وقال بأنه سيرسل جيشًا إلى دجلة والفرات إن لم يستجيبوا لطلبه، وإن لم يلغوا الضريبة المؤلفة من أربعة قروش، التي فرضها الباشا على الحجاج.

بما أن الباب العالي من سماته التباطؤ حتى في أخطر الحالات، وعندما تتعرض مصالحه للخطر، أو عندما يطعن في كبريائه، فهو لم يكن مستعدًا للحكم على أحد كبار موظفي الإمبراطورية بالإعدام، أو بالتصدي إلى ملك فارس، بدون الإنصات إلى الطرف الأول، ومعرفة الأسباب الحقيقية التي دفعت الطرف الثاني إلى هذا التصرف.

أما كريم خان فقد كان يختلق الخلافات لشن حربه، وكان يعرف جيدًا أنه لن ينال مراده إلا بالاستيلاء على بغداد والبصرة، وكذلك الاستيلاء على الأماكن التي تضم أضرحة الأولياء الكرام.

وهكذا قام بتجهيز جيشًا من خمسين ألف رجل، وضعهم تحت قيادة شقيقه (صادق خان) ووجه أوامره بالتقدم إلى البصرة وحصارها.

وعندما بلغ سليمان متسلم البصرة هذا الخبر، قام بجمع ذخيرة ومؤونة تكفي لمدة عام بأقصى سرعة، كما قام بتسليح خمسة عشر ألف رجل من الانكشارية، ووضع نفسه أمام خيارين، إما أن يتمكن من رفع الحصار، أو ينتظر وصول المعونة إليه من قبل الباشا.

كانت البصرة محاطة بأسوار في حالة جيدة، رغم أنها من الطين، كما كانت محصنة بمائة مدفع ذات عيارات مختلفة، ويحيطها أيضًا قناة مائية عريضة متصلة بالنهر، أما الأهالي فقد كانوا مستعدين تمامًا لتقديم الدعم والمساعدة لحاكمهم سليمان، الذي يقدرونه كثيرًا ويمتدحون خلقه الكريمة.

وكان أهالي البصرة في ذلك الوقت يزيدون عن أربعين ألف نسمة، أما الآن فلا يوجد بها سوى خمسة عشر ألف على الأكثر.

ولا يكاد هذا العدد يشغل ربع مساحتها، حيث إن عرضها يبلغ ألفًا وخمسمائة أو ألفًا وستمائة خطوة هندسية على امتداد شط العرب، بينما يبلغ طولها ثلاثة آلاف خطوة من المسافة.

ولا يشغل بيوت سكانها سوى ربع مساحتها، أما باقي المساحة فليس بها سوى حدائق وسهول مزروعة بالقمح والقطن أو أشجار النخيل، ومن ضمن هذه المساحة، توجد الضاحية أو القرية المسماة (المناوي) التي تقع بجانب النهر، وهي الأخرى محاطة بسور حصين.

أما بيوت البصرة بالمعنى الدقيق، فتقع على مسافة نصف فرسخ من النهر، وبمجرد انتشار خبر التهديد بحصار البصرة، قام الإنجليز بجمع كل ما يملكونه على متن ثلاث بواخر إنجليزية، كانت راسية بالميناء، وركبوها كلهم، وانطلقوا نحو بومباي.

أما الرهبان الكرمليون، وممثل الشركة الفرنسية الهندية، وبعض الإيطاليين المقيمين بالبصرة تحت رعاية فرنسا، فلم يغادروا المدينة، ولم يكن لديهم الدافع لذلك، فهم لم يتعرضوا لأي أذى من قبل الأتراك خلال الحصار، أو من قبل الفرس بعد استيلائهم على البصرة.

أما كريم خان فقد قام بتسليح ثلاثين قاعدة بحرية محملة ببضعة مدافع في موانئ الخليج، وهكذا كان بإمكانه بدء هجومه على المدينة من الماء، إلى جانب جنوده الذين يقاتلون في البر.

دخلت البوارج أو السفن الحربية إلى المياه في منتصف شهر (جرمنال) عام ١٧٧٥، ووصلت إلى مشارق البصرة في نفس الوقت الذي وصلت فيه العساكر إليها.

وكان السلطان قائد (قبودان باشا) في البصرة، يقوم بقياد أسطول صغير عبارة عن خمسين زورقًا، وقوارب صغيرة حربية، ومهمة هذا القائد هي حماية التجارة بهذه القوارب، والتصدي لظهور أي قراصنة في الخليج أو نهر شط العرب ودجلة والفرات.

ولكن هذا الأسطول لم يكن في حالة جيدة، بحيث يقاوم القواعد المدفعية، ولذلك فقد نجح صادق خان في الاستيلاء عليه وتدميره بكل سهولة، قبل أن يتمكن قائد هذا الأسطول من القيام بأي محاولة لاستخدامه أو حتى إنقاذه.

وكان الأمر سيصبح سهلاً لو أنه تمكن من إدخاله إلى القناة الداخلية التي تخترق جزءًا من

البصرة، مشتقة من النهر في أعالي المناوي.

وعلى الرغم من قوة الفرس، وما يمتلكونه من مدافع كبيرة، وقائدان أوربيان يقودانهما، إلا أن الحصار استمر لفترة طويلة، وذلك بفضل الاستعدادات الجيدة التي أجراها متسلم البصرة، وخاصة بسبب سخافة منجمي الجيش (الفارسي) فقد كانوا يسألونهم عن كل شيء، وعن إذا ما كانت مدافعهم أصابت الهدف أم لا، فكل المنجمين يجيبونهم بأنهم يقرأون في السماء أن وقت الهجوم العام لم يأتِ بعد، وفي هذا الوقت كان العثمانيون يصلحون أسوارهم، ويجهزون أنفسهم للتصدي للفرس الذين لم يجرأوا حتى على التقدم واقتحام المدينة.

وعند وصول أول خبر عن هجمات كريم خان، كان باشوات الموصل، ووان، وديار بكر، وحلب، ودمشق، يستلمون الأوامر بالتوجه إلى بغداد بما لديهم من قوات، وقد كان من المفترض أن ينضموا إلى صفوف عمر والى بغداد، ويعملون بجواره على رفع الحصار، ولكن التعليمات التي صدرت لهم لم تكن كذلك، فقد أمروا بإرضاء ملك فارس، وبالطبع نفذوا هذه التعليمات، فعند وصولهم بغداد قاموا بقطع رأس عمر باشا، ثم عاد كل منهم إلى ولايته، بدون أي محاولات لإنقاذ البصرة.

وعندما علم كريم خان بموت عمر باشا، بدا وأنه رضي، فاقتنع بسحب جنوده من الأراضي العثمانية، ولكن أخوه صادق لم يتخذ أي إجراء يوحي بالانسحاب، بل استمر في حصاره للبصرة، وزاد من حدته أيضًا.

لم يكن الباب العالي يتوقع رد فعل كهذا، بل كان يعتقد أنه بعد تضحيته بعمر باشا الذي في المرتبة الأولى، والذي لم يفعل أي شيء يلام عليه، سيرضي كريم خان، ويجعله يتراجع عن موقفه، ولكن كريم خان وجد فرصة جيدة للسيطرة على ضفاف دجلة والفرات، بدءًا من بهيت ثم بغداد وحتى الخليج.

وبعد هذا التصرف عرف الباب العالي أنه كان مخطئًا، وأنه قد خسر البصرة، حيث إنه لم يعد لديه مجال لتجنيد جيش جيد لإنقاذها.

مرت ثلاثة أشهر، وما زالت البصرة محاصرة، ولم تصل أية مساعدة للمتسلم من قبل باشا بغداد، ونفذت المؤن وقلت الذخيرة، وبدأ الخوف والجوع يملأ القلوب والأفواه.

وقرر مجلس المتسلم الذي انعقد عدة مرات أن الصمود لفترة أطول لن يغير الحقيقة ولن يضيف من مجد المدينة، بل سيؤدي إلى موت العديد من الأرواح.

وأخيرًا استسلمت البصرة، ودخلها صادق خان في أواسط شهر آيار من عام ١٧٧٦ وقبض على متسلم البصرة وكبار الموظفين لديه، وأرسلهم إلى ملك فارس، وفرض ضريبة قاسية على سكان المدينة.

عادت أعمال التجارة إلى سابق عهدها، وخيم الهدوء على المدينة، أما الإنجليز فلم يتأخروا كثيرًا في العودة إليها، ومواصلة أعمالهم التجارية.

استمرت سيطرة الفرس على البصرة حتى مات كريم خان عام ١٧٧٩، فانسحب منها شقيقه صادق خان، وعاد إلى فارس ليخلف أخاه في الحكم، وأرسل (حسن باشا) والي بغداد في ذلك الوقت، متسلمًا لتولي إدارتها على الفور، وذلك باسم السلطان.

وبعد وفاة كريم خان، وانسحاب قواته من البصرة، أطلق سراح سليمان باشا، وسمح له بالعودة إلى تركيا، واتصف سليمان بحسن التصرف والذكاء والاستقامة، كما حظي بتقدير ممتاز على حسن تصرفه في البصرة، مما جعل أنظار الباب العالي تلتفت إليه، واشتهر في بغداد وفي جميع أنحاء الولاية.

أما (حسن) فكان على العكس، فلم يكسب رضا الكبار أو الشعب، ولم يكن يرضي الباب العالي، وكان يظلم البدو، ويضيق على الأكراد.

أما سليمان فكان يسعى لإرضائهم، حتى ناله أخيرًا، ونظرًا لأنه وقع في الأسر عندما سجنه الفرس، بسبب إخلاصه ومحافظته على البصرة، فقد كان من المتوقع أن يراه الباب العالي مناسبًا لتسلم الطوغات الثلاثة، وعين واليًا على بغداد في عام ١٧٨٠م.

وقد قام سليمان باشا باتخاذ كل وسيلة للبقاء في هذا المنصب قبل أن يتسلم منصبه كما فعل كل أسلافه، ولكنه مع ذلك لم يثقل الشعب بالضرائب أو يستبد كما فعل معظم الباشوات الآخرين، بل قام بتطبيق سياسة التخفيف عن الطبقة الفقيرة، ومنع موظفيه الرئيسيين من ارتكاب المظالم أو ممارسة الاستبداد، كما منع أي ظلم يقع على الأعراب في الرافدين.

وقام أيضًا بتشجيع التجارة وحمايتها بكل الوسائل المتوفرة لديه، ولم يفرض عليها أي رسوم جديدة، واهتم بأمن القوافل التجارية، وقدم القروض بدون فوائد للتجار الذين تعرضوا لمكروه، أو لمن يريدون القيام بمشاريع مفيدة.

وقام أيضًا بمقاومة أفراد العصابات، بمجرد ارتكابهم أعمالاً لصوصية أو محاولتهم التهرب من الضرائب المفروضة عليهم، وكان دائمًا ينجح في ذلك.

وبهذه الطريقة نال تقدير رجال الحرب كلهم، حيث إن حكمه الجيد جعل الهدوء والعدل يسودا بغداد، وجعل الناس يتعلقون به، ويقدرون حكمه العادل.

وبما أنه كان يبعث للباب العالي الواردات المرسومة على الباشوية بانتظام، فلم يكن للباب العالي أي تحفظ على حكمه، بل كان راضيًا عنه كل الرضا، وقام سليمان باشا بتعيين عاملاً في الآستانة يخبره بكل ما يتحدث عنه الأهالي بشأنه، واعتاد في كل عام أن يرسل الهدايا المعتبرة لجميع أعضاء الديوان ليكسب دعمهم وتأييدهم له.

وقد برهنت جميع أعمال وتصرفات هذا الباشا المحنك، عن شجاعته الكبيرة، وقوته وذكائه، فقد كان يهتم بأصغر شئون إدارته، ويستمع بنفسه إلى شكاوى المظلومين، وكان أيضًا يطلع على القضايا المرفوعة إلى محكمة العدل.

وبالرغم من كل هذه الإنجازات التي حققها سليمان باشا، إلا أنه أصبح أخيرًا وبعد أن بلغ من العمر ستًا وستين عامًا، مجرد دمية صغيرة بين أصابع مملوكه أحمد، لدرجة أنه لم يعد يتكلم أو يتصرف إلا بأمر من هذه المملوك، وقد كان هذا المملوك يعفيه حتى من المشاركة في أبرز أمور الإدارة.

ولد أحمد أغا في بغداد، وكان والداه فقيرين، لكنهما شريفان، كان والده سائس لدى سليمان باشا عندما كان متسلمًا في البصرة، بذل والده أقصى ما بوسعه ليدخل ابنه في حاشية سليمان.

وكان أحمد رغم صغر سنه حذق وذكي، وخفيف الروح، ومرح المزاج، وذو وجه جميل، مما جعل سليمان يعجب به ويضمه إلى حاشيته.

وطوال المدة التي أسر فيها سليمان في فارس، أقام أحمد في بغداد، ثم عاد لخدمته بعد إطلاق سراحه، وعندما تولى سليمان باشا ولاية بغداد، اهتم بتثقيف أحمد، وأبقاه بقربه دائمًا، وبفضل خفة ظله، وسرعته الكبيرة في العمل، وخضوعه التام، وتجرده عن رغباته الذاتية، كسب حب سيده، وأصبح في مكانة ابنه، وبالمقابل كان أحمد يبذل ما بوسعه لتستمر محبة الباشا له، وبما أن الباشا كان راضيًا عنه، فكان ينصبه الوظائف المريحة، ومواضع الشرف واحدة تلو الأخرى، حتى قرر أن يرفعه إلى درجة شريفة هي درجة كهية، كما بعث تترًا إلى القسطنطينية طالبًا من الباب العالي أن يلقب أحمد باشا الرتبة الثانية، وأجابه السلطان بالموافقة.

وكان من المفترض أن أحمد أغا قد أشبع رغباته كلها، حيث إنه بعمر الست وثلاثين، وصل إلى أحد المواقع الرئيسية في الإمبراطورية العثمانية، وأصبح لديه ثروة كبيرة، وأصبح أيضًا متمرسًا في فن الإدارة الصعب، كما ضمن بأمواله الطائلة حب شعبه، وتأييد رجال الحرب بأن يأخذ مكان سليمان باشا في أحد الأيام، وكان يجب أن يكون سعيدًا بهذه الفرص الرائعة، وراضيًا بالمستقبل السعيد الذي ينتظره.

ولكنه لم يقتنع بذلك، ولم يقف طموحه عند هذا الحد، فلم يسيطر على نزواته، ونسي أفضال سليمان باشا عليه، واعتبر نفسه قائم مقام الباشا، وبدأ يستحوذ على السلطة كلها تدريجيًا، ولم يعد يخبر الباشا بتفاصيل القضايا الإدارية، وبدأ يصدر الأوامر المهمة باسم الباشا وبدون علمه، ومنع تقديم أي مساعدة مالية أو أي فضل، بدون تقديم طلب إليه شخصيًا، وكذلك منع تنفيذ أي عقاب إلا بأمره، وألا تمنح أي وظيفة أو تباع إلا لمن يقعون تحت حمايته هو شخصيًا.

وهكذا أصبح الباشا مجرد لقب لا أهمية له، وأصبح أحمد أغا أقوى من الباشا، ولم يعد أي شخص في بغداد قادر على الوصول إلى سليمان باشا، إلا بعد أن يعرف أحمد أغا بما يريد، بل وبعد موافقته على ذلك.

وبدأ هذا الوضع يزعج الشعب والحامية، فبدءوا يشتكون من الأمر، لأن ما وجدوه في أحمد أغا لم يكن ما وجدوه في سليمان باشا، فقد كان الباشا عادلاً وكريمًا ومتواضعًا، أما أحمد أغا فلم يكن يدافع سوى عن أصحابه، واتبع شتى الطرق للحصول على الثروة.

لقد حصل سليمان باشا على منصبه هذا بمهارته، وبمجهوده الشخصي، أما أحمد أغا فلم يصل إلى هذه المكانة إلا بمحض الصدفة وبالقليل من الذكاء، وكان سليمان باشا رجل حرب، بينما لم يكن أحمد كذلك، فهو لم يصادف طوال حياته خطرًا حقيقيًا.

ولم يكن هذا الأمر ليفيده كثيرًا، حيث إنه في مكان لا يحكم فيه إلا من يتمتع بمهارة أكثر في شن الحملات، وبذلك يكسب التقدير الاعتيادي من الجميع.

ازداد قلق الناس وتذمرهم عندما علموا بأن أحمد أغا طلب من الباشا أن يطلب له من الباب العالي أن يمنح ثلاثة أطواغ، وعندما علموا أيضًا بأنه يحثه عن التنازل له عن ولاية بغداد، وأنه طلب أن ينتقل إلى قصر منعزل، ويبدأ حياة أخرى كحياة الدراويش.

كان أحمد أغا يتحجج في طلباته هذه بانحدار صحة الباشا، وأنه تقدم في السن، ولم يعد من

المناسب توليه الحكم، وأنه يحتاج إلى حياة هادئة وخالية من المسئوليات.

لم يكن سليمان باشا ينزعج من هذه العروض، فلم يكن يشك في ولاء أحمد أغا، وكان يكن له مشاعر الحب والتقدير، ولم يكن من السهل التقليل من حبه له بعد كل هذه السنوات.

فكان الباشا يكتفي بإخباره أنه اتخذ جميع الإجراءات ليصبح خلفًا له بعد موته، وكان هذا يكفيه في كل مرة.

أصيب الباشا بالمرض فجأة، ولم يعرف أحد ما السبب في هذا المرض، وأول شيء تأثر به هو قواه العقلية، حيث كان يصاب بإغماء ثم ألم في الرأس، ولا يعد قادرًا على القيام بأي عمل، وبدأ يبتعد عن كل متع الحياة، وبدأ يكره كل ما كان يحب في السابق، وعلى الفور تعطلت معدته عن أداء وظيفتها، وازداد شعوره بالألم الشديد، وأصبح جسده نحيلاً، واعتقد القائمون على علاجه، أنه يحتاج إلى التريض والهواء النقي، والابتعاد عن مشاق العمل، حتى يستعيد عافيته من جديد، أما الطبيبان الفارسيان فقدموا له الكثير من الأدوية، ولكنه لم يستفد منها.

وفي هذا الوقت كان على الباشا الاتجاه إلى أراضي الأكراد مع قسم من حرسه، لجمع الضرائب، ورغم أنه كان مريضًا، إلا أنه أجبر نفسه على ذلك، ولحق به (الكهية) أحمد أغا، وموظفيه الرئيسيون.

ولكن الهواء النقي، وركوب الخيل واللهو، لم يفد الباشا كثيرًا كما كان الحرس والشعب يتمنيان.

وبعد عشرين يومًا، رجع سليمان باشا إلى قصره بنفس الحالة التي غادر بها كما قد وصلنا بغداد منذ أربعة أيام، ورأينا اهتمام التجار واليهود والأرمن بالباشا، كما رأينا الكاثوليك يقدموا النذور، طالبين الصحة للباشا، وصادفنا الأتراك والبدو الذين كانوا يترددون على بيت مسئول العلاقات التجارية (الفرنسية) وميتم الكرملين، ولاحظنا قلقهم الشديد على سلامته.

وازداد القلق والتوتر بين الأهالي كلهم عندما عاد الباشا، وأشيع في كل مكان أن الطبيبان المقيمان لديه أعلنا أن أجله قد اقترب، وأنه لا فائدة من العلاج، كما أن المنجم الذي استشاروه مرات عديدة، قال إنه يرى في النجوم تأكيد لهذا الكلام.

أما نحن فكان يجب علينا تجهيز كل ما يلزمنا للسفر إلى بلاد العجم بأكبر سرعة ممكنة، حيث إننا وبالرغم من كوننا غرباء، ولم نصل المدينة منذ فترة، إلا أننا لاحظنا بوضوح اقتراب عاصفة شديدة ستجتاح المدينة إذا توفي الباشا، وسنضطر حينها إلى تأجيل خطتنا فترة ليست بقصيرة.

وكان الجميع متأكدين من موت الباشا، الذي سيتسبب في نشأة أحزاب عديدة بين السكان، وستعم الفوضى المكان، حتى ينتصر احد الأحزاب على الآخرين، وينال فرمان التولية من الباب العالي.

ويبدو أن العاصفة قد بدأت بالفعل، فقد رأينا الكبار يتنازعون، وقوات الينجرية يقرضون أسلحتهم مقابل ترقيتهم في المناصب، أما البدو والأكراد واليزيديين فكانوا يجهزون أنفسهم لنهب وسلب القوافل، والمدينة مهددة وتوقفت التجارة.

والجميع يتوقع فوز (الكهية) في هذه الحرب، حيث إن الديوان يؤيده، وبعد موت الباشا سيصبح هو سيد الحرس، وأمواله الطائلة تضمن له ولاء الينجرية، وقد سمعنا أنه على علاقة

جيدة مع البدو والأكراد.

رغم كل ذلك كان علينا تسليم الباشا رسالة الوزير (الصدر الأعظم) ورسالة المواطن الفرنسي فيرنيناك مبعوث الجمهورية الفرنسية في الآستانة التي كتبها من أجلنا.

فانضممنا للمواطن (روسو) الذي نصحنا بتسليمها إلى الكهية، حتى نحصل على موافقة على سفرنا، ونحصل أيضًا على رسائل موجهة إلى البلاط الفارسي.

وعندما علم (الكهية) بخطتنا من القنصل ومترجم النيابة الفرنسية، أجابنا بأنه سيستقبلنا بكل سرور، فذهبنا لمقابلته في الوقت المحدد مع المواطن روسو، وكما توقع وكيل العلاقات الفرنسية والفرنسيون الآخرون، لقد استقبلنا بكل احترام، وبعد تبادل المجاملات الاعتيادية، سألنا عن سفرنا إلى فارس، ثم أرسل رسائلنا مع فرمان إلى الباشا بواسطة ديوان أفندي، أو رئيس الديوان، ولم يفتح الرسالة.

وبمجرد وصول الرسالة إلى الباشا، أرسل رئيس الديوان يطلب منا أن نزوره، ويبدو أنه علم أنني طبيب من تلك الرسائل، فطلب رؤيتي شخصيًا لاستشارتي في مرضه، وطلب مني الكهية أيضًا أن أعود إليه لأخبره بما توصلت إليه عن حالة الباشا.

عندما ذهبت للباشا وجدته في حالة سيئة، وقد كان مصابًا بحمى شديدة جدًا، ولسانه جافًا وأسود، ومشقق، ومصاب بإمساك في المعدة، ويبدو أنه ازداد سوءًا عندما أخبره الطبيبان الفارسيان، والمنجم بأنه سيموت قريبًا، مما جعل حالته تسوء أكثر من السابق، وكانت الأدوية التي يتناولها تزيد من مرضه، حيث إنها كانت مكونة من معجون الأفيون المركب، وقد عرفنا أنه مكون من: (أفيون وباد زهر والمحار وعصير رمان وليمون حلو). وكانوا يطعمونه بعض الأرز مع الزبد، ويسقونه الماء الصافي والعنبر والمسك المعطرين بالأنبيق.

طلب منا الباشا إعطاؤه بعض النصائح المفيدة لحالته، وطلب أيضًا أن نزوره عدة مرات للاطمئنان على حالته، وأصر علينا أن نكتب له الأدوية التي نرى أنها ستفيد في تخفيف مرضه. فقلنا له إننا مستعجلين في السفر إلى فارس، فقال إن الفرمان سيجهز خلال يومين، وفي هذه الفترة يمكننا الاهتمام به وإسدائه النصائح المفيدة. وقال إن السماء قد أرسلتنا إليه، لأنها لا تريد موته.

كنت أريد مغادرة بغداد، والتوجه إلى بلاد فارس بأقصى سرعة، وكنت أخشى القيام بعلاج غير مضمون، يضعنا في موقف حرج. ولكنني لم استطع ترك شخص يمكنني إنقاذه، ولم أستطع تجاهل الدموع والحزن الذي أراه في عيون الجميع هنا.

كان برفقتنا رجل فرنسي يسمى أوتري، يقم في بغداد منذ فترة طويلة، وكان يمتهن الطب، ويعمل في التجارة في آن واحد. وقد رافقنا إلى الكهية بصفته مترجم، فطلبنا من الباشا أن يضمه إلينا، ليسهل حصولنا على طلبنا بكل سرور، واقترحنا عليه أن يستدعي الطبيبان اللذان عالجاه، ولكنه لم يكن يريد رؤيتهما أو سماع شيء عنهما، حيث إنه فقد كل ثقته بهما بعد أن أخذنا منه وعدًا بعدم تناول أي أدوية غير التي وصفناها له، وألا يتناول أي طعام سوى الذي تعده الحريم في منزلهم الخاص.

تركنا الباشا وكلنا أمل في تحسن صحته، بفضل أدويتنا، ولكن عند مقابلتنا الكهية لم نخبره

بذلك، بل اكتفينا بتأييد ما أقره الطبيبان الآخران، وأبدينا أملنا في شفائه.

ذهبنا للباشا في اليوم التالي، ولاحظنا تحسن حالته، ويبدو أن الأمل الذي أعطيناه إياه كان له تأثير أكبر من الأدوية، ويبدو أيضًا أن انقطاعه عن المخدرات التي كان يتناولها باستمرار، كان يكفي لإراحة جسده، إلى جانب الأكل الخفيف، والأكثر ملاءمة لحالته، والشراب المسهل، وكذلك الأدوية التي كنا نستبدلها حسب قبول حالته، جعلت الفم رطب، واختفى انتفاخ البطن، وسكنت الحمى، وساعدته على النوم، فاستعاد صحته وشهيته، وفي هذا الوقت أعلنا أنه اقترب من الشفاء، وبالفعل بعد عشرة أيام فقط ركب فرسه، وأظهر نفسه للشعب الذي كان يطالب برؤيته.

بعد يومين من ظهور الباشا للناس، ذهبنا للاطمئنان عليه في الصباح، وبرفقتنا كالعادة المواطن أوتري، وكان حينها برفقة الكهية، ورئيس الديوان، وقد كانا بعيدين عنه كثيرًا، وفي وضع احترام كبير، أي راكعين.

جلست أنا وبروكيير على قرميد وضع لنا بجوار الباشا، فأشار الباشا إلى الكهية ورئيس الديوان للاقتراب منه، فاقتربا، ثم اتخذا نفس الوضعية السابقة.

وجدنا الباشا في أحسن حال، ويبدو أنه نام جيدًا، ونبضه ممتاز، وشهيته جيدة جدًا، وقال إنه يشعر براحة كبيرة، وشكرنا على معالجتنا له، وعدنا بأنها سيبقى مدينًا لنا بحياته، وأضاف الكهية مديحًا لنا على مديح الباشا، وأخبرنا أن الشعب كله وخاصة هو مدينون لنا بشفاء سيدهم السريع. ثم تحدثنا عن مواضيع أخرى أقل أهمية.

خرجنا من عند الباشا، وذهب المواطن أوتري إلى بيت الحريم، حيث كان عليه أن يوصيهم بالطعام لمريضه، كما يفعل كل يوم. أما نحن فقد انتظرنا في منزل المواطن أوتري لنستمتع قليلاً بالجو المنعش لمنزله الواقع على نهر دجلة، وذلك طيلة الصباح.

أرسلنا خيولنا إلى المواطن روسو مع خادمنا، آملين أن نواصل فيما بعد على أقدامنا. لم يمضِ على دخولنا منزل السيد أوتري سوى ست دقائق، حتى رأيناه مقبل علينا، وقد بدا عليه الانفعال، وأخبرنا بصعوبة بأن الكهية قد قتل بأمر من الباشا.

فاندهشنا كثيرًا لأننا كنا مقتنعين كباقي الأهالي، أن ما يجمعهما سويًا علاقة حميمية، كما أننا تركناهما سويًا منذ قليل في منتهى التفاهم والهدوء، فكيف أمر الباشا بقتل الكهية وتحت ناظريه. وازداد الأمر غموضًا عندما أخبرنا أوتري أن الباشا لم يظهر أي انفعال أو حزن أثناء قتل الكهية.

وبعد أن استعاد أوتري هدوءه قص علينا ما رآه بالضبط، فقد كان حاضرًا أثناء هذه الواقعة، فقال لنا:

(لقد كنت عائدًا من دار الحريم، وبينما كنت أجتاز الفناء الكبير الذي يضم ديوان الباشا، انجذب انتباهي إلى مجموعة رجال مسلحين أسفل الدرج المفتوح المؤدي إلى الديوان، وعندما اقتربت رأيت الخازندار، خارجًا من وسط الغرفة وبيده خنجرًا، ورأيت الكهية ممدًا على الأرض ومضرجًا بالدماء، وتملكني الرعب أكثر عندما رأيت الجماعة الذين كانوا يخافونه بمجرد نظرة واحدة منه، يجردونه من ملابسه، ولا يتركوا عليه سوى القميص واللباس، وسحبوه من قدميه

حتى الفناء الأول للقصر، وتركوه في العراء من النهار.

وعندما حاولت معرفة السبب وراء هذا الحادث، لم يجيبوني بجواب مقنع، وأخبروني أن الخازندار طعن الكهية من الخلف بأول طعنة في أسفل الدرج، وعندما شعر الكهية بهذه الطعنة رفع يديه نحو الباشا، وقال: (أمان، أمان أفندي، أي الرحمة، الرحمة سيدي،....).

وعندما هرولت مسرعًا للخروج واللحاق بكم، ورأيت أبواب القصر التي لم تكن لتفتح لو بلغتها قبل أربع دقائق على ما أظن، وبمجرد خروجي من تلك الأبواب المفتوحة على مصراعيها دخل الأهالي وظلوا طوال النهار في الفناء الأولي للقصر، ينظرون إلى جثة الكهية.

انتشر خبر مقتل الكهية في جميع أنحاء المدينة، عقب وقوعه مباشرة، وأشيع أيضًا موت الباشا.

وعندما علم المواطن روسو بهذين الخبرين قبل وصول خادمنا أصبح قلقًا علينا كثيرًا، وظن أننا ما زلنا في قصر الباشا، فارتبك كثيرًا وأرسل إلينا حارسه ليقودنا إليه إن كان يستطيع، أو إخباره بأحوالنا بسرعة.

وزال هذا التوتر وارتاح صدره عندما علم أننا عند المواطن أوتري، ولكنه لم يكن يعرف ما الذي حدث بالضبط، لأنه سمع من بعضهم خبر موت الباشا، وسمع من آخرين أن الكهية هو وحده من مات.

وطلب منا أن نذهب إليه لأننا في جميع الأحوال سنكون في أمان أكثر.

وفي طريقنا إلى منزل المواطن روسو، رأينا جميع الدكاكين مغلقة، ولاحظنا قلقًا وتوترًا في وجوه الأهالي، وصادفنا الكثير من المسلحين الذين يسيرون بسرعة غير معتادة في بلاد الدولة العثمانية.

ولم يبق الوضع هكذا كثيرًا، فقد أمر سليمان باشا حرس الأغا، أن يركبوا جيادهم ويطوفوا في الشوارع الرئيسية، ويخبروا الأهالي بأن الباشا على ما يرام، وأن الكهية هو الوحيد الذي مات، وأن الباشا أمرهم بإعدام كل من يغلق دكانه أو من لا ينصرف إلى أعماله.

انتشرت عدة قوات من الانكشارية للقيام بنفس الغرض في جميع أحياء المدينة. وعاد وضع المدينة كما كان، ولم يعد هذا الحادث سوى حادثة إعدام عادية استحقها الكهية على سوء سلوكه.

كان الجميع متعجب، ويتساءلون عن أسباب موته، فرغم أنهم يعلمون طبعه السيئ، إلا أنهم لا يعرفون ما الذي دفع الباشا لقتله، وهو الذي يثق به، ويعتبره بمثابة ابنه، فكيف انقلب الوضع فجأة هكذا من الحب إلى القتل. لقد كان الآمر محيرًا فعلاً.

وفي نفس اليوم عرفنا الأسباب الحقيقة من خلال ضباط الحامية المتقدمين، حيث قالوا: (قبل عدة أيام، استلم الباشا فرمان من الباب العالي لتثبيته في الولاية لمدة سنة أخرى، كما يحدث في الدولة العثمانية كلها، وكان التتري الذي أتاه بالفرمان يحمل رسائل أخرى لا يجوز تسليمها سوى للباشا فقط).

وكانت هذه الرسائل من قبل رجل الأعمال الذي عينه الباشا في العاصمة، وداخل هذه الرزمة كان يوجد الرسائل التي كان الكهية يرسلها للباب العالي طالبا فيها أن يأخذ مكان الباشا في

الحكم، وليدعم طلبه كان يرسل معها شرحًا بالخدمات الكبيرة التي قدمها للباب العالي منذ زمن طويل، ويتحدث عن مواهبه وقدراته بفخر، وقال إنه تمكن من زيادة واردات الباشوية بشكل ملحوظ بفضل إدارته الجيدة، وأنه كان يقدم مبالغ محترمة، وإلى جانب هذا المدح في إدارته وقدراته، بدأ يصف عدم قدرة سليمان باشا على إدارة الباشوية بعد إصابته بمرض نفسي، وأن الأطباء أقروا أن أجله سينتهي قريبًا.

عندما اضطلع الباشا على هذه الرسائل، ووجد أن الكهية يقابل إحسانه بنكران وإساءة قرر معاقبته بالموت، وكان له كل الحق في ذلك لأنه وزير، وكان الكهية يستحق الموت لارتكابه خيانة من أبشع الأنواع، ولم يكن تنفيذ هذه المهمة بالأمر السهل، بما أن الكهية ذو مكانة كبيرة، فكان لابد من اللجوء إلى خدعة لاغتيال هذا الخائن، فلم يكن من السهل إحضاره إلى منصة الإعدام، لذا قام الباشا بتكليف الخازندار أو أمين صندوقه بإجراء إعدام لا تقره التقاليد الأوربية، ووعده بإعطائه ابنته، إلى جانب الطوغين اللذين يحملهما أحمد أغا، وكانت هذه الطريقة متبعة في تركيا (الدولة العثمانية) ولضمان نجاح العملية، أشرك حرس الباشا فيها، وهم أشد الناس إخلاصًا لسليمان باشا.

وهذه كانت نهاية هذا الإنسان الطماع والخائن، وبعد موته عثر لديه على مليون سكة، أراد استخدامها في معاونته على انتزاع السلطة من الباشا.

في اليوم التالي من الحادثة ذهبنا إلى قصر الباشا، ووجدناه هادئًا جدًا وفي أحسن حال، وأخبرناه أننا ننوي السفر في الصباح التالي، فقال إنه مستعد لإعطائنا كل ما لديه من كنوز، وشكرنا مرة أخرى قائلاً: إنه مدين لنا بحياته، وأنه لا يستطيع التعبير عن مدى عرفانه بالجميل.

فقلنا له: تكفينا المعاملة الحسنة التي نحظى بها من قبل حكومتنا، وأننا نلنا مكافأتنا عندما تمكنا من إشاعة الرضى، وحفظ حياة شخص مهم جدًا لكل الناس الطيبين.

وفي اليوم التالي أي يوم سفرنا، أرسل لنا جوادين وشالين من الكشمير، وألفي قرش، ولم يكن من اللائق رفض هذه الهدايا.

ولكن المكافأة الحقيقية التي نلناها هي تلك الرسائل التي كتبها سليمان باشا إلى خان كرمنشاه، وإلى الوزراء وموظفي ملك فارس الرئيسيين، فقد كان من المستحيل استكمال رحلتنا بدون هذه الرسائل. وقبل مغادرة بغداد والتوجه إلى فارس، ألقينا نظرة خاطفة على بلاد ما بين النهرين، ولاحظنا كل ما فيها من تنوع، وفي التالي سنصف لكم أطراف بغداد التي لم نشاهدها جيدًا، ولكننا شاهدناها بعد عودتنا من بلاد فارس، حتى لا نقطع ما يجب أن نقوله عن هذه المنطقة المهمة، وسوف ننهي شرحنا هذا بموجز بسيط عن التجارة الحالية لبغداد والبصرة مع داخل الإمبراطورية العثمانية وجزيرة العرب وبلاد فارس والهند.

الفصل السادس

محتويات هذا الفصل:

نظرة خاطفة بشأن بلاد ما بين النهرين، تقسيمها الجغرافي، مناخها، منتجاتها، تاريخها الطبيعي.

عند النظر إلى ضفاف نهري دجلة والفرات، والمنطقة الواقعة بينهما، بدءًا من منبعيهما، وحتى التقائهما سويًا في القرنة، والمكان الذي يصبان به مياههما في الخليج، نلاحظ أن هناك القليل من البلدان في العالم التي تستحق أن تجذب انتباه الجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة ورجال الدولة.

فهذه البلاد أكثر البلاد شهرة، فلا يوجد أشهر منها، ولا يوجد ما يفوقها في التعرض للحروب، ولا في تعاقب أهاليها الكبير، فقد مر عليها الكثير من: الآشوريين، والميديين، البابليين، الأرمن، الفرس، الإغريق، الفرثيين، الرومان، العرب، الصليبيين، والأتراك.

فجميع هؤلاء الأقوام توافدوا على هذه البلاد الغنية والخصبة، فمنهم من دمرها، ومنهم من أعاد بناءها، ومنهم من عمل على ازدهار فنونها، أو تراجع تجارتها، ومنهم من وسع نشاطها التجاري، أو أغلق أمامها جميع الطرقات.

وحتى لا نخرج عن موضوعنا، فلن نذكر هذه المواضيع؛ بل سنركز اهتمامنا على موقعها الطبيعي والجغرافي والمناخي، والتاريخي الطبيعي، أو المواضيع التي نجد أنها تستحق الذكر، ولو في موجز صغير.

إن بلاد ما بين النهرين، يقصد بها المنطقة الممتدة بين الرافدين أي (دجلة والفرات) من الشمال الغربي، وحتى الجنوب الشرقي، على طول مائتي فرسخ، ويوجد بها تنوع كبير.

أما العرض فهو أقل امتداد من الطول، ويبدو أنه يمكن تقسيمها إلى أربع مناطق متميزة بوضوح، من نواحي كثيرة مثل ارتفاع سطح الأرض، أو طبيعة الأراضي، أو المحاصيل الزراعية والمناخ.

المنطقة الأولى: تقع هذه المنطقة إلى الشمال، وتمتد من منابع نهري دجلة والفرات، وتقع على ٣٩ درجة طولاً، و٢٠.٣٧ دقيقة تقريبًا، فنجد أن مدينة سميساط تقع على الفرات، بينما تقع مدينة سيفيريك تحت أقدام جبل طوروس، وتقع مدينة ماردين على جبل مازيوس، أما الجزيرة فتقع على نهر دجلة.

وقد كانت هذه المنطقة في الماضي تشكل جزءًا من أرمينيا الكبرى، وكان اسمها (سوفينا)، والمدينة الوحيدة الموجودة حاليًا بخلاف ما ذكرناهم هي ديار بكر، وهي مقر الباشا أو الوالي من المرتبة الأولى.

هذه المنطقة عبارة عن مرتفع جلبي شديد الخصوبة، وتكثر به الينابيع المائية، الشتاء بها بارد، وتهطل به الثلوج، أما الأمطار فتكثر بدءًا من شهر (فندمير) وحتى أواخر شهر (فلوريال).

وقمم الجبال مغطاة بالثلوج طوال أيام العام، أما فصل الصيف، فيكون جاف ولطيف في المرتفعات، أما في السهول والوديان فيكون حار.

وتنتشر المراعي الرائعة في هذه المنطقة، ويوجد بها أيضًا الكثير من حقول الحبوب والثمار، وتزرع فيها أشجار التوت والكروم.

وتقوم بتصدير الحرير، والكثير من العفص والصمغ وشعر الماعز والصوف والعسل والشمع والقليل من القطن.

أما الجبال فتنتشر بها غابات السنديان والصنوبر والسرو والقبقب والمران والكستناء والبطم، ويقوموا بصناعة زيت الطعام من حبوب السمسم، ويستخرجوا زيت الوقود من حبوب الخروع.

ويوجد أيضًا في هذه المنطقة عدة مناجم قصدير غنية تنافس في غناها المناجم الواقعة في أطراف أرضروم وطربزون، كما يوجد بها بعض مناجم الزرنيخ والكبريت.

وقد سمعت أنه يوجد مناجم فضة ورصاص وذهب بالقرب من كيبان وارجانا، وهم يستثمرون هذه المواد ويرسلونها إلى القسطنطينية. ويوجد أيضًا بهذه المنطقة عدد من البراكين الخامدة.

يقيم في مدن وضواحي وقرى هذه المنطقة أتراك وأرمن وأكراد، ويعملون في الزراعة والتجارة، ويصنعون بعض الأقمشة المراكشية، ويقومون أيضًا بحياكة بعض الأقمشة الصوفية والقطنية، ويستثمرون المناجم، ويصنعون بعض الأدوات النحاسية.

أما الأكراد فلا يعملون في الزراعة، وفي معظم أوقات العام يتركوا قراهم، ويتنقلوا مع نسائهم وأطفالهم وقطعانهم إلى الأماكن الأكثر اعتدالاً في بلاد ما بين النهرين وكردستان، ليقوموا برعي قطعانهم في المراعي الخصبة.

وفي فصل الصيف ينتقلون إلى جبال أرمينيا وأذربيجان وفارس، حيث إن انصهار الجليد وبرودة المناخ هناك يحافظان على خضرة المراعي في هذا الفصل.

ويتبع الأكراد الدين الإسلامي... ولهم بعض العادات التي ورثوها من أسلافهم... ولا يختلطون بالأتراك كثيرًا، ولا يسمحون لهم أيضًا بالتوغل في جبالهم قدر الإمكان، ويمنعونهم بشكل خاص من الإقامة في قراهم.

كما أنهم ينتهزون أي فرصة لمخالفة الرسوم التي يفرضها عليهم الباب العالي. إن انعزال الأكراد، وحذرهم وحقدهم الذي يكنونه لأسيادهم هؤلاء، جعلهم يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، إلى جانب الحرية التي يقدرونها كثيرًا، وهذا على خلاف أسلافهم الكرد.

أما من جهة مظهرهم العام، فتجد أنهم أضخم وأقوى من العرب، كما أنهم أشد بياضًا، وأكمل بنيانًا منهم.

أما نساءهم فيبدو أنهن فارعات، وذوات وجوه شديدة البياض، عيونهن سوداء أو زرقاء، ولهن أنوف بارزة، ورأسهن بيضاوي، وصدورهن كبيرة ومنتصبة.

ولا تتحجب النساء عند خروجها من المنازل أو الخيام، ويتحركن داخل منازلهن بكل حرية.

يوجد للأكراد في باشاوية ديار بكر ثمانية سناجق أو قطعان عسكرية، ولكل سنجق بك أو رئيس قاطع، وجميعهم يتلقون أوامرهم من قبل باشا ديار بكر، وهذه السناجق هي:

سكمان، كليب، ميحراني، ترجيل، أتاك، بيتريك، جيا باكشور، شيرمك.

وأسلحة هؤلاء الأكراد هي الحراب مثل العرب، وأحيانًا يحملون رمح طويل، وجميعهم يمتلكون رمحًا أو خنجرًا، ويستخدمون ترسًا طوله قدم ونصف، وعرضه قدم أو خمس عشرة بوصة. أما من لا يستطيع شراء حصان، فيتسلح بهراوة وخنجر، وجميعهم يستعملون التروس.

ومن خلال المعلومات التي حصلنا عليها من الأشخاص المثقفين في القسطنطينية والتجار الذين يتجولون في جميع أنحاء كردستان وأرمينيا العليا، وآخرين من ماردين والموصل، وبغداد ممن لهم علاقة تجارية مباشرة مع الأكراد، توصلنا بالإجماع على أن عدد الأكراد في باشوية بغداد، والموصل، وديار بكر، ووان، وأرضروم، وقارص يبلغ مليون نسمة تقريبًا، ولكننا أيضًا لم نتمكن من تقدير عدد من يسكن منهم بين همذان، وكرمنشاه، أو في سلطانية وتبريز.

ويبدوا واضحًا أن هؤلاء الأكراد هم أنفسهم أحفاد الكرد الذين ذكرهم المؤرخ كزينيفون عند انسحاب العشرة آلاف، حيث لاحظنا مدى تشابه الاسم وتطابق العادات والتقاليد، مما جعلنا متأكدين من ذلك.

المنطقة الثانية: تمتد هذه المنطقة بين درجة ٣٧ والدقيقة ٢٠ تقريبًا إلى درجة ٣٥.

ويدخل ضمنها مدن بيرتا، وأورفا، ورأس العين، ونصيبين، والموصل، وجبل سنجار، ومدن ضواحي رأس العين، وكل حوض نهري الخابور والحاولي، حتى أطراف فرقيسيا.

وقد أشار القدامى أن هذه البلدان هي بلاد ما بين النهرين الأصلية، وكانوا يقسمونها إلى ولايتين؛ الرها (أو سرهوني) نحو الغرب، و(مقدونية) نحو الشرق.

وهذه المنطقة اقل ارتفاعًا من المنطقة الأولى، حيث إن كلها تقع في سهل، ولا يوجد بها سوى بعض الجبال الصغيرة النادرة في أطراف أورفا ورأس العين، إلى جانب جبال سنجار التي تعتبر معزولة تمامًا.

وقد لاحظنا في الجزء الذي قطعناه من بيرتا (بيرجيك) إلى الموصل وجود آثار براكين خامدة في كل مكان.

ومن خلال المعلومات التي حصلنا عليها يمكننا القول بأن سنجار أيضًا كانت بركانًا في العصور القديمة.

إن هذه المنطقة أكثر خصوبة، وأغنى وأوفر إنتاجًا من المنطقة الأولى، ولكن الزراعة بها أقل بكثير، وتمتاز بمناخ جيد جدًا في الشتاء، وعادة ما يكون الجليد بها قليل، وفي الجزء الأول منها القريب من المنطقة الأولى.

أما في فصل الصيف فتكون الحرارة مرتفعة جدًا، وتبقى على هذا الحال حتى منتصف فصل الخريف، ويكثر في أواخر الشتاء، وأوائل الربيع، ويقل المطر في الخريف. الصيف هنا شديد الجفاف، والأرض تجف بسرعة كبيرة.

وإن توفر لهذه المنطقة وسائل الري المختلفة مثل الأمطار وغيرها، فما كان لها أن تتنازل عن نفسها لأي بلد أخرى، مما ستراه من وفرة محاصيلها وتنوعها.

وقد نرى تأثير الأمطار في الربيع، فنجد الشعير والحنطة مرتفعين كثيرًا، وينتجان ثلاثين أو أربعين لكل حبة مزروعة في الأرض.

وحاليًا نرى المراعي وفيرة للغاية، والقطعان كثيرة، ويقوم الأهالي بزراعة الحبوب والبقول بجميع أنواعها، والقليل من الأرز والكثير من السمسم، ويزرعون كميات كبيرة من القطن.

وتنمو في هذه المنطقة أشجار التوت والزيتون والكروم بشكل جيد، ولكن بكميات قليلة، ويتغذى عليها النحل، حيث يجدها طيبة، فيعطي عسلاً ممتازًا.

وينمو بها أيضًا البرتقال والليمون والحمضيات بشكل مميز، وكذلك الخوج والمشمش، واللوز والتين، والرمان، والأجاص، والزعرور، والكمثرى اليانعة.

وهناك الكثير من المنتجات، ولكنها أقل أهمية، لذا سنكتفي بذكر المنتجات السابقة.

إذا قام الحكام بتشجيع الزراعة والتجارة هنا، وشعر الأهالي بالاستقرار، وضمان أمنهم وأمن ملكياتهم الخاصة، فسوف تصبح هذه المنطقة مأهولة أكثر بالسكان، وأكثر غنى في وقت قصير، حيث إنها من أكثر الأماكن في العالم التي تتمتع بمناخ صحي وتربة شديدة الخصوبة وأكثر إنتاجًا.

ولكن هذه المنطقة كما ذكرت سابقًا، معرضة للنهب من قبل عصابات أكراد، ومن قبل عصابات بدوية من جهة أخرى، لذا فإن سكانها الذين كانوا كثيرون في الماضي أصبحوا الآن قليلين جدًا، حيث إنهم رحلوا إلى أماكن كثيرة، لأنهم لم يستطيعوا حماية أنفسهم من تلك العصابات المتنقلة والمحاربة نتيجة لقلة عددهم.

وهكذا لم يكن أمامهم سوى أن يتركوا حقولهم ومنازلهم، ويتجهوا إلى أماكن أخرى يشعرون فيها بالاطمئنان الذي لم ينعموا به في أماكنهم الأصلية.

المنطقة الثالثة: تمتد هذه المنطقة حتى ٣٣ درجة و ٤٠ دقيقة، أي أنها تنتهي شمال بغداد ببضعة فراسخ.

وقد اعتبرها القدامى بلاد العرب، حيث لاحظوا أن نوعية أراضيها هي نفسها نوعية أراضي شمال شرقي جزيرة العرب.

وأراضي هذه المنطقة سهلية كلها، ولا تصلح للزراعة مطلقًا، سوى في الأودية التي يخترقها دجلة والفرات، فتشكل مزرعة كثيفة من الليمون، وغير ذلك لا ترى في هذه الصحراء سوى أراضي صفراء وبيضاء، مشبعة بالملوحة، وبأملاح البحر أيضًا.

وينتشر الكلس في جميع أنحائها، على عمق قدم أو قدمين، ويوجد بها أيضًا بعض القار، الذي نراه يسيل في أماكن مختلفة من سطح الأرض.

يتجمد الجو قليلاً في الشتاء، ونادرًا ما يهطل المطر، أما الصيف هناك فيكون جاف جدًا، وشديد الحرارة.

وبسبب هذه الحرارة نجد جميع النباتات تجف بدءًا من منتصف الربيع، ولم أر العديد من غرسات كبيرة الحجم أو شجيرات مثل الحرض، والقلى، والشوك الأحمر التي تحتفظ بنضارتها حتى منتصف الصيف.

ويوجد بها كميات كبيرة أيضًا من الشيح النفاذ الرائحة، والسنطيات الصغيرة، ويمكن للنخيل الذي يزرع هنا على ضفاف الأنهار أن ينضج ثمرة.

وقد ذكر (كزينيفون) في تقديره، أنه خلال كورش رأت العساكر هنا حميرًا وحشية ونعامًا، وهذا يدل على أن هذه المنطقة من بلاد ما بين النهرين كانت حينها ضئيلة السكان، وما زال النعام كثيرًا هنا حتى يومنا هذا، ويقال إن الحمار الوحشي نادر هنا، ولم يره أحد مطلقًا.

ويبدو أنه قد لجأ إلى الجبال، وإلى الأماكن الخالية من السكان من بلاد فارس، ويراه البعض هناك أحيانًا، ويمكن رؤيته أيضًا في عمق جزيرة العرب.

إن سكان هذا الجزء من بلاد ما بين النهرين ينحصرون ضمن قريتين أو ثلاث تقع على دجلة، إلى جانب القليل من القبائل أصلها من جزيرة العرب، يقطعون هذه السهول في فصل الشتاء للبحث عن مرعى لقطعانهم، ولو لم يكن غزير الخضرة فإنه لذيذ للغاية.

وفي فصل الصيف يهبطون إلى الأنهر وذلك في الأماكن المرتفعة من المنطقة الثانية. ولا يوجد سكان على الضفة اليسرى من الفرات، بدءًا من قرقيسية، ولا يوجد أيضًا على الضفة اليمنى سوى هيت وعانة.

المنطقة الرابعة:

هذه هي آخر قسم من بلاد ما بين النهرين، وتبدأ بسبعة أو ثمانية فراسخ إلى الشمال الغربي من بغداد، وحتى بضعة فراسخ جنوب هيت، وتنتهي في منطقة التقاء النهرين، أي عند ٣٠ درجة و٥٠ دقيقة عرضًا.

وأرضها رسوبية، وسهلية بالكامل، وسوف تكون خصبة للغاية إذا سقيت، وبالإضافة إلى هذه الأراضي نجد الأراضي الواقعة شمال ويمين نهر شط العرب، بدءًا من القرنة وحتى الخليج، وجميع هذه الأراضي هي حصيلة ترسبات المياه، وهي شديدة الشبه بأراضي الصعيد في مصر.

ومن المحتمل أن يقع سور سميراميس ما بين المنطقتين الرابعة والثالث، نظرًا لأنه يفصل الأراضي المزروعة عن غيرها، ويقوم بحمايتها من هجمات البدو.

إن هذه المنطقة من بلاد مابين النهرين كانت تسمى بابل من قبل، وهي كثيرة الشبه بالدلتا في مصر، من حيث المناخ، وطبيعة الأراضي، وتنوع المنتجات.

ولكنها تختلف عنها كما ذكرنا سابقًا، حيث إنها أشد برودة في الشتاء، نتيجة لهبوب الرياح خلال بضعة أيام من الشمال والشمال الشرقي، وهو أيضًا أشد حرارة في فصل الصيف، لأنه أبعد من الدلتا عن البحر الأبيض المتوسط، الذي تهب من جهته الرياح الباردة.

أما أراضيها فهي أقل خصوبة من أراضي الدلتا لأنها لا تحصل على مقدار الطمي الذي تحصل عليه أراضي الدلتا من النهري (دجلة والفرات) ولذلك يجب ريها جيدًا حتى تعطي محصولاً جيدًا، ويجب أيضًا حمايتها من الفيضانات التي تجتاح هذه المنطقة فجأة وبكل قوة.

وقد اعتادت الشعوب التي أقامت في هذه المنطقة من قبل على هذا الأمر، ولذا نرى في كل الأنحاء بقايا قنوات قديمة، وفي بعض الأماكن نرى كتلاً ترابية تمتد لمسافة كبيرة في خط مستقيم، وتحيط بأراضي مستوية بشكل كامل.

وأعتقد أن معظم الأراضي كانت مقسمة مثل لوحة الشطرنج، فنجد أن لكل ملكية مربعة أو مثلثة، حافات مرتفعة، إما لحمايتها من الفيضانات، أو لتسهل دخول المياه لريها؛ حتى لا تؤذي

المزروعات القريبة.

كما هو معروف أن نهري دجلة والفرات ليس لهما فيضانات قياسية وثابتة مثل نهر النيل، وذلك لأن الأمطار التي تسقط على حدود فارس وتركيا، أو على الأماكن الأقل ارتفاعًا في كردستان وارمينيا والقسم الأعلى من بلاد ما بين النهرين، تمتزج على الفور بالمياه الناتجة من انصهار الجليد، وفي هذه الحالة يستقبل النهران كمية مياه لا تتمكن من احتوائها، وهكذا فإن الأماكن الأكثر انخفاضًا تتعرض للفيضان، وعندما تقل مياه المطار، أو يكون ذوبان الثلوج بطيئًا ومتعاقبًا، لا يتعرض هذان النهران للفيضان.

ونفس الأمر يحدث في فصلي الخريف والشتاء، فعندما تهطل الأمطار بغزارة وبطريقة فجائية في المنطقتين الأولى والثانية السابق ذكرهما، وفي كردستان السفلى، وعلى حدود فارس، يحدث فيضان في نهري دجلة والفرات، وتنتشر مياهها على أراضي المنطقة الرابعة، فينتج عن ذلك تلفًا كبيرًا أو قليلاً.

ولا تهطل الأمطار أبدًا في المنطقة الرابعة، بدءًا من شهر فلوريال، وحتى بروميير، وقليلاً ما تمطر عليها في باقي أشهر العام، وهكذا لا يمكن زراعة أي أراضي سوى الأراضي التي تروى من الأنهار فقط.

ولكن أهالي هذه المنطقة بكل تأكيد أكثر ذكاءً وأكثر تجارة من المصريين، ولذلك لم يتعرضوا إلى مجاعات كثيرة مثل المصريين، وذلك لأنهم لم يعتمدوا على الفيضانات في ري وزراعة أراضيهم، بل حاولوا إيجاد حلول أخرى، وتوصلوا إلى ريها كلما شعروا بالحاجة إلى ذلك.

ومن المثير للدهشة أن المصريين بكل وسائلهم وحجم بلدهم التي يشغلونها، إلا أن أراضيهم مقسمة إلى قناتين فقط، فكانوا يوصلون مياه النيل إلى الأراضي أثناء الحاجة بواسطة وسائل تقنية، أو يتركونها على حالها في وقت الفيضانات القوية، ورغم أنهم كانوا قادرين على تسهيل أمر انسياب المياه عندما ترتفع مياه النهر كثيرًا، إلا أنهم تعرضوا للمجاعة في الحالتين المتطرفتين لفيضان النيل.

وبالنظر إلى وضعهم هذا نستنتج أمر ليس في صالح معرفتهم بالزراعة والري، أو بشأن حكومتهم التي لم تحاول قط مساعدة الشعب أو توجيهه إلى الصواب، أو تتخذ الاحتياطات اللازمة للحماية من الجوع، مثل شراء حبوب من البلدان القريبة.

لقد كان البابليون معرضين لنفس الفيضانات مثل المصريين بالضبط، إلا أن الرياح الجنوبية أقل ضررًا في بلاد العرب مما هي في مصر، حيث إنه ليس عليها أن تقطع مسافة ارض واسعة وشديدة الحرارة كما هي في إفريقيا، وعلى الرغم من ذلك نجدها تسبب ضررًا كبيرًا لجميع النباتات، فتجعلها تنضج بسرعة أكبر، وتجعل الأرض تجف بشكل واضح، ويبقى تأثيرها عليها مثلما تؤثر علينا عندما تجعل الهواء أقل صلاحًا للتنفس.

وبسبب هذه الرياح، يفد إلى المنطقة أعداد كبيرة جدًا من الجراد، من عمق جزيرة العرب والأماكن الأكثر جنوبًا من فارس، ويقوم هذا الجراد بإحداث أضرار مزعجة جدًا، تشبه الأضرار التي يسببها البرد القارص في أوربا، وقد شهدت هذا مرتين.

من الصعب وصف منظر هذا الجراد وهو يملأ المكان بالكامل، من جميع الجهات، وعلى ارتفاع

كبير، بكميات لا تحصى، وتطير بهدوء وتناسق، أما صوتها فهو أشبه بسقوط الأمطار.

فتجد السماء مظلمة، وتحجب أشعة الشمس، وفي لحظات معدودة تجد هذا الجراد قد غطى جميع أوراق النباتات، ولحسن الحظ أنها لا تعيش كثيرًا، ويبدو أنها لا تهاجر إلا للتكاثر أو الموت، وفعلاً ففي اليوم التالي وجدناها أصبحت أزواجًا أزواجًا، وبعد بضعة أيام انتشرت جثثها في جميع أنحاء الحقول.

وقد علمت أن هذه الحشرة ليست جرادة، ولكنني أسميتها هكذا كما يسميها الأهالي هنا، واسمها الحقيقي هو (جندب).

وتختلف هذه الحشرة عن باقي الحشرات المتنقلة، فنجد أن جسمها كله اصفر اللون وجميل، أما أجنحته فهي غمدية منقطة ببقع وأشرطة داكنة، وهذه الأجنحة عبارة عن شرايين صفراء وغامقة، وشفافة أيضًا، ولون قاعدتها أصفر خفيف، وكذلك الطرف الخارجي الذي يختفي فجأة بينما ننظر إلى وسط الجناح.

ساقاها الخلفيتان صفراوان كباقي الجسم، أما نهاية صلبها فذو لون أسود جميل.

ويوجد في وسط الجراد خط أقل ارتفاعًا مما هو في حشرة الجندب المهاجر، ويوجد به أيضًا ثلاثة خطوط متقاطعة عميقة ومستقلة عن الخط المنقط القائم بالقرب من الطرف الداخلي.

ويداها صفراوان داكنان، ونلاحظ بروزًا حادًا شديد الوضوح فيما بين قاعدة الأطراف الأولى، ويبلغ طول هذا الجندب بدءًا من الرأس وحتى نهاية الأجنحة بوصتين ونصف أو بوصتين وثلاثة أرباع عادة.

وأحيانًا يكون لونه أحمر فاتح بدلاً من الأصفر، وهذه الحشرة تتواجد في مصر وفي بلاد العرب، وما بين النهرين، وفارس.

بعد رحيل الجراد عادة ما تظهر طيور الزرزور التي يعرفها علماء الطبيعة باسم (ميرلا – روزا)، تعيش في هندستان وأعماق أفريقيا، وجزيرة العرب في فصل الشتاء، بينما يعيش في فارس وأرمينيا وبلاد ما بين النهارين، وجميع أنحاء آسيا الصغرى تقريبًا في فصل الصيف، ونادرًا ما تظهر في اليونان وجزر الأرخبيل، وهذا الزرزور من الأجمل أنواع.

الرأس والرقبة، وريش الأجنحة والذيل بلون اسود جميل، مائل للأخضر الأرجواني، أما الصدر، والبطن، والظهر، والزمك فذوي لون وردي ذات منقار جميل، والرجلان صفراوان، ويختلف الذكر بوجود بكشة سوداء محمولة في الخلف.

ويبدو أن هذا الطائر يتعقب الجراد في رحلته، ليس فقط للتغذي عليه، وإنما ليقضي عليه أيضًا، لأنه يقتل منه أكثر مما يأكل، هذا الطائر يهاجم جميع الحشرات تقريبًا، ولذا تجده يحظى بتقدير كبير في بلاد الشرق نظرًا لفائدته، فلا يجرؤ أي شخص أن يقتله أو يؤذيه أمام المسلمين.

وهناك الكثير من القصص التي تكاد تكون خرافية بشأن هذا الموضع.

أظن أنه من الضروري الآن أن أقدم لكم وصفًا جيدًا للإنتاج الطبيعي، لعالم الحيوان والنبات للمناطق الأربعة الموجودة في بلاد ما بين النهرين.

ولكنني سأضع هذا الوصف في كتاب خاص، وسأكتفى هنا بموجز صغير عن أسد جزيرة العرب،

الذي يختلف كثيرًا عن أسد أفريقيا، وسأضيف أيضًا بعض المعلومات عن نمس بغداد، وسنتعرف سويًا على حرذونين وجدا في المنطقتين الأخيرتين.

أعتقد أن الأسد الذي يتواجد في بلاد العرب وفارس، بجوار نهر شط العرب، بدءًا من الخليج، وحتى أطراف الحلة وبغداد، من نفس فصيلة الأسد الذي تحدث عنه كل من أرسطو، وبليناس، وقد قالا إنه نوع آخر غير الأسد الذي ينتشر في أعماق أفريقيا.

وقد ذكر أرسطو في كتابه (تاريخ الحيوان) نوعين من الأسود:

النوع الأول أكثر استدارة والذؤابة أشد تجعدًا، كما أنه اقل شراسة.

أما النوع الثاني فله جسم طويل وذؤابة جميلة، وهو أكثر شجاعة من الأول.

ولا يمتلك أسد جزيرة العرب الشجاعة التي يمتلكها النوع الثاني، ولا شكله، ولا جماله، وعندما يقدم على اصطياد فريسته، يستخدم المكر والدهاء أكثر من القوة، فيختبئ في الجداول المحيطة بنهري دجلة والفرات، ويهاجم الحيوانات التي تأتي إليها لتنعش نفسها بالمياه، ولكنه لا يجرؤ على مهاجمة الخنزير البري الذي ينتشر هنا بكثرة، وبمجرد أن يصادف رجلاً أو امرأة أو حتى طفل يهرب بعيدًا.

أما إذا أمسك بخروف فيهرب لأكله بعيدًا، وإذا جرى وراءه بدوي يترك فريسته ويهرب مذعورًا، وعندما يحاول بعض الفرسان اصطياده، وهذا ما يحدث في بعض الأحيان، فلا يدافع عن نفسه، إلا إذا جرح، ولم يجد أمامه أي فرصة للنجاة بدون إظهار قوته، حتى أنه قد يكون قادرًا في هذا الوقت على تمزيق الصيادين إربًا إربًا.

وقد علمت أن أحمد باشا والي بغداد من سنة ١٧٢٤ إلى ١٧٤٧ كاد يتعرض لحادث كهذا، عندما انكسر رمحه في محاولة لصيد أحد الأسود، ولحسن حظه أنقذه مملوكه سليمان الذي تولى حكم الباشوية بعده.

وقد رأيت في حظيرة باشوية بغداد خمسة أسود من هذا النوع، وعلمت أنها وضعت في هذا المكان منذ خمس سنوات، أي أنها اصطيدت وهي صغيرة في أطراف الموصل، وهم ثلاثة ذكور وأنثيين، والذكور أضخم من الإناث، وهذه الأسود تشبه الأنواع الموجودة في أفريقيا إلا أنها أصغر حجمًا، وليس بها ذوائب.

وقد أكد لنا الأهالي أن أسود هذه المنطقة لا ذوائب لها، وقد ندمت كثيرًا لأنني لم أطلب من الباشا أسدين ذكر وأنثى لأقارنهم بدقة بالنوع الإفريقي، ولكني توصلت إلى أن أسد جزيرة العرب يجب أن يصنف كنوع آخر عن الموجود في أفريقيا، أو أنه أقل مستوى منه.

يوجد أيضًا في بساتين بغداد أحد أنواع النموس، وهي أكبر حجمًا من السنجاب، وكثير الشبه بالنمس المصري، ولكنه أصغر منه بخمس أو ست مرات، كما أنه أجمل وأكثر رقة، وألوانه ألطف، بل ومن السهل أن يألف الإنسان.

يطلق عليه الأهالي هنا (فارة التمر) أو (جرز النخيل) وذلك لأنه لا ينتشر بكثرة سوى ببساتين النخيل، وليس لأنه يعيش فوق أشجار النخيل أو يأكل ثمارها.

وخلال أربعة أو خمسة أشهر احتفظت بثلاثة نموس، وكنا نطعمها كما في مصر اللحم والسمك

والبيض، وهذه النموس تصبح حيوانات أليفة كالقطط تقريبًا، رغم أنها أكثر شراسة من القطط، وأكثر انفعالاً منها.

فرغم أنها توضع على اليدين والفخذين، وتسمح لنا بإمساكها، إلا أنها عندما تشعر بأي حركة لا تروقها، أو عندما يمسكها أحد بقوة وعنف، وتعضه بأسنانها وتصرخ صرختها الغاضبة الاعتيادية، وهذه النموس تصدر بعض الأصوات عندما تأكل مثل النموس المصرية، وهي أيضًا ذات حساسية شديدة تجاه البرد مثلها أيضًا، فتجدها في فصل الشتاء تختبئ في أسرتنا، أو تحت أفرشة دواوينا.

وقد لاحظت مدى اختلاف هذه النموس عن الموجودة في الهند، أو باقي الأنواع المذكورة في الكتب، وقد فقدنا ثلاثة منهم قبل رحيلنا بقليل، بخلاف هذه النموس صادفنا هنا بعض العظايا، بعضها أطول وأسمك من ذراع الرجل، تعيش هذه العظايا في الجحور التي تصنعها في الحقول مثل جحور الثعالب، وقد حصلنا على اثنتين منهم، ولكننا فقدناهما، ولم نفقد النماذج التي وضعناها في خوص النخيل، لأنها حفظت بشكل أفضل، ويوجد منها نوعان:

النوع الأول: نادرًا جدًا، ولم أصادف مثله إلا على الشجيرات في ضواحي بغداد، وهي ذات ألوان أسمر أو أصفر غامق، حراشف رأسه صغيرة وغير قاسية، أما حراشف الجسم فمعينية، وحراشف الظهر والذنب لها خط مرتفع ممتد على شكل زاوية حادة، وتنتهي ببروز واضح جدًا في الرقبة، أما حراشف البطن فملساء.

تتغذى هذه العظايا على الحشرات، وقد لاحظنا أنها خفيفة الحركة للغاية، وذلك لأنها ترجع إلى فصيلة الجراذين.

النوع الثاني: ينتشر هذا النوع في بلاد فارس وشمال جزيرة العرب، ويعيش هو الآخر في الجحور، وعند الحرارة المرتفعة يركض إلى السطح بسرعة، وعادة ما يكن في الصباح في حالة خمول حتى أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وهذه العظايا من فصيلة النوع الأول.

والنوع الثاني أسمر فاتح، بها بقع سمراء داكنة، رأسه وظهره مغطيان بحراشف مختلفة الأحجام، فنجد بعضها أكبر وأعلى، تشبه البثور الصغيرة، أما حراشف الذنب فيوجد بمنتصفها خط مرتفع، وحراشف البطن بسيطة ومعينية، وتنتهي ببروز خفيف.

وكلا النوعين لهما لسان ضخم وقصير ومستدير.

الفصل السابع

محتويات هذا الفصل:

وصف أطراف بغداد، آثار عقرقوف، طاق المدائن، بابل، الحلة، الكوفة، مشهد علي، مشهد الحسين، عرب وهابيون.

إن بغداد شأنها شأن جميع المدن الكبيرة في الإمبراطورية العثمانية، تحيطها أراضي جرداء، ونادرًا ما نرى بضع حدائق في جزئها العلوي أو السفلي، ويتم ريها بصعوبة من مياه نهر دجلة، وأعتقد أن الأمر سيكون أسهل إذا مدت لها ترعة من نهر ديالي، وهذا النهر يصب في دجلة على بعد ثلاثة فراسخ أسفل المدينة، ويمكن بواسطة القليل من المبالغ، إيصال جزء من هذه المياه حتى حافة الأسوار، وقد حدث ذلك في السابق، وبهذه الطريقة يمكن إخصاب الأراضي الواقعة شرقي النهر، حيث إنها ارض رسوبية لا تحتاج إلى كنف أو ماء لتكتسي بأغنى المحاصيل.

والأراضي الواقعة غرب بلاد ما بين النهرين ليست مزروعة بالكامل، وكلها تقريبًا مغمورة بأهوار وحلية، ينمو فيها الخيزران والقصب، ويبدو أن الأهالي هنا ليس لهم معرفة مطلقًا بالموارد الحقيقية التي يحتاجها الناس، فهم يعيشون في حاجة إلى أراضي خصبة وفي منطقة أوفر إنتاجًا من الهند التي تقطع منتجاتها مسافات كبيرة حتى تصل إلى هدفها.

يبدو أنه ليس هناك ما يستحق الذكر عن أطراف بغداد، وليس هناك شيء ذو فائدة أو يدعو للإعجاب، فلا يوجد بها أي منازل أو أماكن للتنزه أو الترويح عن النفس، وليس بها مواقع طيبة أو ذوات طابع خاص، فهي مجرد صحاري وقبور وأمور مملة وفراغ، وهذا هو كل ما يوجد حول مدينة بغداد.

وقد تحدثنا في السابق عن الضاحيتين الواقعتين شمال وشمال غرب بغداد بالقرب من دجلة، وهما موضعان للعبادة.

والآن سنتحدث عن الأطلال والآثار، حيث إن هذه الإمبراطورية تقدم لنا الآن في كل مكان ما يثير الدهشة ويفيدنا.

تقع هذه الآثار القديمة على بعد أربعة فراسخ غربي بغداد، يعرفه الكثيرون باسم برج نمرود أو برج بابل، أما الأهالي فيسمونه عقرقوف، وهو عبارة عن كتلة صلبة مربعة ومشيدة بالطابوق.

وقد تم تخريبها من الواجهة في موضعين، حتى يدخلوا إليها للتعرف على الهدف من تشييدها، أو للبحث عن الكنوز التي يعتقد البدو أنها مدفونة في جميع الأبنية القديمة.

وطراز هذا الأثر المعماري مختلف تمامًا عما نشاهده في أي مكان، ولذا سوف نذكر لكم بعض التفاصيل عنه:

لقد لاحظت أن الطوب اللبن المستخدم في هذا البناء غير موقد عليه بالنار؛ بل هو مجفف بواسطة الشمس فقط، وحجمه تقريبًا ثلاث عشرة بوصة لكل طوبة ذات شكل مربع، وسمكها بوصتين ونصف.

وقد تم رصفها بشكل مسطح، الواحدة فوق الأخرى، ويبنى بنفس الطين المصنوع منه، وتتشكل الطبقة ذات القدمين أو قدمين ونصف سمكًا من ثمانية أو عشرة خطوط.

أولاً يوضع الطوب اللبن وفوقه أربع أو خمس بوصات من التراب الخشن، وبعدها طبقة ذات بوصتين أو ثلاث مكونة من ثلاثة خطوط من القش أو القصب المتقاطع، وتعاد هذه الطريقة بالترتيب حتى نهاية البرج، والشيء الوحيد الذي لاحظته هو أن طبقات اللبن ليست متساوية دائمًا، فأحيانًا نرى سمكها يبلغ قدمين، وأحيانًا يبلغ ثلاثة أقدام، وقد وضعت على مسافات متقاربة فتحات مربعة، يقال إنها صنعت للتدفئة، أو لتسهيل صلابة هذه الكتلة التي يبدو بوضوح أنها غائرة إلى الداخل بحدة.

وتظهر طبقات القش البارزة خارج الطوب من بعيد، كما لو أنها محفوظة بشكل جيد، وقد تحملت آثار الزمن أكثر بكثير من أكثر أنواع الخشب صلابة، وأصبح لونها كالحناء، أما في المناطق المعرضة للهواء فقد أصبح لونها رمادي.

ومن الممكن سحب هذا القش، كما فعلنا في جدران طيسفون، وقد علمت أنها تعود إلى النبات الذي يتواجد بكثرة على ضفاف الرافدين وفي القنوات الصغيرة التي تتشكل منهما.

وأعتقد أن هذا المبنى الأثري لم يكن يومًا على ما هو عليه الآن، وذلك لأنه ينتهي بطبقة أرضية يفترض أنها تشكل سطحًا أعلى المبنى.

ومع ذلك فلا شك أن الرياح والأمطار قد قامت بتشويه القسم الأعلى حيث إن الأجزاء العليا التي لا يمكن للإنسان الوصول إليها كانت مشوهة بعض الشيء، وأعتقد أنها كانت ستكون أكثر تشوهًا لو لم تحفظها طبقات القش السابق ذكرها.

ويمكنني أن أستنتج أن هذا الجزء المشوه حتى المنتصف تقريبًا، لم تكن بين أي حضرة، سواء في الواجهة الجنوبية، أو الغربية، حيث إن طبقات الطوب اللبن والتراب الخشن مرتبة كما في الخارج، ولكن به الفتحات المربعة التي ذكرناها سابقًا، وفي الثلثين من الواجهة الشمالية العليا تشبه الباب، يبدو أنهم قاموا بفتحه عندما أرادوا ترميم هذه الأثر، وذلك لأن حواجزه الجدرانية مقطعة بشكل غير قياسي، وليس به أي حجر طابوق كامل.

وعلى بعد مائة متر من هذا الأثر باتجاه الوسط، نرى تلاً ترابيًا يصل ارتفاعه إلى بضعة أقدام، ومن أعلاه يمكن مشاهدة جدران ضخمة مشيدة من الطابوق المشوي، أعتقد أنها بقايا قصر أو معبد.

ورأينا أيضًا تلول أخرى أصغر حجمًا، يبدو أنها أيضًا بقايا أبنية أخرى، ومن ذلك نستنتج أن عقرقوف بالكامل عبارة عن مدينة أثرية، تنتشر بأرجائها بقايا المباني الأثرية.

أما عن الهدف من بناء هذا الأثر، فلا أعتقد أنه كان قصرًا، وكذلك لم يكن قلعة، ولكنني أعتقد أنه مناسب ليكون موقعًا للمشاهدة، أي أنه برج مراقبة.

وقد رأينا على أحد واجهاته آثار سلم يصعد به إلى القمة، وإن شاهدنا آثار بابل لتأكدنا أن هذا السلم استخدم لدخول المبنى، وفعلاً لقد اكتشفنا أن هذا الأثر مشيد على أرض مستوية، ويقع على بعد ستة فراسخ من نهر الفرات، وأربعة فراسخ من دجلة، ويبعد عن سميراميس بمسافة خمسة أو ستة فراسخ.

ويبلغ ارتفاعه مائة قدم وأكثر، ولكن لم يبقَ منه سوى سبعين قدم فقط، وهكذا من الممكن الاستفادة منه في تحذير البابليين عند اقتراب أعداؤهم، ونظرًا لعلوه الكبير يسهل للمرء

مشاهدة الأماكن البعيدة، وأن يرسل ما يشاهده من بعيد بفضل إشارات خاصة.

وعند التفكير بعمق نجد أنه لا يعقل أن يقوم البابليون ببناء كتلة ضخمة كهذه وإنفاق أموال طائلة عليها لمشاهدة الأعداء فقط، وإنما نعتقد أنهم مثل المصريين قد قاموا ببنائها لتكريم ذكرى أحد الملوك أو لحفظ رفاته، ولكنهم خوفًا من تأثير الرياح لم يقيموه على شكل هرمي مثل غيرهم، وحتى لا يذوب ويختفي تحت الأمطار بسبب المواد المستخدمة في بنائه، فقاموا ببنائه على شكل مربع، وهكذا يمكننا الاستنتاج أن تلك الارتفاعات والتل السابق ذكرهما ليسا سوى معابد أو بيوت للكهنة شيدت بجوار ذلك الأثر، كما فعل المصريون حول الأهرام.

إذا غادرنا بغداد الآن، واتبعنا الضفة اليسرى نزولاً، فإننا وبعد مسيرة ثلاث ساعات سنعبر نهر ديالى، وهذا النهر كبير بقدر نهر المارن، وبعد مسيرة ساعتين ونصف نصل إلى أطلال طيسفون، وهناك نرى أثرًا ضخمًا يسمى طاق كسرى، أو إيوان كسرى.

وقد ذكر وصف هذا الأثر في جريدة العلماء، وكذلك ذكر شكله في رحلة ايف.

لقد شيد طاق المدائن هذا من طابوق مشوي، ويقع على بعد ربع فرسخ من نهر دجلة، ونحو الشرق منه نجد واجهة مدينة أخرى، وقد علمت أن طيسفون نفسها لم تكن سوى ضاحية لها، وهي مدينة ساليق (سلوقية) التي ازدهرت كثيرًا في عهد اليونان، وقد أثر كثيرًا على بابل، حيث أصبحت سلوقية المدينة الأولى في المنطقة، واتخذها الملوك مقرًا لهم. وقد كانت هذه المدينة على بعد ثمانية عشر فرسخًا إلى الشمال والشمال الشرقي من مدينة بابل.

وللأسف لم نتمكن من زيارة أطلال هذه المدينة لأننا لم نستطع عبور النهر بسبب عدم توافر قوارب، ولكن الكثير من العرب الذين يعرفون هذه الأماكن جيدًا، أخبرونا أنهم ما زالوا يجدون فيها آثار مدينة عظيمة.

ففي كل من سلوقية وطيسفون توجد أطلال كثيرة، وأنقاض وبقايا مباني، حتى أن الأسوار ما زالت ظاهرة بوضوح، وهذه الأسوار مشيدة من الطوب اللبن المجفف في الشمس، ويطلق العرب على هذين المرتفعين المدائن أو المدينتين.

بابل:

والآن سوف أشرح لكم ما عرفته عن مدينة بابل، التي كانت في أحد الأيام أول مدن العالم، أو الأكثر شهرة.

إن بابل هذه كانت رهبة الإسرائيليين ونائبه الصوريين، ثم وقعت فريسة في أيدي الفرس واليونان، وتقع هذه المدينة على بعد عشرين فرسخًا من بغداد، والأرض التي قامت عليها بابل عند رؤيتها لأول مرة لا توحي بأنها كانت تحوي أشهر مدن العالم ولابد من التجول في جميع أرجائها لملاحظة التلول والمرتفعات، ولنلاحظ أنه قد تم تحريك الأرض في كل مكان تقريبًا، وذلك لأن البدو قاموا منذ اثني عشر قرنًا تقريبًا بحفر أراضيها لاستخراج الطابوق الذي استخدموه في بناء الكوفة، وبغداد، ومشهد علي t، ومشهد الحسين t، والحلة، وجميع المدن الواقعة في هذه المناطق تقريبًا.

وليس هذا فقط ما ساعد على اختفاء جميع آثار بابل؛ بل أيضًا بناؤها على أرض مستوية ترابية، وخالية تمامًا من الحجارة، كما أن الأخشاب بها نادرة بحيث كان السكان يلجأون دائمًا إلى

الترسبات التي يتركها الرافدان.

وصنعوا من هذه الترسبات لبنا وحرقوه بالشمس، فأصبح متينًا، ثم ربطوه بالقصب الذي توفر لديهم، كما استخدموا الطابوق المشوي لنفس الغرض، واستخدموا القار بدلاً من الجير لإقامة أبنيتهم.

وأعتقد أن المباني المقامة باللبن الغير مشوي، لا تترك بعد تهدمها سوى آثار بسيطة جدًا، لأن الأنقاض تمتزج بالأرض المحيطة بها.

وبالرغم من مرور الزمن وتأثير الناس، وقلة متانة المواد المستخدمة، إلا أننا ما زلنا نكتشف مباني عظيمة جدًا يهدمها الناس حتى أسسها، وهذه المباني من الطابوق المشوي.

أما أكثر الآثار التي جذبت انتباهي هي بقايا هيكل بعل الذي أمرت سميراميس ببنائه، وهذه البقايا عبارة عن تل كبير المساحة، على سطحه طبقة ترابية، يستخرج منه البدو طابوقًا ضخمًا مشويًا، ويجدوا كل طابوقة ملصقة بالأخرى بنفس القار الذي ذكرته، وبين كل طبقة من الطابوق طبقة دقيقة من القصب والقار.

هذا التل مربع الشكل، ومجموع قطره بالكامل ألف ومائة أو ألف ومائتان خطوة عادية، وقد اكتشف به فتحات مختلفة، ولكنها لم تكن نظيفة بالقدر الذي يجعلنا نكتشف الغرض من صنعها. ويقع هذا التل على بعد فرسخ واحد شمالي الحلة، وربع فرسخ من الضفة الشرقية لنهر الفرات.

وقد ذكر المؤرخ هيرودوتس أن معبد بعل كان مربعًا، ويمتد في كل اتجاه غلوتين، وفي وسطه برج سميك مساحته غلوة، وأعلى هذا البرج برج آخر، وهكذا على التوالي، حتى البرج الثامن.

ومن خلال تقرير هيرودوتس هذا نستنتج أن هذا المعبد، وأبراجه الشاهقة الارتفاع، ولذا قصة بلبلة الألسن، التي يعرف معناها كل من يقدر قيمة الأمور.

ويوجد بين هذا التل والنهر أنقاض كثيرة، وأسس متعددة لجدران قديمة، وتوجد هنا قطع الطابوق الكبيرة التي نقش عليها حروف مجهولة.

وقد وجدت من بينهم طابوقة مختلفة تمامًا عن الباقين، فقد كان عرضها لا يتجاوز البوصتين، وكانت محدبة من جهة، ومسطحة من جهة أخرى، وأكبر سمك لها بوصة واحدة، ويوجد بها سبعة خطوط حروف، وثمة فراغ بين الخطين الثالث والرابع، وقد لاحظت أن هذه الخطوط قد حفرت بعناية وجودة أكثر من باقي قطع الطابوق.

وقد رأيت خرائب غربي نهر الفرات، ويوجد بها قطع طابوق تحتوي على أحرف حاولنا أن نجد من بينها آثار قصر ملوك. ولم ننجح، وكذلك لم نستطع تتبع سور المدينة، ولم نجد له أي أثر في أي مكان في هذه الخرائب، وقد كان هذا السور حسب أقوال هيرودوتس مكونًا من خمسين بوصة سمكًا ومائة باب نحاس أحمر صلد.

تقع مدينة الحلة في الجزء الأكثر جنوبًا من خرائب بابل، على الضفة اليمنى من نهر الفرات، وتضم هذه المدينة ألف أو ألف ومائتي نسمة.

وقد شيدت هذه المدينة منذ ثلاثة أو أربعة قرون، حتى تستخدم كمستودع للبضائع التي تصل

بغداد، والتي تصعد الفرات أكثر مما تصعد دجلة، حيث أن مياه نهر الفرات أقل سرعة من مياه دجلة.

ولهذا السبب أصبحت مدينة الحلة مدينة مهمة جدًا، كما أنها تصل بين جميع بلاد ما بين النهرين عن طريق جسر قوارب، وقد وضع فيها باشا بغداد مسئول للجمارك وسنجق بك، ويقيم سنجق بك في القصر الواقع على حافة النهر.

ومساحة الحلة كبيرة جدًا، حيث إنها تضم العديد من البساتين المزروعة بالنخيل والليمون والحمضيات والرمان، ويحيطها سور يعتني به باشا بغداد جيدًا، أما طرقها فهي ضيقة وغير مبلطة مطلقًا. منازلها منخفضة، ومشيدة بطابوق عتيق مخلوط بالطين.

وأحيانًا يكسون هذا الحائط من الخارج والداخل بطبقة خفيفة من الجص، حتى تبدو أكثر نظافة وأجمل منظرًا.

وطبقًا لما ذكره المؤرخ نيبور أن مدينة الحلة تقع على الدرجة ٣٢ والدقيقة ٨٢ والثانية ٣٠ من مدينة بابل.

توجد أطلال كبيرة الأهمية على بعد فرسخين إلى الجنوب والجنوب الغربي من دجلة، ولكن لم يسمح لنا بزيارتها خوفًا من البدو.

ولكن طبقًا لما ذكره بوشامب في مذكراته السابق ذكرها، أن هذه الأطلال أشبه بجبل من الطابوق والتراب، وما زال منها صالة كبيرة قائمة، وبرج مربع ضخم، ويسمى هذا المكان بروس، ومن المحتمل أن يكون بورسيا القديمة، وهي نفسها المدينة التي ذكرها كل من يوسيفوس، وسترابون، وبطليموس، أما نيبور فيطلق على هذا المكان (نمبرود، بيرس).

لقد كانت مدينة الكوفة تقع على بعد تسع فراسخ جنوب الحلة، وهي عبارة عن مدينة عربية، ولكن لم يبق منها سوى بعض الأطلال.

وقد كانت هذه المدينة تقع على قناة مستمدة من نهر الفرات، في أراضي خصبة ومزدهرة، أما الآن فهذه القناة جافة ويابسة، ويطلق عليها البدو « كرى سعدة»، وهي نفسها المسماه البالاكوبا، التي يقول عنها المؤرخ أريان بأنها تتصل بهور كبير يمتد حتى نهر الفرات، وعلى الضفة اليمنى منه، أي جنوب مدينة بابل.

وكما هو معروف أن الخلفاء الراشدون الثلاثة الأوائل اتخذوا المدينة المنورة مقرًا لخلافتهم، أما الخليفة الأخير علي t فقد اتخذ الكوفة مقرًا له في آخر سنوات حياته، وكذلك فعل الحسن t الذي كان خلفًا لوالده علي.

وعندما جاء الأمويون من بعده نقلوا مقر الخلافة إلى الشام أو إحدى مدن سوريا.

وفي الكوفة تمت مبايعة أول الخلفاء العباسيين، ولكن الخليفة الثاني منهم أي المنصور، فقد ترك الكوفة بسبب ما ذكرناه سابقًا، وهكذا قام بتأسيس مدينة بغداد.

ونحن لا نعلم بالضبط ما هو التاريخ الذي خربت فيه مدينة الكوفة، ولكنني أعتقد أن ذلك لم يحدث إلا بعد استيلاء التتار على بغداد، وذلك لأن الكوفة قد ذكرت مرات عديدة في عهد العباسيين.

يقع مشهد علي رضي الله عنه على بعد فرسخين إلى الغرب والجنوب الغربي من أطلال مدينة الكوفة.

وهو عبارة عن مدينة كبيرة جدًا، وقد عمرت هذه المدينة حول المسجد الذي يفترض أنه يضم جثمان هذا الخليفة، وقد علمت أن المسجد قد بني تكريمًا له بعد وفاته بفترة طويلة.

ويقيم في هذه المدينة أشخاص عرب وغيرهم أيضًا، ولذلك نجد أن نصف سكانها من السنيين الذين يتبعون تعاليم الأئمة الأربعة أي أئمة المسلمين الأوائل، والنصف الآخر من شيعة علي رضي الله عنه، ونجد من بين النصف الأول بعض الأتراك المتمسكين بسيادة الدولة.

وفي كل عام يفد إلى مشهد على ما يقدر بخمسة آلاف أو ستة آلاف من العجم، وجميعهم تقريبًا يمرون ببغداد.

ويحصل باشا هذه المدينة على أربعة قروش كضريبة من كل حاج، وذلك مقابل أن يوفر لهم الحماية التي يحتاجونها.

إن مشهد علي ليست المدينة الوحيدة التي يقصدها الزوار للحج، فهناك أيضًا مشهد الحسين أو الإمام الحسين رضي الله عنه، ويوجد بهذه المدينة قبر الحسين ابن علي –رضي الله عنهما- الذي قتل عددًا كبيرًا من أقربائه وأصحابه في واقعة كربلاء.

ومن المعروف أن الحسين قد قصد مدينة الكوفة بعد وفاة معاوية، مع مائة وخمسين شخص وجميع آل بيته، وقد كان أنصاره ينتظرونه هناك، ولكن يزيد بن معاوية أرسل ستة آلاف شخص ليقابلوه ويقتلوه، وبالفعل لقد استشهد الحسين بعد أن حارب ودافع عن نفسه أمام هذا العدد الكبير من المقاتلين.

ودفن بالقرب من المكان الذي وقعت به المعركة، وأقيم له ضريح، ثم شيد مسجد عليه، وتكونت حوله المدينة المسماة مشهد الحسين.

وهذه المدينة أقل قيمة من مشهد علي، وتقع على بعد ستة أو سبعة فراسخ إلى الشمال الغربي من الحلة، وموقعها ممتاز جدًا، وتستمد مياهها من نهر الفرات عن طريق قناة مائية، وهكذا استطاع السكان زراعة الكثير من أشجار النخيل حول المدينة.

خلال تنقلنا هنا وهناك، سمعنا الكثير عن الوهابيين، وهم قبيلة عربية تشغل ما يزيد عن مائة فرسخ إلى الغرب من البصرة والخليج، وهذه القبيلة تجعل باشا بغداد يخشى إمام مسقط وشريف مكة، حيث إنها تستطيع جمع مائة ألف فارس بكل سهولة.

والمكان الرئيسي الذي يتواجد به الوهابيون هو نجد، وهي المقر الاعتيادي لشيخ قبيلتهم، ولهم أيضًا بعض القرى الريفية الموجودة في المناطق الشديدة الخصوبة.

ومعظم أفراد هذه القبيلة رحل، لا يتخذون أي مساكن للإقامة سوى الخيام، ويقوموا بتربية الخيول، والحمير، والجمال، والأغنام التي يرسلونها إلى بغداد والبصرة مع زبدها وجبنها وصوفها.

ويقومون أيضًا بزراعة الحنطة والشعير في أماكن متعددة، ويزرعون النخيل أيضًا، ويذهب بعضهم إلى الأراضي التي يغمرها نهري الفرات وشط العرب لزراعة الأرز.

الفصل الثامن

محتويات هذا الفصل

منتجات أطراف بغداد، مواد غذائية، وقود، حرف الأهالي، تجارة تركيا مع الهند وفارس عبر بغداد والبصرة والخليج، البحرين وسكانها.

إن منتجات أطراف بغداد والبصرة تقتصر بشكل رئيسي على الآتي: التمر، الأرز، الشعير، الحنطة، وجميع أنواع الحبوب. وتتوفر بها جميع أصناف الحمضيات بكثرة.

ولكنهم لا يزرعون البرتقال رغم أن زراعته ممكنة هناك، ولكنهم يكتفون بالليمون الحلو الذي ليس بطعم البرتقال ورائحته الذكية، والمشمش هناك من النوع الممتاز، والأجاص من النوع المتوسط، بينما الأعناب من النوع السيئ، وكذلك التين أيضًا.

وجميع هذه الأصناف تنجح زراعتها على الشواطئ القريبة الموجودة نحو الشمال الشرقي من بغداد، على بعد عشرة أو اثني عشر فرسخًا من دجلة.

وتتصف تمور البصرة بأنها أفضل من تمور مصر وبلاد المغرب، كما أنها أكثر تنوعًا، وقد ذكرنا في السابق أنه لتجميع وحفظ هذه الثمرة وتسهيل نقلها، يتم عصرها ويستخرج منها عصير حلو بطعم التمر العسلي، كما أنهم يستخرجون من التمر العادي أو الرخيص عَرَقًا أقل جودة من عرق العنب.

وأهالي هذه البلاد يعتبرون التمر غذاؤهم الأساسي، فهو رخيص جدًا، حيث إن الليرة الواحدة لا يبلغ ثمنها فلسًا، أما النوع المرغوب بكثرة فلا يصل ثمنه أكثر من فلسين أو ثلاثة.

وتزداد جودة التوت الأبيض والأسود في المناخ الحار واليابس لهذه المنطقة، ويمكن لدودة القز أن تتكاثر فيه أيضًا إن أحيطت ببعض الاهتمام.

وبخلاف ذلك فقد رأينا هناك بعض غرسات الخروب والعناب، ولاحظنا أن النبق جميل جدًا هناك، كما أنه ينتشر بكثرة في الباحات والحدائق، ويفضله أهالي بغداد كثيرًا.

ورغم أن مناخ هذه البلدان يصلح لنمو عدد كبير من البقول، إلا أنني أعتقد أن أشجار البلدان الأكثر حرارة لا تنمو هنا جيدًا، كما نرى في مصر، فرغم شدة الحرارة في الصيف، إلا أن الشتاء شديد البرودة.

ولذلك نجد بعض النباتات لا تنمو سوى في أقصى الجنوب، أي في أطراف الخليج التي لا يشعر المرء فيها بالبرد مطلقًا.

ونجد في الشرق من دجلة وشط العرب أنهم يزرعون القطن، والسمسم، والتبغ، وفوة الصباغين (النيل) بنجاح.

وقد عرفت زراعة النيلة في أطراف شوشتر منذ فترة قصيرة.

لا ينتشر ذبح الثيران كثيرًا عند الشرقيين لأنها أقل جودة من ثيران أوربا، كما أنهم يفضلون الاحتفاظ بها لاستخدامها في أعمال الزراعة مثل تحريك الآلات الإسقائية أي آلات الري.

ويقوم أهالي بابل بتربية الثور العادي، والجاموس والبقر الوحشي وهذه الحيوانات لا تنتشر بكثرة، أما البقر الوحشي فهو نادر جدًا.

وهنا لا يأكلون الجمال أيضًا، رغم أنهم يحبون لحمه كثيرًا، فنجد البدو ينحرون جملاً صغيرًا في الأعياد الكبيرة عند حدوث مناسبة غير عادية، ويأكلونه.

ولا نجد عند الجزار سوى الخروف ذي الذيل الطويل، فهو متوفر ولذيذ جدًا هنا.

وأثناء تواجدنا في بغداد كان ثمن الحقة الواحدة خمس بارات، أي أقل من فلسين لليرة، ويبيعه البدو، والأكراد، واليزيديين، ويباع الحمل أيضًا بنفس السعر، ويأكله الناس في سبعة أو ثمانية شهور تقريبًا.

وينتشر الخنزير البري بكثرة في هذه المناطق، ونراه طوال العام على ضفاف نهري دجلة والفرات، وينتشر أيضًا في جميع بلاد ما بين النهرين، ويعيش في الجبال التي تفصل بلاد فارس عن تركيا.

ورغم أن لحمه طري جدًا، إلا أنه لا يتوفر بالمجازر والأسواق، ولا يقبل الأرمن على تناوله إلا نادرًا وفي الخفاء، وقد احضر لنا البدو خنازير كبيرة الحجم عدة مرات مقابل قرشين أو ثلاثة.

أما الطيور فهي منتشرة في بغداد، خاصة في القرى الواقعة شرق نهر دجلة، ولديهم أيضًا الدجاج الكبير الحجم، ويباع بستة بارات، أما الحمام فيباع ببارة أو بارتين، ولا يشترى الدراج بأكثر من بارتين، وهذا الدراج هو أحد أنواع الحجول، ولكنه أكبر قليلاً من المتوفر لدينا في أوربا، وينتشر هذا الدراج بكثرة في شرقي دجلة، بدءًا من الموصل وحتى بغداد، ولكنه نادر في الأسواق.

أما عن الأرانب، فرغم أنها منتشرة بكثرة في البراري في جميع أنحاء كردستان، إلا أنها نادرة في الأسواق أيضًا، وسبب ندرة هذه الحيوانات أن المسلمين لا يأكلون ما يصطادونه.

وفي الشتاء نجد لديهم البط البري بكثرة، ويصطادونه بواسطة الباز، الذي يربونه خصيصًا لهذا الغرض.

وأيضًا الغزلان التي يصطادونها بواسطة الباز لا يأكلها سوى الفقراء، رغم إقرار الجميع بجودة لحمها.

وعادة ما يتناول العرب والأتراك مقدار قليل من الأسماك رغم توافرها بكميات كبيرة في كلا النهرين والخليج، طوال أيام العام، وذلك لأن بعض المسلمين في هذه البلاد يعظمون شكوكهم لدرجة أنهم لا يتناولون أي منتج حيواني ما عدا الضأن والدجاج.

هذا إلى جانب البقول مثل الحمص، والباقلاء، والفاصوليا، والخضروات، مثل اللفت، واللهانة، والحميض المتوفر بكثرة وبأنواع متعددة.

وجميع ما ذكرناه في مصر يتوفر في هذه البلاد، ويوجد بها أيضًا جميع أنواع البطيخ والرقي والقرع والباذنجان.

وفي فصل الربيع رأينا نوعًا من الكمأة يختلف تمامًا عن النوع الموجود في أوربا من حيث الطعم والشكل واللون، فهذه الكماة تميل في باطنها إلى اللون الأسمر، ولونها الخارجي غامق، كما أن نوعيتها أقل جودة، واقل رائحة، وهى أيضًا أكثر سهولة في الهضم من الأخرى.

ويزيد الإقبال على تناول هذا الغذاء خلال شهرين أو ثلاثة، وأعتقد أن الأهالي هنا لا يعرفون كيفية حفظ الكمأة لباقي أيام العام، كما يفعلون في أوربا.

ويستخرجون هذه الكمأة من جميع بلاد ما بين النهرين وأيضًا تتواجد شمال جزيرة العرب.

أما الكستناء فنادرًا ما يعرفه أهالي بغداد، ويحصلون عليها من بلاد الماديين وكردستان، ويحصلون أيضًا على الجوز والفواكه الأخرى والبلوط الحلو من أوربا، وعندما تذوقنا ذلك البلوط الحلو وجدناه أقل جودة من أسوأ أنواع الكستناء لدينا، لذا نجد أكثر الناس إقبالاً عليه هم الفقراء.

إن الأخشاب في بغداد أكثر ندرة مما هي في مصر، فتجدهم يحصلون على أخشاب النجارة من كردستان وحدود فارس، مثل خشب البلوط والساج والجوز والصنوبر، وجميع هذه الأشجار تنمو في تلك الجبال، وأحيانًا يستخدمون خشب التوت والنبق، أما الأخشاب التي يستخدمونها للتدفئة فهي من أشجار الطرفاء والصفصاف التي يقطعونها من على ضفاف الأنهر التي تصب في دجلة أو في الأراضي المغمورة بمياه الرافدين باستمرار، ويوقدون أيضًا خشب الحضض والحساسة التي تتواجد في البراري، ولكنهم عادة ما يلجأون إلى روث الحيوانات الأهلية، حيث يصنعون منه قوالب بخلطه مع العشب المسحوق أو التبن، وأحيانًا يطلونها بالقار.

ونادرًا ما يحتاج أهالي بغداد إلى التدفئة، ولكنهم عندما يشعرون بالبرد الشديد لا يجدون أمامهم سوى المنقل، حيث يضعون به الفحم المصنوع من خشب الطرفاء، ويقومون بإيقاده في فناء المنزل، ثم ينقلونه إلى وسط الغرف.

والأغنياء منهم يستخدمون الشمع والشحم والزيت للإضاءة، أما الفقراء فلا يستخدمون سوى القار الذي يسيل في أطراف كركوك.

يصنعون في بغداد أنواع العديد من الأقمشة مثل الأقمشة الحريرية، والقطنية المقلمة، وأقمشة من حرير خشن أو من مشاقة الحرير الآتية من كيلان، ويصنع منها الأعراب قمصانًا.

ويصنعون أيضًا أقمشة قطنية لينة وخشنة جدًا، ويطبعون عليها اشكالا قليلة اللمعان، يستعملها النساء والأطفال والفقراء.

ويقومون أيضًا بحياكة أقمشة غالية من قطن مطبوع للأفرشة والأغطية وغيرها، ويصدرون بعضها إلى جميع أنحاء كردستان.

أما أكثر ما يشغل الكثير من العاملين هي المربعات الطويلة، والحرير المخملي، والأقمشة المقلمة والمؤطرة التي تستخدم في صنع المخدات وفرش الأرائك والدواوين.

والكثير من هذه الأقمشة يمر عبر الموصل، وديار بكر، وحلب، والشام، وبخلاف ذلك فهم يصنعون أقمشة مراكشية لبيعها في المدينة.

والقليل من الأهالي يعملون في صياغة الذهب والفضة، ومنهم أيضًا من يصنعون بعض الأدوات المنزلية الجلدية بشكل ممتاز لاستعمال الأهالي.

لا يوجد بلد آخر بعد مصر، يميز بموقع جيد مثل بغداد، فهو يصلح ليكون مستودع تجاري كبير، فهذا البلد يربط أوربا بالهند الشرقية وسوريا وبابل.

وجميعنا يعلم أن مصر متصلة بالمحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر، بينما تنتهي سورية والعراق بالخليج الذي يقع أكثر شرقًا باتجاه البحر الحمر، مما يعطي العراق مميزات افضل، وتشكل مصر من البحر الأحمر الأول إلى البحر الآخر، مسافة محصورة جدًا نتيجة لاحتوائها على نهر كبير، وعدة قنوات تقطع البلد في اقسام كثيرة.

أما بلاد بابل فيقطعها نهران، ولكنها غير قابلة للملاحة، وذلك لأن هناك مسافة كبيرة يجب اجتيازها قبل الوصول إلى البحر المتوسط، وليس هناك أي وسيلة لاجتياز هذه المسافة سوى القوافل.

وبالرغم من طول المسافة التي على تلك القوافل قطعها للوصول من الخليج إلى بابل بواسطة النهر، ومن بابل إلى موانئ سوريا عن طريق البر، إلا أن تجارة الهند مع أوربا قد اتخذت هذا الطريق دائمًا حتى اكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح.

وفي عهد خلفاء الإسكندر، كانت بوارج أو سفن مصر تغطي البحر المتوسط وخليج عدن، وتوسعت كثيرًا في تجارتها البحرية التي كانت تمضي سابقًا عبر الخليج وبابل وتدمر وصور، فكان لابد أن تتناقص، مع العلم بأن اتصالات البحر المتوسط مع الهند كانت أقصر عن طريق خليج عدن، ولذا فإن المواصلات أقل كلفة، والحوادث أقل خطورة، مما أدى إلى اختفاء مجد صور القديم بسرعة، وإلى صمود تدمر حتى وصلت بفضل العلاقات التي قامت بين الفرثيين والرومان إلى مكانة كبيرة من التضخم والرفاهية، ومن هذا نستنتج أن تدمر أصبحت المستودع الوحيد لتجارة كبيرة وواسعة، وقد كان من المحتمل أن تبقى تدمر على حالها هذا، وأنها كانت ستصبح في وقتنا هذا ذات دور وفوائد كبيرة لو لم يخربها الرومان، ولو لم يتغير الشرق فيما بعد على يد العرب، ومن بعدهم الصليبيين والأتراك.

وتقع مدينة تدمر هذه على بعد أربعة أيام من مسيرة القوافل من الفرات، بينما تبعد عن بابل بمسيرة تسعة أو عشرة أيام، وخمسة أيام من الشام، وثلاثة أو أربعة أيام من حمص ونهر العاص.

وتعتبر تدمر المدينة الثانية في سوريا، حيث إنها كانت آخر مدينة بها ماء عذب غزير، وأرض خصبة منتجة، هذا إلى جانب موقعها المتميز الذي يرشحها لتصبح مستودع لتجارة صور وسوريا كلها وبلاد اليونان، وجميع موانئ البحر المتوسط، وفارس الجنوبية، وبلاد العرب، حيث إن مثل هذه التجارة لم تكن لتنجح عن طريق خليج عدن قبل إنشاء مدينة الإسكندرية وقبل افتتاح القناة التي تربط النيل بالبحر الأبيض، وقبل تكوين أسطول مجري، وقبل أن يختفي الاعتقاد الخاطئ السائد في هذا البلد الذي ينظر إلى الأشخاص العاملين في مهنة البحارة نظرة إذلال واستهزاء.

وعندما اقتصر جزء كبير من تجارة الشرق في مصر قامت صور وصيدا وأراد بتسليح سيادة البحر للإسكندرية، وبالرغم من كل ذلك إلا أن تدمر ظلت مدينة مزدهرة جدًا، وذلك لأن هناك العديد من المدن التي كانت وما زالت قائمة في سورية وبلاد ما بين النهرين وأرمينيا وبابل وفارس، وبالطبع كانت هذه المدن في حاجة إلى مخزن عام للتجارة القائمة، وكذلك للتجارة المستمرة بين البحر المتوسط والخليج.

وعندما نقل العرب مقر إمبراطوريتهم إلى بغداد اتخذت تجارة الهند في قسمها الأكبر طريقها

الأول، وهكذا فقدت تدمر مكانتها ولحقتها حلب والشام، واستمرت التجارة في الخليج، وأصبحت أكثر من التجارة عبره مصر حيث كان من الأفضل للمسلمين اتخاذ طريق الخليج.

وعندما فقد أباطرة الشرق سيطرتهم على مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين أصبحت البضائع المتجهة من الهند إلى القسطنطينية تتخذ طريق لا يرفع من قيمتها بشكل كبير، حيث كانت هذه البضائع تصعد نهر الهند وصولاً إلى أتوك، ومن هناك تنتقل إلى كابول على ظهور الجمال، ثم إلى بلخ، حتى تصل إلى أوكسس، ثم تنحدر في هذا النهر وصولاً إلى بحر الخزر، ثم تعبر نهر الفولجا في عدة أيام، ثم تنتقل برًا إلى تانائيس وتنحدر حتى جسر قزوين، وأخيرًا تصل من هناك إلى القسطنطينية.

أما الطريق الذي اعتادت القوافل اتخاذه هو طريق مولتاس، وقندهار، هراة، استراباد، ومن هناك تحمل البضائع إلى نهر الفولجا، فبعضها يقطع شمال فارس، ويصل إلى البحر الأسود من خلال جورجيا وبعضها الآخر يمضي من فارس إلى أرمينيا، ثم تبحر إلى سينوب أو طرابزون، ومن هناك تنتقل إلى القسطنطينية.

وقد أدى اكتشاف طريق الهند خلال رأس الرجاء الصالح واستيطان الأوربيين في أمريكا الجنوبية إلى قيام ثورة كبيرة في عالم التجارة، حيث إن ذلك فتح خط مرور مباشر بين أوربا والشرق، وحمل معظم بضائع الهند إلى مستعمرات أوربا الأمريكية، ولم يكن اكتشاف هذا الطريق نتيجة لروح المضطربة التي أبداها البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر فقط، وإنما أيضًا كان نتيجة للحاجة الملحة إلى العقاقير والتوابل وجميع بضائع الهند، التي لم يعد في الإمكان الحصول عليه سوى بأسعار غالية، وذلك لأن البدو كانوا ينهبون القوافل بكل سهولة، وكان الأتراك يحملونها ضرائب كثيرة، حيث إن البندقية التي كانت تجارة بأكملها تتم بواسطتها أرادت مضاعفة امتيازاتها، ورغم مميزات هذا الطريق السالف ذكره الذي استعاد طريق التجارة الهندية الأوربية إلا أن ذلك لم يمنع المسلمين على الإطلاق من استيراد جميع بضائع الشرق عبر مصر، وعبر الخليج بشكل خاص.

وتستطيع التجارة التي يقوم بها الأتراك حاليًا عبر الطريق السابق ذكره أن تكون ذات أهمية كبيرة لو لم يكن الخليج معرضًا للقرصنة بشكل دائم، ولو رفعت الرسوم التي يأخذها بدو الفرات، ولو أصبحت الضرائب التي يفرضها باشا بغداد أكثر اعتدالاً، ولو اختفت المخاطر التي تتعرض لها القوافل التي تقصد حلب والشام باستمرار.

وبما أن البصرة أقرب إلى المحيط الهندي من السويس والخليج أقل اتساعًا وأقرب إلى الشرق من خليج عدن، فإن ذلك يمكن السفن من المضي من البصرة إلى هراة بومباي والمليار وحتى البنغال أسرع من طريق السويس والعودة أسرع أيضًا، لأن الرياح أشد تقلبًا، كما أن هذا الخليج به موانئ أكثر من خليج عدن.

ورغم جميع هذه المميزات إلا أنني أعتقد أن أفضل طريق يصل إلى الهند هو طريق مصر، وذلك لأنه أقصر وأقل تكلفة، وذلك لأن مصر ليس بها سوى صحراء شاسعة في الأطراف طولها أربعة وعشرون فرسخًا، بينما الطريق الذي ينبغي قطعه من بابل وحتى البحر المتوسط تبلغ مائتي فرسخ تقريبًا.

والمسافة بين القاهرة والبحر المتوسط عبر نهر النيل لا تزيد عن أربعين فرسخًا، بينما تبلغ

المسافة بين الحلة وبغداد وعبر الخليج مائة فرسخ.

ونحن نأمل أن نحكم هذين البلدين حكومة نظامية، وفي هذا الوقت لن يتأخرا عن زيادة النشاط والتجارة، وهكذا يحقق كل منهما امتيازات غير متوفرة للآخرين من موقعه.

ونتيجة لذلك لن يهمل طريق رأس الرجاء الصالح، لأن التجارة لا تكتفي مطلقًا، ولن يتوفر أبدًا ما يكفي من وسائل لتجنب احتكارات الدول، وللتخلص من قراصنة البحر واللصوص والضرائب والرسوم الجمركية.

وقد علمت أن جميع البضائع التي تأتي حاليًا عبر الخليج تحمل كلها تقريبًا من البصرة إلى الحلة، وتضطر إلى الذهاب إلى بغداد عن طريق البر، وذلك لأن صعود نهر الفرات أسهل من ركوب نهر دجلة.

تمثل الرسوم التي تحصل في البصرة سبعة ونصف بالمائة من البضاعة الحقيقة، بالنسبة لجميع المواطنين مع اختلاف دياناتهم، بينما تحصل بمقدار ثلاثة بالمائة للأوربيين.

وليس هناك أي تفتيش أو رسوم أخرى بدءًا من هذه المدينة وحتى بغداد، أما البضائع التي تصعد الفرات، فتدفع الضريبة سبع مرات.

يدفعون الضريبة الأولى عند خروج البضائع من البصرة، وتقدر بخمسة قروش عن كل رزمة، والضريبة الثانية تدفع في الحلة، وتقدر بثلاثة قروش، أما الضرائب الأخرى فعادة ما تكون أقل من الضريبة الثانية، بينما لا يدفع الأوربيون سوى نصف المبلغ.

أما القوارب التي تصعد نهر دجلة فتتهرب من دفع خمس دفعات ضرائب، فلا تدفع سوى ضريبة في البصرة، وضريبة أخرى في القرنة، وهذه القوارب لا تسلك هذا الطريق إلا إذا كانت المياه عالية، وإلا فهي تدخل نهر الفرات في القرنة، وبعد عشرين فرسخًا تدخل قناة تسمى الحي، وتبحر بها وصولاً إلى دجلة.

أما عند دخول البضائع لمدينة بغداد، فإن بضائع المواطنين، أيًا كانت الجهة التي دخلت منها، فلا تدفع سوى ثمانية ونصف بالمائة إذا كانت بضائع وزن، أو خمسة بالمائة، إذا كانت من البضائع النفيسة.

أما الرسوم فتحصل على حسب الأسعار المتداولة، وبضائع الوزن هذه مثل:

المعادن، القهوة، التبغ، الفلفل، السكر، وكل ما يوزن أما البضائع النفيسة فتتمثل في الأقمشة أيا كان نوعها أو ثمنها، ويدفع الأوربيون ثلاثة بالمائة عن مختلف أنواع البضائع.

أما عند مغادرة بغداد فلا تدفع أي مبالغ، ولا يتم أي تفتيش آخر، ولا يفرض على البضائع التي تنقل إلى البصرة عبر دجلة، والفرات دفع أي ضرائب، ولكن البدو يطالبون ببعض الإكراميات، أما عند وصولها البصرة، فيدفع عنها سبعة ونصف بالمائة، مثل البضائع القادمة من الخليج، وعند خروجها من البصرة للذهاب إلى فارس، أو مسقط أو الهند يدفع عنها خمسة بالمائة.

ولا يدفع الأوربيون سوى ثلاثة بالمائة كما ذكرنا من قبل، وكذلك تدفع القوافل القادمة من حلب إلى البصرة عبر الصحراء. وغالبا ما تمضي قوافل الشام إلى بغداد، وكذلك أيضًا قوافل حلب منذ زمن بعيد.

ولا تدفع القوافل التي تمضي عبر الصحراء أي ضرائب أو رسوم، ولكن رؤساء القوافل يقدمون بعض الإكراميات لرؤساء عشائر العرب الذين يمرون بهم في طريقهم.

إن أوربا ليست الوحيدة الملزمة بتسديد أثمان البضائع الغالية والوفيرة التي تستوردها الهند، وذلك بذهبها ومعادنها الأخرى، بل تركيا أيضًا ملزمة بصب كل ما تحصل عليه من أوربا في نفس القناة.

فنجد أنه بالنقود الذهبية المتداولة في البندقية وهولندا وهنغاريا، وبالنقود الذهبية التركية القديمة والقروش القديمة، تشتري كل البضائع القادمة من الخليج، ويقدر المبلغ المتداول عبر هذا الطريق بعشرة ملايين قرش تركي ونيف.

وأعتقد أن هذا المبلغ كان سيصبح أكبر لو لم تكن تركيا تزود الهند ببعض الأغراض ذات القيمة التي سأذكرها الآن.

أما البضائع التي تذهب إلى فارس عبر هذا الطريق، فتقدر بخمسة ملايين قرش، وبضائع أوربا التي يقتنيها الأتراك فتقدر بمليون قرش، وتدفع بيقمتها البضائع المستوردة من فارس أو من الهند.

ويمر إلى الهند عن طريق فارس الكثير من النحاس المستخرج على شكل قوالب من مناجم آسيا الصغرى، إلى جانب كمية كبيرة من النحاس القديم الوافد من سوريا وبلاد ما بين النهرين، والأناضول وكردستان.

ومن المواد المهمة التي يمضي الكثير منها إلى الهند مادة العفص، ويصل من آسيا الصغرى القليل من الأفيون والصمغ والكثيراء.

وتقوم بغداد وكركوك والموصل بتصدير بضع حزم من قوة الصباغين المسماة فوا " النيل ".

ويتم تصدير الكثير من التمور إلى كرمنشاه وهمذان وشمال بلاد فارس، ويصدر إليها أيضًا القليل من الأرز، وذلك بحرًا من البصرة إلى مسقط، وصراة، وخليج قمبيز، وكذلك التمور، والأرز، وأحيانًا الجبن والشعير.

ويستعمل الفرس والأتراك أقلام للكتابة مصنوعة من القصب الذي ينمو على ضفاف الأنهر، إلى يمين نهر شط العرب، ويصدرون منها كميات كبيرة.

أما الجياد التي تروضها العشائر العربية المقيمة غرب البصرة وبغداد، فلها قيمة كبيرة وشأن رفيع في الهند، ويصدرون منها عدد كبير كل عام إلى صراة وكجرات.

إن أهالي تركيا – الدولة العثمانية – يستهلكون الأقمشة السانتينية، والمخملية، والمطرزة بالذهب والفضة الوافدة من ليون، وكذلك الأقمشة اللماعة وغيرها.

وهذه الأقمشة عادة ما تصل إلى بغداد، ثم تنتشر في بلاد فارس وحتى قندهار.

أما أقمشة فرنسا الجوخية فتمضي إلى فارس وحتى قندهار، وأكثر الأنواع التي تلاقي إقبالاً كبيرًا هي الأقمشة اللندنية من الدرجة الثانية التي تصنع في معامل لانكدوك.

وعندما استقر الأوربيون في الخليج وأصفهان، كانوا يستهلكون كميات كبيرة من الأقمشة

الجوخية، وكذلك منتجات أخرى مصنوعة في أوربا.

وكان الأوربيون خلال عهد كريم خان ما زالوا يبيعون في البصرة وبوشهر أقمشة جوخية بقيمة مليون، كانت مخصصة لبلاد فارس، أما الآن فهم لا يبيعون هذا المقدار، وذلك نتيجة للتالي:

لقد كانت الحكومة الإنجليزية فيما مضى تلزم شركة الهند الشرقية أن تشتري من معامل إنجلترا كل عام، كمية معينة من الجوخ لتبيعها في بندر عباس.

ولكنها بعد أن خسرت هذا المكتب التجاري استمرت في إيصال أقمشتها إلى البصرة وبوشهر.

وبالطبع عندما كانت الأقمشة الإنجليزية تباع بثمن بخس أو بالخسارة فإن أقمشة الدول الأخرى لم يكن بمقدورها منافستها، ولكن عندما أصبح في استطاعة الشركة اختيار بضاعتها بحرية، ارتفع سعر الأقمشة في البصرة وموانئ الخليج كثيرًا، وهكذا أصبح بالإمكان بيع مقدار كبير من أقمشة الفرنسيين.

ومن المؤكد أن الفرنسيين بأقمستهم الأقل سعرًا والأجود نوعًا، والأكثر تفصيلاً في هذه المناطق، لن يحل عليهم، وقتالاً يستطيعون فيه العمل على ازدهار هذا الفرع التجاري، كما ينبغي، حيث يجب أن يكون لديهم مناطق في البصرة، وأن تكون بواخر التصدير الفرنسية مشحونة بالأقمشة والنحاسيات، إلى جانب أقمشة ليون وغيرها، وتتجه هذه البواخر إلى مسقط، والبصرة، وموانئ فارس، ثم تعود محملة بمأكولات البصرة إلى مسقط، أو بالنحاس إلى صراة، وأحيانًا تمضي بحمولتها إلى أوربا.

ويمكنها أيضًا أن تنقل المأكولات أو القطران المعدني أو قارهيت إلى جزيرة فرنسا.

أما ضفائر ليون فتباع في الإمبراطورية العثمانية، حيث يتم استهلاكها، ولا يصل منها إلى بلاد فارس سوى القليل جدًا، وكل استهلاكها في بغداد.

وفي القسطنطينية حاولوا تقليد الأنواع الاعتيادية منه، ولكنهم لم ينجحوا في صنعها جميلة من حيث المظهر، ولا حتى في بيعها بسعر بخس كالأصلية.

ومن أكثر الأدوات التي تصل إلى بلاد فارس الإبر، وخاصة الاعتيادية لأنها أرخص ثمنًا.

أما أقل الأدوات التي تصلها فهي الساعات، وجميع الأدوات النحاسية والحديدية، لأنها لا تلاقي إقبال كبير.

ويصل إلى بغداد الكثير من البضائع المعدنية عن طريق البر، لتنقل إلى بلاد فارس، أو الهند، وهذه البضائع هي:

الحديد على شكل قضبان، والقصدير، المسامير، والفولاذ، والزنجفر– أوكسيد الرصاص- والاسفيداج –كربونات الرصاص-، وخيوط النحاس وخيوط القصدير، والأمواس الدقيقة من النحاس الأصفر والأبيض من نورمبرج المسماة لاميتا.

كما ترسل من هذا الطريق زجاجيات البندقية إلى الهند وفارس.

وفي تركيا يشتري الكثير من زجاج بوهيميا مثل القناني والصحون، والنرجيلات، وأواني الشرب، وأوعية المربى، والمذهبة منها، ويصل الكثير من هذه البضائع إلى فارس وبغداد والبصرة.

وأحيانًا يصل من مرسيليا إلى الهند كمية جديدة من دودة القز عن طريق حلب.

ومن خلال نفس الطريق يصل بعض العقيق المشغول، فيحمل الأجمل منه إلى الهند، أما الأقل جمالاً فيحمل إلى فارس، بينما يباع ما هو في حالة سيئة إلى البدو.

ويلاقي الشيح الشفاف ذو اللون الأصفر الجميل إقبالاً في بلاد فارس وجزيرة العرب والهند، ويعتبر أحد أهم المواد التجارية في بغداد، والغليظ منه يستهلك في جميع أنحاء تركيا، حيث يستخدم في صنع الغليون، ولا يصل منه إلى الهند وفارس سوى كمية قليلة.

السكر: يفضل أهالي بغداد سكر أمريكا لأنه أفضل من سكر الهند، خاصة عندما يكون سعره ليس غاليًا، ويفد منه الكثير من باتافيا، والبنغال، إلى بغداد وجزيرة العرب، والبعض منه يحمل إلى فارس.

القهوة: وفي كل عام يصل إلى بغداد والبصرة خمسة أو ستة أحمال من القهوة، ويتم استهلاكها في بلاد ما بين النهرين وكردستان وأرمينيا، كما يصل منها القليل إلى فارس، وأحيانًا ينقل منها إلى حلب والشام.

التبغ: يأتي إلى بغداد تبغ فارس المسمى تومباك من أصفهان وشيراز، ثم يحمل من بغداد إلى دمشق وحلب والقسطنطينية، ويتم زراعة مثل هذا التبغ بكميات كبيرة جدًا في أطراف بغداد، ليذهب إلى جميع أنحاء تركيا.

ويعتبر تومباك شيراز من الدرجة الأولى، أما تومباك أصفهان فهو من الدرجة الثانية، ومن بعده يأتي تومباك بغداد.

والكمية المصدرة من تومباك بغداد تقدر بعشرة آلاف حمل، ويبلغ سعر كل حمل خمسين قرش، أي مليون فرنك بعملتنا، وهذا التبغ ذو تأثير قوي جدًا، فلا يستعمل إلا للنرجيلة، ويكون دخانه حريف جدًا، إلا إذا تم تخفيفه بإناء مليء بالماء ليفصل الدخان عن أنبوبة الغليون (النرجيلة).

ولا يصبح هذا التومباك حريفًا هكذا، إلا إذا نضجت نبتة التبغ كل النضج.

ولأنهم أيضًا لا يتناولون الأوراق وحدها، بل يتناولون الأضلاع والساق وكل أجزاء النبتة، ونوع التبغ الذي نزرعه في أوربا هو نفسه الذي يزرع في الشرق بأكمله.

النيلة: منذ عشر أو اثني عشرة سنة، أصبحت نيلة أمريكا نادرة للغاية، وازداد سعرها كثيرًا في تركيا وفارس، وأكثر مما كانت في السابق، وازدادت زراعتها في لاهور، ومولتان وخليج قمبيز، حيث تنمو بشكل ممتاز.

والنيلة المزروعة في هذه المناطق لا تقل جودتها عن النيلة التي في سان دومنيكو.

ويصل قسم من هذه البضاعة إلى صراة، والقسم الآخر يتخذ طريق كابل وقندهار، كما أنها منتشرة في كل أنحاء فارس، وتركيا الآسيوية.

ولذلك فأعتقد أن هذا النوع من التجارة سيقل قريبًا للأوربيين، أما النيلة التي تصنع شرقي نهر الهند، فهي تكفي الإمبراطورية العثمانية وفارس.

ومنذ مدة لم يعد يصنع منها الكثير في شوشتر الواقعة إلى الشمال الشرقي من البصرة، وقد ذكرنا سابقًا أنهم يصنعون منها الكثير في مصر.

عقاقير: يأتي من بلاد فارس الكثيراء، والأمونياك، والقنة المهجونة، والحلتيت، والجاوشير، والمقل، والراتينج، ثم يحملوا إلى حلب والشام، ومنهم إلى أوربا.

أما المر، والسولع، والبخور، فيأتوا من جنوب جزيرة العرب، ومن القسم الشرقي من أفريقيا، وأحيانًا تمر عبر بغداد حتى تصل إلى حلب والشام.

ويأتي من الهند إلى بغداد البنجوان، وعود الند، وخشب السولع، ثم توزع على جميع أنحاء تركيا، حيث تستهلك منها كميات كبيرة للغاية في القسطنطينية.

وأخيرًا خشب صمغي جدًا، يقال إنه ينتمي إلى فصيلة شجرة تسمى أغلاجون، وقد صوره رامف في كتابه.

السحلب: يجلب إلى بغداد نوعين من السحلب من شمال فارس وشرقها، النوع الأول صغير وشفاف، وملفوف بخيط قطني، وهذا ما يرسل إلى أوربا كلها من حلب، ويعتقد أن هذا السحلب أصول ذات بصلات السحلب المنقعي.

أما السحلب الآخر فهو أرخص، وأكبر من الأول بثلاث أو أربع مرات، ولا يعرفه الأوربيون، وينتمي هو الآخر إلى فصيلة السحلبيات، ويطلق على النوعين في بغداد وأصفهان اسم " سحلبية ".

الراوند: يأتي الراوند إلى بغداد من بلاد فارس، ثم يحمل منها إلى حلب، ويصل منه كميات كبيرة إلى سميرني –أزمير– عن طريق هراة، ومشهد، وقزوين، وتبريز، وأرضروم، وطوقات.

السنا: إن الشركات التي تنقل إلى البصرة الموكا، والقهوة، هي نفسها التي تجلب كميات كبيرة من السنا، فينتشر جزء منه في القسم الشرقي من تركيا، ويحمل بعضه إلى فارس.

الإهليج: تستعمل هذه الثمار لدى الشرقيين أكثر من الأوربيين، وقد علمت أن الأوربيين قد توقفوا تقريبًا عن استعمالها، عندما توفر لديهم مواد مسهلة أو قابضة أخرى، لها نفس المفعول، ولكنها اقل ثمنًا.

ويصل الكثير من الإهليج بأقراص السكر إلى بغداد، وهي ذات مذاق طيب، ومسهلة جدًا.

دهن البطم: قمنا بجرح جذع شجرة البطم، التي تنمو في أعالي جبال كردستان والجبال التي تفصل بلاد فارس عن الإمبراطورية العثمانية، فظهر لنا نفس السائل الموجود في سيو، وهو سائل مشرق، ذو لون كهرماني جميل، يستهلك في فارس وفي الأطراف الشرقية من تركيا.

يحمله الأكراد في قناني – زجاجات – مصنوعة من ثلاث أو أربع طبقات من جزء من الرق، وتحتوي على ما يزيد عن كيل، وقد كان معي قنينتان من هذا الدهن، ولكن عندما كنت أجتاز شمال جزيرة العرب أسالت حرارة الجو بعضه من خلال الغطاء الخشبي.

وهو شبيه بالمصطكي، فعند تعريضها للفحم المشتعل، تنشر رائحته الذكية، حتى يعتقد أنها نوعا من البخور.

وهناك نوع آخر من المصطكي، الذي يختلف بعض الشيء عن مصطكي سيو، ويتم استخراجه من جزء آخر ولورستان وكرمان. والنساء في بعض أنحاء فارس، يمضغنه حتى يكسب الفم رائحة جميلة، وليحفظ أسنانهن، ولم نجد هذا النوع من المصطكي سوى في أصفهان.

وتباع ثمرة البطم في بغداد كغذاء، وتعود إلى شجرتين أو ثلاث، ويظهر ذلك في اختلاف حجمها، فتجد إحداها بقطر خمسة أو ستة خطوط، ولبها كبير الحجم، وتجد ثمرة الشجرة التي تعطي دهن البطم الذي تحدثنا عنه، وهي أصغر من الأولى.

وتصل هذه الثمار إلى هدفها قذرة، وذلك للحفاظ على لبها من الفساد.

التوابل: تجلب كميات كبيرة من التوابل من الهند مثل:

الفلفل، القرفة، الهال، القرقلة، الكركم، الخولنجان، الزنجبيل، وبسباسة الطيب.

وجميع هذه التوابل تمر بحلب، والشام، والقسطنطينية، ويوزع القليل منها في آسيا الصغرى.

ويجلب أيضًا القليل من الزنجبيل وبسباسة الطيب بأقراص سكر.

اللادن: يختلف هذا القطران عن اللادن الأمريكي، ومصدره من عمق جزيرة العرب، ومن القسم الشرقي من أفريقيا.

ويطلق عليه العرب " لادن "، ويعتقد أنه يستخرج من البلسم.

المسك: يحمل إلى بغداد كميات كبيرة من المسك، عبر القوافل القادمة من قندهار والتبت وسمرقند.

ومن المعروف أن الحيوان الذي ينتج هذا المسك، يقطن المناطق الشرقية من المناطق التي ذكرتها بالأعلى.

ويستهلك الأتراك والفرس كميات كبيرة من المسك، حيث إنهم يعتبرونه العطر الأساسي لهم، ويستخدمونه أيضًا كمهيج.

العنبر الأسمر: تجلب هذه المادة إلى بغداد من سواحل أفريقيا الشرقية، وقد أعطاني أحد الأعراب الذي قام بأسفار كثيرة على هذه السواحل، قطعة كبيرة جدًا من هذا العنبر، وأخبرني أنها مستخرجة من براز سمك ضخم للغاية، يتغذى على الإسبيدج، وهذا نفس ما قيل لكوزيوس، وهذا أيضًا هو رأي الأطباء العرب، وعلماء الطبيعة يستخدمون هذا العنبر الآن.

ومن المعروف أن هذا العنبر يحتوي على الكثير من محاجن الحبار، ومن المعروف أيضًا أن رائحة كحول الحبار الأسود شبيهة برائحة العنبر والمسك، كما أن الحبر الصيني الذي يصنع منه سواد الحبار له نفس الرائحة.

ويستعمل الشرقيون العنبر الأسمر كعطر، ويعتبر أيضًا من الحبوب المهيجة مثل المسك، والبادزهر.

شالات كشمير: يصل من فارس إلى بغداد كل عام بواسطة القوافل، شالات من الكشمير، بقيمة مليون قرش، وتنتشر في جميع أنحاء تركيا (الدولة العثمانية).

وينقل بعضها إلى القسطنطينية بواسطة التتار الذين يرسلهم الباشا. كما تصدر فارس أيضًا شالات من كرمان، ولكنها ليست جيدة ودقيقة مثل شالات كشمير.

وتصنع شالات كشمير من الريش الذي يتوسط شعر ماعز التبت، أما الشالات الأخرى فتصنع من شعر ماعز كرمان.

وتباع شالات الكشمير في بغداد بسعر مائة وخمسين أو مائتي قرش، بينما تباع شالات الكرمان بسعر عشرون أو خمسة وعشرون قرش.

حرير وأقمشة حريرية: تجلب إلى البصرة وبغداد أقمشة كيلان الحريرية، وحرير البنغال، وحرير الصين، وجميعها تقريبًا تمر بحلب والشام، وتستهلك بكميات كبيرة في بغداد.

وتعتبر أقمشة الحريرية الأجمل بينها، وتفضل أقمشة كيلان الحريرية على أقمشة الصين الحريرية، حيث إنها أكثر نعومة من الثانية.

وتصدر أربيل وكركوك والقسم الجنوبي من كردستان إلى بغداد كمية قليلة جدًا من الحرير، لأنها تشتغل في المعامل هناك.

وتزود صراة، وكجرات كمية كبيرة من أقمشة الحرير الخالص أو من الحرير والقطن.

وتمتاز هذه الأقمشة بأنها بسيطة أو مرسومة على شكل ورود حريرية، أو زهيرات ذهبية وفضية.

ويصل بعضها من البسيطة والمرسومة من البنغال، وتمضي حتى جزيرة العرب.

وتنتشر أقمسة الحرير والقطن البسيطة والمرسومة المصنوعة في الشام، وحلب، في تركيا (الدولة العثمانية)، ولا يصل منها إلى بغداد والبصرة سوى ما يكفي هاتين المدينتين وضواحيهما.

القطن والموصلين والأقمشة الخام: إن أفضل قطن يصلح لصناعة أجمل موصلين، هو أجود القطن الذي يزرع في مملكة بيرفويدجى قرب صراة، وهو أجود وأرق أنواع القطن.

ويصل إلى البصرة الكثير من الصوف، ويصل إليها أيضًا حوالي ثلاثة آلاف حقة من خيوط قطنية تمر بالموصل والشام وحلب. وعادة ما تباع الحقة بسعر عشرين قرش، أي ما يساوي بعملتنا ١.٢٠٠٠٠٠ فرنك.

ويصل إلى البصرة وجميع مدن الخليج بقطن خشن من دفيل، وهو ميناء واقع في مصب نهر الهند، ويستعمل هذا القطن في أقمشة القمصان، كما تستخدم بشكل خاص في أقمشة الأشرعة.

ويصنع العديد من أقمشة الأشرعة من هذا القطن في جزر البحرين، ويصل أيضًا إلى معامل بغداد والشام وحلب نوعية أجمل من القطن الذي يقطف في أطراف دجلة من فارس، كما تصل كمية كبيرة من الموصلين من البنغال، ويصل أيضًا قماش قطني أشد نحافة، وكذلك أقمشة قطنية مضغوطة، سواء بيضاء أو مطبوعة ذات أنواع مختلفة، وأسعار متفاوتة، وترسل إلى مدراس، وتصنع في ديانوم الواقعة جنوب مازوليبتان، وتعرف هذه الأقمشة في فرنسا باسم (فارسيات) لأنها جاءت إلينا في البداية عبر فارس.

ويصل إلى البصرة كميات كبيرة من مدراس، وهنديات سدراس، وبوند بجيري، وتصل الأنواع

البيضاء منها إلى تركيا، والمطبوعة إلى فارس.

وتصنع صراة أقمشة بيضاء كبيرة الحجم، بيضاء أو حمراء، وغالبًا ما تكون زرقاء، وتصل هذه الأقمشة إلى البصرة لتباع للبدو.

اللؤلؤ: يتم اصطياد اللؤلؤ من الخليج، من كران وحتى موسيندوم وحول جزر البحرين، وتوجد منه هناك كميات كبيرة، وفي كل عام يحصل منها مليوني قرش، أي حوالي أربعة ملايين فرنك، ويقدر ثمن الأكبر والأجمل منه بثلاثة أرباع هذا المبلغ.

ويصدر إلى الهند والصين، والباقي منه يجلب إلى البصرة ليوزع في جميع أنحاء تركيا، ولا يكاد يصل منه شيء إلى فارس ويصدر من البغال إلى أوربا بعض المجوهرات الصغيرة والمستديرة.

ينتمي سكان جزر البحرين إلى قبيلة عربية تعرف باسم بني خالد، وينتشرون على الساحل الجنوبي، والغربي قليلاً من الخليج، ويجاورهم إلى الغرب بلاد نجد، والقريبون منهم إلى البحر جميعهم مستوطنون.

ويعيش سكان البحرين على صيد الأسماك، ويعملون أيضًا في زراعة الأراضي، ويتغذون من ثمار نخيلها.

وبعضهم يصنع عباءات ويصدرونها إلى البصرة، أما سكانها الذين يعيشون بعيدًا عن السواحل، فيعيشون تحت الخيم، ويمتلكون بعض الأغنام، ويربون بعض الجمال لبيعها في البصرة وبغداد، ويربون أيضًا نوع جميل جدًا من الحمير.

وفي فترة من الزمن استعمر البرتغاليون جزر البحرين، وعدد هذه الجزر خمس، منها جزيرتان كبيرتان، وثلاث جزر صغيرة.

وعندما اضطر البرتغاليون لمغادرة الخليج، عادت جزر البحرين إلى عرب الساحل كالسابق، حتى استولى عليها نادر شاه، وفرض عليها الأتاوة، وبمجرد موت نادر شاه عادت البحرين مرة أخرى لعرب الساحل، وأصبح لها شيوخ مستغلون.

وفي عام ١٧٩٥ توجه أمام مسقط إلى محمد خان عاهل إيران، فسلمت له سيادة البحرين، وبعد القليل من الصمود من قبل العرب، خضعوا لسيادته بعد أن هددهم بأنه سيحاربهم إذا لم يخضعوا له، وألزموا بدفع الجزية – الإتاوة -.

ومناخ هذه الجزر سيء، ودرجة الحرارة في الصيف مرتفعة جدًا، ويبلغ عدد من يعملون في صيد اللآلئ أربعين ألف شخص، خاصة في شهور ميسيدور، وتيرميدور، وفركتيدور، ويعيشون على هذا المحصول.

وليس لهم أي مهنة أخرى ولا مصدر رزق سوى صيد اللآلئ لذا يضطرون إلى توفير ما يحصلون عليه خلال ثلاثة أشهر ليكفيهم طوال العام، حيث إن هذه الجزر لا تنتج سوى بعض النخيل والقليل من القطن، وعادة لا تزرع بها الحنطة.

الفصل التاسع

محتويات هذا الفصل:

السفر من بغداد، موانئ للمديين، جبل زاجروس، الوصول إلى كرمنشاه، وصف هذه المدينة ونصب طاق بستان.

بمجرد تسلمنا للرسائل التي وعدنا بها باشا بغداد، بدأنا التعامل مع رؤساء قافلة متجهة إلى كرمنشاه، إحدى مدن بلاد فارس، وهي الآن محل لإقامة الخان.

ولم نكن نعلم أننا سننتظر علبة تحتوي على بعض المجوهرات لنقدمها كهدية إلى وزراء ملك فارس، وكان علينا أيضًا أن نتفاوض عليها.

وقد أرسل لنا مبعوث الجمهورية الفرنسية لدى الباب العثماني، بساعي (تتري) جاء من القسطنطينية إلى بغداد في تسعة عشر يومًا، ووصل عشية مغادرتنا، وهذا ما لا يحدث عادة ليخبرنا بأنه سيرسل تلك العلبة بواسطة أمير هندي، ينوي هو الآخر السفر إلى فارس قريبًا.

ولكننا خشينا أن يتأخر هذا الأمير الهندي لعدة أيام، وربما لأسابيع، وكنا نظن أن مجرد ساعيًا (تترًيا) يتمتع ببنية جسدية أفضل تجعله يقضي في الطريق وقت أقل بكثير، مما سيقضيه الأمير الهندي.

وكنا نقترب من موسم الصيف، وكل يوم يمر تزداد الحرارة أكثر فأكثر، كما أخبرنا بعض المسافرين القادمين من فارس، أن ملك فارس يستعد للخروج من العاصمة في حملة يظنونها ضد جورجيا أو خراسان، لذا كان علينا تعجيل سفرنا حتى نقابل وزراء الملك بسرعة، حيث إن الحال في فارس كما في تركيا، فحين ينطلق الملك على رأس جنوده، ويتغيب عن عاصمته لبعض الوقت، ينبغي على وزرائه وموظفي بلاطه بأكملهم اتباعه.

وبناء على ذلك فقد أخذنا وعدًا من وكيل العلاقات التجارية (الفرنسي) بأن يستلم هذه العلبة نيابة عنا، ويوصلها إلى مدينة قزوين.

علمًا بأن مدينة قزوين هذه لا تبعد عن طهران التي علينا الذهاب إليها سوى عشرين فرسخًا، كما أن هاتين المدينتين تربطهما اتصالات مستمرة، مما يؤكد أننا لن ننتظر تسلمها طويلاً، وربما تصل إلينا قبل حاجتنا لها، هذا في حالة إذا أرسلت إلينا فعلاً من القسطنطينية كما نأمل.

كانت مهمتنا في هذه البلاد، تحتاج لوجود مترجم ذكي ونزيه، لذا عرضنا على شاب صقلي اسمه كارامان بأن يصاحبنا.

وكان هذا الشاب وكيلاً لتاجر إيطالي يتعامل مع أصحاب وكالات في القسطنطينية قد أفلسوا مؤخرًا، وكانت له سمعة جيدة في بغداد، بل وكان يتقن عدة لغات مثل الإيطالية، والتركية، والعربية، وقليلاً من الفرنسية، ومنذ فترة بسيطة تعلم الفارسية أيضًا.

ونتيجة لأنه لن يكون لديه عمل عما قريب، فقد اغتنم هذه الفرصة في مصاحبتنا، وكذلك لرؤية بلاد فارس، مما يتيح له تعلم اللغة الفارسية بشكل أفضل، ويرشحه أيضًا ليصبح مترجمًا لأحد السفراء الأوربيين.

وفي شهر آيار عام ١٧٩٦، وقبل غروب الشمس بقليل، انطلقنا من مدينة بغداد، وانتظرنا على ضفة دجلة اجتماع جميع أفراد القافلة.

وفي الساعة الثامنة تحركت القافلة، وقد كانت هذه القافلة مكونة من تسعين خيالاً من الفرس الذين جاءوا لبغداد بغرض زيارة ضريحي الإمامين علي والحسين – رضي الله عنهما -.

إلى جانب ستين جوادًا محملة بالأرز والتمور وآلات حديدية ونحاسية أوربية، وقروش تركية، وأمتعة المسافرين.

وبمجرد امتطائنا الخيول هبت علينا نسمة ريح باردة، قادمة من أعالي الجبال التي تفصل تركيا عن فارس.

وذلك رغم أن النهار كان حارًا جدًا، حيث صعد محرار ريامور، إلى ثلاثين درجة، كما كان هبوب الريح قليلاً إلى الجنوب في الأيام الثلاثة الماضية.

أخذنا استراحة في الساعة العاشرة، ولاحظنا إلى الغرب من طريقنا تكوّن ضباب كان يرتفع عن الأرض، أو يبقى فوق سطحها، وخلال لحظات لفحتنا ريح شديدة الحرارة لبضع دقائق، وفي الساعة الحادية عشر كنا وسط الضباب، الذي شعرنا أنه مكون من غبار دقيق محرق.

كان الهواء يتحرك من وقت إلى آخر بلا انتظام من جميع الجهات، فتهب ريح لاهبة تكاد تخنقنا إذا استمرت لبضع دقائق، وخيم الصمت على أفراد القافلة، حتى أن الخيول خفضت من سرعتها، ويبدو أنها شعرت بما شعرنا به.

مضى علينا حوالي خمس ساعات في هذا الضباب المخيف، وأخيرًا خرجنا منه لنجد أنفسنا وسط أرض مزروعة ومروية، بينما ومنذ خروجنا من بغداد كنا نسير خلال أرض جرداء، ويبدو أنها مهملة منذ فترة طويلة.

في الساعة السابعة صباحًا وصلنا إلى ضفاف ديالى، وكان هذا النهر هادئ وكبير، مثلما يبدو نهر السين الموجود في باريس في هذا الوقت من العام.

وقد كان القدامى يطلقون عليه ديلاس، ويتمد هذا النهر منبعه من جبل زاغروس، الواقع على بضعة فراسخ من الجنوب الشرقي من شهر زور.

عبرنا نهر ديالى بواسطة قارب كبير من خشب السنديان، الذي كان مغطى بالكامل بخليط من القار والتراب.

لم يطلب أصحاب القارب سوى مبلغ زهيد، على عكس السماسرة الذين طلبوا رسم ست عشرة بارة، أي ما يساوي ستة عشر فلسًا فرنسيًا، تقريبًا عن كل توصيلة.

وقد كان باشا بغداد إلى جانب الرسائل التي أعطانا إياها تكرم أيضًا وأعطانا توصية أو أمرًا إلى كل من يهمه الأمر بإعفائنا من جميع الحقوق والرسوم المفروضة في ولايته.

سرنا بمحاذاة نهر ديالى لمدة ربع ساعة، حتى وصلنا قرية صغيرة تسمى بعقوبة، تحيطها أشجار النخيل والليمون والرمان، وأشجار أخرى مثمرة.

وأعتقد أنها نفسها القرية التي أطلق عليها بيترو ديلا فالي اسم بيهيروس، كما أطلق عليها كل من

تافرنييه بورس، أوتيه اسم بهريس.

استرحنا يومًا في خان يقع وسط القرية، وفي العشرين من آيار، وعند شروق الشمس غادرنا القرية، وبعد ساعتين ونصف من المسير، وبسبب حرارة الشمس المرتفعة اضطررنا للتخييم على ضفاف جدول يستعمل لري الأراضي، ويأتي من النهر، وكانت أطراف هذا الجدول مغطاة بأشجار الحضض، والسنط، والسوس، وعدد كبير من نباتات أخرى، ويوجد كمية كبيرة من الحشرات التي تزهو على أطراف بعضها، وتحلق حول النباتات، فيبدو أن البلد كله مزروع بالكامل.

ورأينا من حولنا العديد من بساتين النخيل التي تدل على تعدد القرى، وكانت الريح جنوبية طوال النهار، ودرجة الحرارة مرتفعة عن الأيام السابقة.

في الساعة العاشرة مساءًا تقريبًا امتطينا خيولنا، وبعد مسيرة سبع ساعات ونصف وصلنا إلى قرية شهربان، وهي عبارة عن قرية كبيرة، ولكن نصفها مهدوم.

وتقع هذه القرية على قناة يقال إنها نابعة من نهر ديالى، ويحصل في هذه القرية عن كل حمولة تنزيلا وتحميلاً رسم ثمان بارات، ولكننا لم نتوقف في هذه القرية، وإنما خيمنا على بعد فرسخ منها.

وفي الساعة الرابعة عصرًا من نفس اليوم، وبالرغم من ارتفاع درجة الحرارة، فقد قطعنا فرسخًا ونصفًا، ثم خيمنا على ضفة ترعة تسقى هذه القصبة حتى منتصف الليل.

لقد لاحظت أن الأراضي بدءًا من بغداد وحتى هذه المنطقة، أراضي مستوية، وعميقة جدًا، ولا تحتوي على أي خليط من الحجارة أو الحصى.

فهي أراضي رسوبية شكلها نهر دجلة سابقًا، وأعتقد أنها ستكون خصبة جدًا إذا سقيت.

ونحن الآن بالقرب من مرتفع من الحصى أساسه من حجر المسن (الصوان)، ويوجد أمامنا إلى اليمين قليلاً، جبال مغطاة بغابات.

وقبل شروق شمس الثاني والعشرين من آيار اجتزنا المرتفع الذي ذكرناه منذ قليل.

وهو مرتفع يابس وبلا زرع، يبلغ عرضه أكثر من فرسخين، ووجدنا أنفسنا في سهل جميل مروي، وبعد ميسرة خمس ساعات وصلنا إلى قزل – آباد، وفي هذه القرية يحصل رسم مقداره ثماني بارات، خيمنا على بعد نصف فرسخ بالقرب من بستان نخيل.

وفي ٢٣ من آيار، وبعد ست ساعات من المسير توقفنا في قرية خرناكي، وقد لاحظنا في هذه القرية وجود النخيل، وتقع على نهر يسمى خسروي، يمتد ليصب في نهر ديالي، عبرنا هذا النهر بواسطة جسر جميل مشيد من الطابوق.

وقد اجتزنا تلاً آخر من حجر الصوان والحصى ما بين قزل آباد وخرناكي، وقد بدا لنا القاع مرتفعًا بشكل ملحوظ منذ أن تركنا الأراضي الرسوبية.

في ٢٤ من شهر آيار، سرنا ست ساعات ونصف، ثم اجتزنا تلولاً من حجر المسن والحصى شبيهة بما ذكرناها من قبل.

ثم خيمنا بالقرب من أطلال مدينة قديمة يطلق عليها الأتراك والفرس اسم «قصري شيرين أو قصر شيرين» ، وعلى يميننا رأينا نهر صغير وهو نهر خسروي الذي تحدثنا عنه سابقًا، وهو نابع من الجبال التي أمامنا، وضفافه مغطاة بأشجار الصفصاف، والغار الوردي.

وما زال في قصر شيرين بعض بقايا الأسوار، وقلعة كبيرة الحجم يقال إن كسرى أو كسرى أبرويز، قام ببنائها لتكون مسكنًا لخليلته شيرين.

وفي ٢٥ منه، وبعد مسيرة ست ساعات ونصف، لاحظنا أن الأراضي بدأت ترتفع، وقد قطعنا تلولاً كلسية، وكان جبل صغير مغطى بأشجار السنديان (البلوط).

أقمنا خيامنا بالقرب من نهر خسرو، في سهل صغير المساحة، لكنه مزروع ومسقى.

ومنذ مغادرتنا لبغداد كنا نرى في كل مكان حصاد الشعير، ولاحظنا أيضًا أن الحنطة قد نضجت تقريبًا.

و في ٢٦ من آيار عبرنا بالقرب من قرية سربيل، والرسم المفروض فيها يبلغ ثلاثين بارة على الحمولة، ورغم التوصية التي نحملها من الباشا إلا أنهم ألزمونا بدفع هذه الرسوم.

وبالقرب من قرية سربيل شاهدنا تلاً بركانيًا وكلسيًا به شق يمر منه الطريق، إلى جانب جدول يعتقد أنه حديث العهد.

وبالقرب من هذا الشق رأينا أراضي فيها الكثير من الركم والأنقاض التي تشير إلى أن هذا المكان كان يشغله مدينة كبيرة في الماضي..([1])

الفصل العاشر

محتويات هذا الفصل([2])

السفر من أصفهان، العودة إلى بغداد عبر كنكافار وكرمنشاه، نساء ميكراباد، ضريبة سريبل، أكراد يهاجمون القافلة، وسائل عديدة للعودة إلى بغداد وركوب الطريق، مغامر ينتحل اسم أخي ملك فارس.

عندما غادرنا طهران متجهين إلى أصفهان كنا نريد أن نقطع بلاد فارس بأكملها حتى المضي والإبحار عبر أحد موانئ الخليج إلى البصرة، ثم صعود الفرات أو دجلة، ثم إلى الحلة وبعدها بغداد.

كانت هذه الخطة ستتيح لنا أن نكمل مشاهدة الأراضي والمناخ في فارس والعراق، وأيضًا للتعرف على أخلاق السكان وعاداتهم، والحصول على نباتات وحيوانات كنماذج، لتكون حصيلة أفضل وأغنى من تلك التي حصلنا عليها في هذا البلد.

ولكن ما لم يكن في الحسبان هو توعك صحة زميلي، الذي بدل كل مخططاتي.

فاضطررنا إلى الاستراحة في المدينة الأكثر صحة في الإمبراطورية الفارسية لمدة عشرين يوم، وفي أكثر الفصول صحة، ولم يكن هذا كافيًا ليستعيد صحته، أو ليكتسب أملاً في تحسن صحته، لذا فقد قررنا الابتعاد بأكثر سرعة عن هذا المناخ الغير مناسب، وكذلك اتخاذ أقرب وأقصر طريق للعودة إلى فرنسا.

وفي ١٧ تشرين الثاني ١٧٩٦ انضممنا إلى قافلة متجهة إلى كرمنشاه، وغادرنا إلى أصفهان، وذهبنا للمبيت في خان يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من أصفهان.

كانت هذه القافلة مكونة من مائة من الجياد تقريبًا، محملة بقماش الموصلين، والأقمشة الهندية، وشالات كشمير وكرمان، وسجادًا، والعديد من الأقمشة المصنوعة في يزد وأصفهان، وكان بينها أيضًا بعض أكياس التبغ، وبعض أكياس فوة الصباغين، والقليل من الأفيون والمصطكي، والعنبر والعقاقير المختلفة من وسط فارس ومن النواحي الشرقية.

وجميع هذه البضائع متجهة إلى كرمنشاه وهمذان وبغداد.

وفي ١٣ كانون الأول وصلنا إلى شهربان في سبع ساعات، ثم وصلنا بعقوبة في ١٤ كانون الأول في عشر ساعات.

وقد لاحظت أن الناس يزرعون الحنطة في كل مكان بواسطة محراث شبيه بالمحراث المستعمل في بروفنس، وكان مجهزًا بثورين.

وعند شروق شمس الخامس عشر من كانون الأول واصلنا المسير، وكان الضباب كثيفًا ورطبًا جدًا، ولكنه تبدد فور ارتفاع الشمس. عبرنا نهر ديالى بواسطة قارب، وبعد ست ساعات استرحنا في خان يسمى أورطه.

وفي الواحدة بعد منتصف الليل غادرنا الخان، وفي الساعة السابعة صباحًا دخلنا بغداد.

لم نكن ننوي البقاء في بغداد مدة طويلة، حيث كنا متشوقين كثيرًا للعودة إلى وطننا، وكذلك كان أقرباؤنا وأصدقاؤنا، كما كانت مصلحتنا تقتضي العودة إلى فرنسا في أقرب وقت، فالواجب يدعونا إلى باريس، فكيف يمكننا الصمود أمام هذه الدوافع؟

لقد رأينا في هذه البلاد العديد من المناطق القبيحة، إلى جانب ماضيها، وهذا لا يبشر بأمل كبير في المستقبل، بينما تمثل في الحاضر جنسنا البشري في واقعه الأشد تعاسة.

قضينا وقتًا طويلاً تحت أنظار الأتراك والعرب والفرس وشعوب مظلومة تعيش بينهم في ذلك.

ولاحظنا أن الأشخاص غير المثقفين، أو غير المعتادين على التفكير يفرطون في استعمال كل شيء عندما تصبح السلطة بالولادة، أو لامتلاك شيء ما بين أيديهم.

وكان علينا أخيرًا الابتعاد عن بلد العواصف والعذابات، والتمتع براحة أصبحت ضرورية جدًا لأحدنا.

إن الشعور بالألم الذي يصيب كل إنسان حساس في كل خطوة يخطوها داخل هذه المناطق التي يفسدها الاستبداد والظلم، وحيث التعصب يحد أسنانه، ولا تسبب القوة فيه سوى الدمار، والخوف سوى الهرب والإهمال، وللحق أقول إن هذه الشرور لا يصفها إلا من مر بأوربا، ولا يقدرها إلا من سافر إلى أماكن تتنازل فيها القوة للعقل.

وهذه الشرور لا تؤثر فقط على النفس، وإنما تؤثر أيضًا على الجسد، وكيف لا نتألم، ونحن نسافر في بلد لا مأوى لنا فيه سوى خيمة أو غرفة بلا مدخنة، أو أي أثاث، وليس بها حتى سرير، فلا بها سوى سجادة أو فراش رقيق موضوع على الأرض، أما الطعام، فعادة ما يكون مجرد فواكه أو لحوم خشنة معدة بطريقة سيئة، وغالبًا لا تجد سوى من تصطحبهم معك، وكل هذه المساوئ يصاحبها الأخطار والأمراض، التي تهددك وتهدد كل من يشاركوك في هذه الرحلة.

لم نكن في حاجة مادية لمتابعة طريقنا، وكان بإمكاننا أن نعود من حيث أتينا عبر كركوك والموصل، ونصيبين، وحلب. أو أن نمضي مباشرة إلى القسطنطينية عبر الموصل، الجزيرة وديار بكر، وكنا أيضًا نستطيع الالتحاق بقافلة عرب لنقطع بصحبتهم القسم الشمالي من الجزيرة العربية.

هناك قافلة تغادر بغداد كل عام متجهة إلى حلب، وأخرى إلى دمشق، وأحيانًا تغادر قافلتان إلى حلب، وعادة ما يكون ذلك في الشتاء أو في أوائل الربيع.

وأيضًا في كل عام تغادر قافلة من البصرة إلى بغداد، وتكون مكونة من عرب قبيلة نجدية، وتضم ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف من الإبل، لتنقل ألف أو ألف وخمسمائة منها البضائع إلى بغداد.

وقد علمت أن هؤلاء العرب يسيروا على طول الضفة اليمنى لنهر الفرات صعودًا حتى الحلة، وبعدها يرسلون في طلب تجهيزهم ببضائع، ثم ينطلقون من الحلة إلى حلب، عبر صحراء العرب الصغرى، ويبيعون جمالهم في مدينة حلب، ولا يحتفظون إلا بما يحتاجون لعودتهم، وإذا لم ينجحوا في بيعها كلها يحملونها البضائع، مشكلين بذلك قافلة صغيرة تتجه نحو البصرة أو بغداد.

وجميع هذه القوافل بها جمال ذات سنام واحد، وما عدا هذه القوافل، تتكون قوافل أخرى صغيرة مرتين أو ثلاث مرات في الشهر تتجه إلى الموصل، وعادة تتكون من ثلاثين أو أربعين حمارًا لحمل البضائع التي تنتشر هناك في أعالي كردستان، وأرمينيا، وجميع أنحاء آسيا الصغرى.

وبخلاف هذه القوافل توجد قافلتان تنطلقان سنويًا إلى القسطنطينية، وتتكون من مائة وخمسين أو مائتان من البغال، وتقطع هذه المسافة في أكثر من أربعة أشهر.

وبخلاف وسائل النقل هذه، فعادة ما تنقل الأقمشة الهندية الأكثر جودة، والموصلين الفاخر، وشالات الكشمير والآلئ، والأحجار الكريمة إلى القسطنطينية بواسطة السعاة (التتر) علمًا بأن تكاليف نقل هذه البضائع تزيد عن خمسة أو ستة قروش للأوقية.

وفي العام الواحد لا يرسل أقل من خمس أو ست رحلات تترية، وعادة تزيد عن هذا العدد.

أما المسافرون المتمتعون بحماية خاصة فيحصلون من الباشا بكل سهولة على أمر يقتضي بموجبه أن يحصلوا على حصان أو أكثر لقطع الطريق... وهكذا يكون سفرهم بالمجان، وليس فقط بالنسبة لطعامهم؛ بل بالنسبة للعطاءات والرسوم التي يلزمون بتقديمها خلال الطريق.

لم ننتظر كثيرًا، فسرعان ما تكونت قافلة متوجهة إلى دمشق في أواسط كانون الثاني، وبمجرد علمنا بهذا الأمر، بدأنا التعامل مع أحد رؤسائها، لكي يجهزنا بالجمال التي نحتاج إليها.

وألزمناه بالمرور على تدمر والبقاء بها، حتى نتمكن من الإطلاع على أطلالها.

وفي أوائل شباط كنا جاهزين تمامًا للرحيل، ولم يعد أمامنا سوى انتظار موعد الرحيل.

رغم استعدادنا للرحيل، إلا أننا وللأسف الشديد كلفنا بتولي علاج أغا الينجرية الذي كان يشكو من مرض معوي مزمن منذ عشرين عام، وقد فشل في علاجه العديد من الأطباء العرب والفرس، وعندما حان وقت تحرك القافلة كان الأغا قد قطع رحلة كبيرة في الشفاء، وكنا ننوي أن نعهد به إلى طبيب فرنسي مقيم في بغداد ليكمل ما بدأناه.

وكنا على ثقة بأن مرضه المزمن هذا سوف يختفي تمامًا بفضل العلاج الذي وصفناه له، إذا استمر في تناوله فترة كافية بعد مغادرتنا للبلد.

لكن كان للمريض رأي آخر مخالف لرأينا، فحيث إنه فشل عدة مرات في استعادة صحته، وكان يخشى أن يفشل مرة أخرى، فقد قام بإخبار كل من حولنا بأن القافلة لم تتحرك نحو الشام، واستمر في هذا الادعاء الكاذب حتى أصبحت القافلة في وسط الصحراء، ولم تكتشف هذه الخدعة إلا بعد انتهاء العلاج، وبعد أن أصبح الأغا في كامل عافيته.

أثناء معالجتنا له، علمنا باقتراب وصول مرتضى قولي خان، وقد ذكرنا من قبل أنه قد لجأ إلى روسيا حتى لا يجده أخيه محمد، وكان قد كتب من كركوك إلى باشا بغداد يرجوه أن يحميه حتى يعقد الصلح مع أخيه، وحتى يسترد حقوقه.

كما ذكر في رسالته أنه يفضل أن يعرض حياته لآلاف الأخطار مجتازًا الصحارى وبلاد اللاز وأرمينيا، على أن يبقى بين أشخاص غير مؤمنين.

وعلمت أنه لا يحمل أي شيء، وليس معه سوى خادمين، وادعى بأن الأكراد قد سرقوه، وقتلوا رجاله وفرقوهم كلهم، ولحسن حظه صادف أحد خدام والده القدامى الذي أعطاه بعض الثياب

وثلاثة جياد وخادمين، وجهزه بالمؤن التي ساعدته حتى يصل إلى حدود تركيا – الدولة العثمانية-.

أعطى باشا بغداد أوامره بأن يقابل هذا الرجل بكل احترام، وأن يزود بكل الاحتياجات حتى يصل بغداد.

ولكنه أظهر أيضًا أن علاقاته الجيدة مع ملك فارس، ستجبره على تسليم أخيه إليه إذا طلب منه، ولذلك فقد أرسل إليه بسرعة ساعيًا (تتريًا) ليخبره بأمر أخيه.

وقع مرتضى قولي خان على الشروط التي وضعها الباشا لكي يستقبله، وهكذا ففي ٤ آذار / مارس عام ١٧٩٧، وصل مرتضى إلى بغداد.

استقبل الباشا مرتضى بالاحترام اللائق بأخ ملك، وأهداه جملة من الجياد النفيسة، وألبسه رداء جميل، وأرسل له أيضًا ثياب فاخرة، ومقدار جيد من المال، وأسكنه عند مصرف أفندي، أحد موظفي الباشا الكبار، وقابله في ديوانه بكل مراسيم الأكرام المتبعة في هذه المناطق.

مرت الأيام دون أن يشك أحد في هوية هذا الرجل، ودون أن يمسه أي مكروه، إلا أن بعض الناس كانوا يتذمرون من إعطاء أهمية كبيرة لا تليق بشخص كهذا، إلا أنه ابن محافظ وأخ لرجل اغتصب عرش فارس، كما أنه يعيش على نفقة الباشا، رغم أنه قد يعزل أخيه ويحتل مكانه.

وجميع هذه التصرفات جعلت هذا الرجل يحاول اكتساب ثقة الأسياد الموجودين في بغداد، وهذا ما سيزيل جميع هذه الظنون.

كما أن الباشا لا يحب أن يتعرض للخيانة، فهكذا كان ينبغي على هذا الغريب أن يفعل، حتى يعود الساعي من فارس، أو حتى يحدث شيء يكشف أمره.

شعر علي أغا صهر سليمان ورييبه، بإهانة كبيرة لأن هذا الغريب احتل مكانه وحظي بالاحترام والمكانة التي كانت له وحده، لذا امتنع عن زيارته، محتجًا بأنه لا يدين لأحد بالاحترام سوى الباشا.

ولم يكتفِ بذلك؛ بل قرر أن يثير الشكوك حول أصل هذا الرجل الهارب والمتوسل، والذي لا قيمة له بين سادة الفرس، وبدأ يخطط لحرمانه من عطف وكرم الباشا، فقال بكل ثقة أن هذا الرجل ليس من يدعي، وأنه يجب أن يرسل إلى فارس وسط حماية كبيرة، لينال عقابه من ملك فارس.

ولسوء حظ هذا الرجل، فقد اتضح أن هذا القول صحيح، وأثبتت التحريات أنه ليس سوى رجل إسكافي من همدان، كان غائبًا عن المدينة لمدة خمس أو ست سنوات، وهكذا لم يكن صعبًا على الكهية انتهاز الفرصة والحصول على أمر يلزم كل الفرس المقيمين في بغداد ليتحققوا فيما إذا كان هذا الرجل صادق أم كاذب.

وبالفعل جاء كل من رآه منهم في السابق، واجمع الكل على أنه ليس مرتضى، كما قال العديد من الفرس المولودين في همذان أنهم شاهدوه يعمل في همذان كإسكافي.

وبناءً على ما توصل إليه الباشا، فقد قام بتوثيقه في سلاسل، في ١٣ من آذار / مارس، وقاده إلى

أغا الانكشارية، وفي نفس الوقت أرسل بريدًا آخر إلى محمد ليخبره بالمستجدات.

وقد رأينا هذا الرجل بأنفسنا، وهو جميل الرأس، مهيب الطلعة، ويتمتع بنظرة قوية، وملامح معبرة، ويبلغ عمره حوالي خمس وأربعين عامًا، وبدا عليه أنه مثقف، كما كان يتمتع بروح ومعرفة ليس بوسع رجل في حالته الأولى أن تتيحها.

فرغم السلاسل التي في يده، وثقة الجميع من خداعه وكذبه إلا أنه أصر على أقواله الكاذبة، وظل يتصرف بكل اعتزاز وثبات، بحيث لا يترك المرء يستسلم لفكرة أنه ليس مجرد إسكافي.

وخلال إحدى زياراتنا لأغا الانكشارية، ظن أنه سيوجه لهذا الغريب ضربة قاضية، فأمر أن يؤتى به.

وبمجرد حضوره أمامنا، قال له الأغا بالتركية، التي كان الفارسي يتقنها التالي:

(بما أنك قد قضيت عدة سنوات في بلاد الروس، فلا شك أنك قد تعلمت لغتهم، وهذا طبيب من هذه البلاد، فأخبره كيف غادرت استراكان ووصلت إلى بغداد).

لم ينطق الفارسي بأي كلمة، فحدثناه نحن بالفارسية، فنظر إلينا باحتقار شديد، واتجه نحو أغا الانكشارية على الفور قائلاً:

(أتظن أنه بوسع مسلم أن يتعلم لغة غير المؤمنين، لقد بقيت وقتًا طويلاً معهم لكي يسلم رأسي من ضربة حديد عدو، إلا أن قلبي كان في فارس، ونفسي بصحبة علي رضي الله عنه، ومحمد صلى الله عليه وسلم، أخبر هؤلاء غير المؤمنين أنني حتى لو تعلمت لغتهم، لن أتوجه بالكلام إليهم، ولن أتنازل لأجيب عن أسئلتهم.. ويكفيني أنني تنازلت وأتحدث معك).

وهكذا لم يستفد أغا الانكشارية أي شيء، فأرسل مرتضى المزعوم هذا إلى سجنه، ولم يخرجه منه حتى عودة السعاة المرسلين إلى محمد ملك فارس...

ولم يشأ سليمان باشا معاقبة رجل سبق أن عامله بكل احترام، لذا اكتفى بأمره أن يغادر على الفور إلى فارس.

وقد انتشرت هذه المغامرات وأمثالها بكثرة، منذ أن فقدت فارس ملوكها الشرعيين، وآلت من وقت إلى آخر إلى الفوضى، وهكذا إلى اضطرابات عديدة نتيجة لذلك.

الفصل الحادي عشر

محتويات هذا الفصل

السفر من بغداد عبر بلاد ما بين النهرين والساحل الأيسر للفرات، الإقامة قرب بئر، حشرات مزعجة، عرب مخيمون، وصف هيت، حور من نوعية خاصة، عبور النهر أسفل عانة، وصف هذه المدينة، طريقة سفر الأعراب في هذه الربوع، سلحفاة الفرات.

لم تكن القافلة المتجهة إلى دمشق قد تحركت بعد، حيث بدءوا يفكروا في تشكيل قافلة أخرى أكبر منها لتتجه نحو حلب، وعندما علمنا ذلك، بدأنا التعامل خطيًا مع أحد زعمائها حتى يجهز لنا خمسة عشر جمال نحتاجهم بشدة، فقد كنا ستة أشخاص.

كان صديقي بروكيير مرهق وهزيل، ولا يستطيع امتطاء الخيول، لذا اتفقنا أن يقفل عليه في هودج، وهو عبارة عن قفص يوضع من طرفي ظهر الجمل أو البغل، ولكنه غير مريح، حيث إن الراكب به يبقى متقوسًا حتى يخرج منه.

وفي الطرف الآخر منه ركب راهب من نابولي، كان عليه أن يكون مترجمًا لنا، أما حصان بروكيير فقد امتطاه الخادم الأرمني الذي أخذناه من بغداد، وشاركه في ذلك طباخ بندقي كان عائدًا إلى وطنه، وشاب فرنسي مولود في بغداد كلفنا بإيصاله إلى باريس حتى يتابع دروسه في الطب والجراحة، وقد امتطى هو الآخر حصان مثلي.

أما باقي الإبل، ما عدا جمل بروكيير، فقد كانت تحمل صناديقنا وأمتعتنا وخيمتنا، والمؤن والطعام، وظروفنا الجلدية، وعلف جيادنا، وأحد خدامنا.

إن القوافل التي تشبه قافلتنا، المكونة من ألفي جمل، ومائة وخمسين عربيًا، وخمسين بندقية، وحوالي عشرين تاجر أو مسافر، لا تتشكل بسرعة، ولا تتحرك إلا بتأني وبطء.

فقد كان يجب أن تجهر للتحرك في أواخر آذار / مارس، ولكنها لم تتمكن من التحرك إلا في أوائل آيار.

وأخيرًا في الثاني من الشهر المذكور غادرنا بغداد، وأقمنا خيامنا في حياض ضاحية قرب باب الشيخ معروف، ولم نتوقف في مكان أبعد من هذا حتى يتمكن المغادرون معنا من إنهاء أشغالهم وتوديع أصحابهم.

ولذلك فقد قضينا في هذا المكان اليوم الثالث بأكمله، وفي صباح الرابع من آيار واصلنا المسير في ربوع ما بين النهرين.

على بعد فرسخ من بغداد عبرنا بالقرب من جامع الإمام موسى، وهو جامع جميل، ويعتبر من أكثر الجوامع اتساعًا في هذه المنطقة.

رأينا به قبلتان كبيرتان مكسوتان بقطع نحاسية مذهبة، وله منارة شاهقة الارتفاع مغطاة بطابوق مطلي بألوان متعددة، كما تظهر منها منارتان أخريان من الخارج.

بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف خيمنا في أرض مزروعة، ومكسوة بالحسك، والنجيليات،

والحضض، والسنط.

في هذا اليوم كانت الرياح قادمة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، والحرارة مرتفعة جدًا، والجو به ضباب ضئيل جدًا، وهذا ما يحدث عادة في هذا الفصل من العام، ورياح تهب من الجنوب، أما محرار ريامور الذي لم يصل في الأيام السابقة إلى ٢٤ درجة، فقد وصل الآن إلى ٣٠ درجة.

في اليوم الخامس من آيار سرنا خمس ساعات في اتجاه هيت، أي في اتجاه الشمال الغربي، وكان الصباح رطبًا وهادئًا.

وفي حوالي الساعة التاسعة هبت الرياح من الجنوب الغربي، وعلى بعد عشرة أو أحد عشر ميلاً تقريبًا إلى الشمال الغربي من بغداد، رأينا أثناء سيرنا أكوام حجارة وأنقاض بدا عليها أنها بقايا مدينة صغيرة.

وقد لاحظت أن مسيرتنا التي تقدر بفرسخ أو ٢٥٠٠ (تواز) في الساعة، عندما تكون ضمن قافلة تتكون من الخيول، لا يمكنها أن تكون من بغداد إلى حلب سوى ميلين في الساعة، وذلك لأن سير الجمل ضمن القافلة يكون بطيء.

في اليوم السادس من آيار وبعد مسيرة ساعتين تركنا الأراضي الرسوبية، ووجدنا الأرض ترتفع فجأة بضعة أمتار، وأصبحت الأرض رملية وحصوية.

وقد جمعنا نباتات كثيرة مثل: لبلاب شوكي ذو أزهار صغيرة بيضاء وأوراق وبرية، وقصب مختلف عما في مصر، وربد (عين الثور) جميل رسمناه، وقد وصفه السيد فنتانه ورسمه في الكتاب الذي ذكرناه عدة مرات من قبل.

بعد مسيرة اثني عشر ألف (تواز) في اتجاه أكثر إلى الغرب، خيمنا بالقرب من بئر ذو ماء مالح لا يصلح للشرب، وبقينا عناك ثمانية أيام، منتظرين انضمام خمسمائة أو ستمائة جمل للقافلة.

وطوال هذه المدة عانينا كثيرًا من آثار شرب هذه المياه، حيث كانت تلين البطن وتضعفنا باستمرار، حتى أن الأعراب قد تأثروا بشدة كما تأثرنا نحن، وازداد الأمر سوءًا في الثالث عشر من آيار عندما هبت الريح باتجاه الجنوب الغربي، وأصبحت الحرارة لا تطاق.

حتى أن المحرار تحت الخيمة صعد إلى ٣٣ درجة في يومي ١٢ و ١٣ آيار، واستمر الحال هكذا طوال النهار.

بدأت بعض الجنادب الصغيرة التي لاحظناها عند وصولنا إلى هذا البئر تنتشر بكثرة في الأيام الأخيرة، حتى أنها تكاد تغطي الأرض، وكانت تدخل خيامنا، وتقفز علينا بالآلاف، وأحيانًا كانت تلسعنا عندما نبعدها، بل وكانت تأكل طعامنا وتغرق في شرابنا.

كنا نرى هذه الحشرات على أنها حصيلة موجة تلك الحشرات التي شاهدناها تجتاح بغداد في أوائل نيسان / أبريل، والتي انهال معظمها على المدينة، وانتشر في الحقول المجاورة.

وقد شرحنا جزء منها في الفصل الرابع عشر من المجلد الثاني.

أما في المساء، فكانت تأتي حشرات أخرى لتحل محل هذه الجنادب، وهي أيضًا ليست اقل إزعاجًا، بل إنها أكثر إزعاجًا وأبشع شكلاً، إنها ترجع إلى النوع الذي أثبته (بالا) في (الموسوعة

المنهجية) تحت اسم (خدرنق).

يعتبر العرب هذه الحشرات سامة جدًا، حتى أنهم كانوا يخشون لمسها في البداية، وعندما أخذنا احتياطاتنا حتى لا نتعرض للسعاتها، بدءوا يقصوا علينا روايات مخيفة عنها.

حيث أخبرونا أن المكان الذي يتعرض للسع، ينتفخ للغاية، ثم يسود بسرعة، ثم يتسمم الإنسان ويموت.

وهذا الرأي يصدقه أهالي مصر، ووسط فارس أيضًا.

ويذكر السيد بالا عدة حالات تتعرض للموت بسبب لسعه هذه الحشرة، وقد رآها بنفسه، ولكنها لا تقتل عندما يتم علاجها بسرعة، ويذكر أيضًا أن الزيت والمواد الدهنية الأخرى أفضل علاج لهذه الحالات.

وبالرغم من تأكيدات العرب والمصريين، وكل السكان الذين توجد لديهم الخدران، وبالرغم من رأي السيد بالا نفسه، إلا أنني أشك في هذه الآراء وأشك أن هذه الحشرات سامة كما يقولون، فهم أيضًا يعتقدون أن العقرب سام في بلاد فارس، وكذلك في إيطاليا بالنسبة للرتيلاء، وكذلك يقولون عن أبي بريص الذي يعيش في البيوت أو الخرابات القديمة، في جميع بلاد الشرق وفي وسط أوربا، وكذلك ينظرون للسقنقور في مصر وكريت.

لقد لاحظنا انتشار الخدران بشدة في فارس، وفي جزيرة ما بين النهرين، وكذلك في جزيرة العرب.

وكانت هذه الخدران تركض فوقنا كل مساء، وعلى أمتعتنا ومائدتنا، وحتى على أسرتنا بسرعة شديدة، بدون أي توقف.

ورغم ذلك إلا أنها لم تلسع أي شخص منا، ولم نسجل أي حادث موثوق يؤكد أن هذه الحشرة خطرة كما يقولون.

ومن المؤكد أن لسعة الخدرنق يجب أن تكون مؤلمة للغاية، خاصة إذا حكمنا عليه من خلال الملقطين القويين التي يتسلح بهما فمها.

ولكن هل هذه اللسعة يصاحبها إفراز من الفم مثل الأفاعي؟ يبدو أن فحص فم هذا الحيوان لا يثبت هذا الرأي.

تختفي هذه الحشرات خلال النهار، ولا تظهر أبدًا إلا في الليل، ويبدو أنها تنجذب نحو الأضواء من ضوء الشمعة أو الشعلة، وذلك لأنها كانت تأتي إلى خيمتنا، وهي الوحيدة التي كانت مضاءة.

وعندما كنا نطفئ الأنوار، كانت تختفي ولا يبقى منها سوى القليل، ويبدو أن النوع الأكثر انتشارًا، هو النوع الأسرع (الشكل ٤٢، الرقم ٣)، وهو يشبه النوع الذي شاهده بالا في شمال بحر الخزر، ووصفه تحت اسم Phalangium Araneoides في كتابه السابق ذكره.

أقدامه صغيرة جدًا، وجسمه مكسو بالكامل بالفرو، ولونه رمادي مائل قليلاً للحمرة، أما الأيدي فمكسوة بأهداب بشكل كامل، ومسلحة بأسنان حادة.

وقد حصلنا أيضًا على نوع آخر (الشكل ٤٢، الرقم ٤) يندر رؤيتها هناك، وهذا النوع أقل سرعة من الآخر، حيث إن أقدامها أقصر من الأولى مرة أو مرتين، وجسمها مكسو بالفرو، ولكنها

بنفس لون الأولى.

ولكن يديها حمراوان بلون الحديد (المحمي)، وأسنانها أخف، ويلاحظ في الطرف الداخلي من الجزء الأعلى دبوس مقوس، معوج، ومتحرك، وهذا غير موجود في النوع السابق.

وقد رأينا أيضًا في أطراف خيمتنا خدرنقين ليس بينهما سوى فرق طفيف وبوسعهما أن لا يكونان نوعين مختلفين، كالسابقين وأظن أنهما نوع واحد.

فنجد النوع الأول (الشكل ٤٢ الرقم ٥) ذو جسم أسود داكن، وقدمان قصيرتان مغطيان بالفرو، ودبوسًا مقوسًا، معوجًا، ومتحركًا في الطرف الداخلي من اليدين .

أما النوع الثاني (الشكل ٤٢، الرقم ٦) فمن المؤكد أنه أنثى، لها قدمان قصيرتان جدًا، ومكسوتان بالفرو، وجسمها اسود، ويداها مسننتان، وليس لها دبوس جانبي.

في اليوم الرابع عشر من آيار هبت الريح باتجاه الغرب، واستمر هبوبها طوال النهار بقوة شديدة، حتى أننا لم نستطع ترك الخيمة حتى نطهو الطعام.

لم تكن الحرارة شديدة كما كانت في الأيام السابقة، ولكن المحرار كان يشير إلى ٣٠ درجة.

وفي الخامس عشر من الشهر، واصلنا المسير، وبعد مسيرة ساعتين ونصف في طريق غير مستوي، ومكون بالكامل من الحصى.

خيمنا بالقرب من بئر ذو ماء سيء مثل البئر السابق تقريبًا.

وفي ١٦ منه اتجهنا كالعادة نحو الغرب، وبعد أن قطعنا ستة أميال تقريبًا، لمحنا نهر الفرات من بعيد، وأقمنا خيامنا بالقرب من ترعة قديمة، وقد بدت الأرض عبر النهر محروثة، وأكثر ارتفاعًا من تلك التي كنا فوقها، وقد قدرناها ببعد سبعة أو ثمانية أميال.

أقبل علينا بعض الأعراب المخيمون في الأطراف، وقدموا لنا بعض الحليب والزبد (لبناً) والجبن.

بقينا يومين في هذا المكان منتظرين بعض حمولات البضائع التي كانت قد تركت في بغداد، ولم يتمكنوا من حملها حينها بسبب قلة الجمال.

وصلت هذه البضائع إلينا في ١٨ آيار، وفي ١٩ منه واصلنا المسير، وقطعنا حوالي تسعة أميال، وفي العشرين منه قطعنا ثمانية أميال، وخيمنا على بعد نصف فرسخ من ترعة قديمة.

وهنا تنتهي الأراضي الرسوبية، وتبدأ المنطقة الثالثة من بلاد ما بين النهرين التي سبق ذكرها.

ينساب نهر الفرات في وادي يبدو أنه محفور حتى يتخذ النهر مجراه فيه، وهذا الوادي عريض في بدايته، لكنه يصبح أضيق كلما صعدنا في النهر، ويكاد يبلغ أربعة أو خمسة أميال عرضًا عند اقترابنا من هيت.

وهذا الوادي مغطى في كل أرجائه بأرض خصبة جدًا، ناجمة عن الترسبات التي حملها النهر إليها، أما الأراضي التي تلى ذلك، فكما قلنا سابقًا عميقة، أي أنها ليست صالحة للزراعة.

فهي أرض غير كثيفة، وقليلة العمق، ومشوبة بالبياض، ومخلوطة بملوحة زائدة، وتقع في كل مكان تقريبًا فوق طبقة كلسية.

وعادة نجد الأرض مستوية، فلا يظهر فيها جبل أو تل إلا عندما يكون المرء في حوض الهر، وحينئذ يشعر المرء وكأنه بين ساحلين أو تلين متوازيين.

نعتقد أن هذه الأرض فيها من النجيليات، والحسك، إلى جانب بعض النباتات الدسمة مثل الحرض (الشوك الأحمر)، والأشنان.

في الحادي والعشرين من آيار سرنا خمس ساعات في أنحاء الجزيرة، وخيمنا على بعد نصف فرسخ من نهر الفرات بالقرب من غابة تمر هند، مثل الغابة التي رأيناها، حيث إن تمر الهند مرتفع هنا كالشجر، لكننا لم نجد في هذا المكان نباتات كثيرة نستفيد منها، فقد كانت الصحراء أغنى بكثير من هذا الحقل المليء بالورود.

بقينا في هذا المخيم يومي ٢٢ و ٢٣ من الشهر وذلك لأن شيخ القافلة قد تغيب عنا منذ يوم ٢، حيث ذهب لشراء بعض الجمال التي نحتاج إليها لنقل الماء، فانتهزنا هذه الفرصة وذهبنا إلى قبيلة عربية خاضعة لباشا بغداد، للإطلاع على أحوالها، وقد كانت هذه القبيلة مخيمة في تلك الأطراف.

لم يكن موقع هذه القبيلة أبعد من نصف فرسخ عن موقعنا، وعند اقترابنا منها رأينا خيمة الشيخ، حيث إنها أكبر خيمة، وتوجهنا إليها مباشرة. وفي المدخل استقبلنا بعض الخدم، وأخذوا جيادنا ليهتموا بها.

كانت خيمة الشيخ واسعة جدًا، ومصنوعة من نسيج صوفي أسود، وبابها مفتوح نحو الشمال، ومرتفعة بنحو ثلاثة أو أربعة أقدام من طرفي الشرق والغرب.

والنساء في الجانب الأوسط، ويفصل بينهم وبين الخيمة حاجز، وكان الشيخ جالسًا على سجادة بالقرب من عمود يسند الخيمة، وبالقرب منه، رأينا بغلته بالقرب من الحاجز، إلى جانب رمحه وعدة النزال.

وعندما دخلنا ألقينا عليه التحية، فرد التحية بدون تكلف، ودعانا للجلوس على السجادة التي فرشوها لنا بمجرد دخولنا، جلسنا وحيياناه مرة ثانية، وبعد فترة من الصمت، أعلن أحد العرب المرافقين لنا للشيخ هويتنا، فحيانا الشيخ، واهتم باستقبالنا بالقدر الذي نستحقه.

وبمجرد إرسال الأوامر إلى الحريم، تحركت جميع النساء، وأرسلن صحن حليب غنم معد من قبلهن، ثم أرسلن الغليون بعد قليل، وأشعلن النار لتحميص القهوة، وعمل الخبز، بل وذبحن خروف صغير وقطعنه ليعدونه للعشاء.

وصلت القهوة إلينا بسرعة، أما العشاء، فقد تأخر إذ لم يكن بالإمكان تجهيزه بسرعة، وفي انتظارنا للعشاء، كان شيوخ القبيلة يتوافدون على الخيمة، حتى اجتمعوا كلهم خلال ربع ساعة، وقد كانوا حوالي ثمانية عشرًا أو عشرين شيخ، لهم لحى طويلة، ويضعون حول رؤوسهم شالات من قماش قطني، وثوب مسترسل ينزل حتى الركب، وفوقه عباءة.

وقد لاحظت أنهم حفاة الأرجل، وعراة اليدان، ويمكنهم أن يغطوا أيديهم بأكمام الثوب الطويلة، ولكنهم يقوموا بطيها للخلف، ويتركوا الأيدي طليقة، ويبدو أنهم قد هيأوا أنفسهم هكذا للمناسبة، وضعوا الخناجر في أحزمتهم.

كانوا يحيون عند دخولهم الخيمة، ويجلسون في الطرفين المرتفعين من الخيمة، ويعيدون التحية بعد جلوسهم، متوجهين إلى الشيخ أولاً، ثم يتوجهون إلينا.

وهم لا يتحدثون كثيرًا، ويمتدحون الباشا من وقت لآخر، وبكلمات قليلة، بل ويحمدون الله ونبيه محمد r ألف مرة لأن الباشا استعاد صحته تمامًا، وأخذوا يسألوا عن صحته مرات عديدة، وإذا كنا سنبقى في حلب كثيرًا، وإذا ما كنا سنلقي بسهولة الأدوية التي يحتاجها الباشا.

وقد سألونا عن هذه الأمور لأن أفراد القافلة كانوا ينظرون إلينا كحكيم باشي أو رئيس أطباء سليمان باشا.

وكانوا يعتقدون أننا نذهب إلى حلب لنحضر بعض العقاقير والأدوية التي كان الباشا يحتاجها من أجل علاجه.

وبعد مضي ساعتين قدموا لنا العشاء المكون من صحن مليء بالأرز واللحم، وبعض المشوي مع لحم خروف مقطع قطعًا ومطهو بشكل جيد، وصحن تمور من النوع الممتاز، وخبز حار معد على الرماد، وقدح ماء، وبعض الملاعق الخشبية.

وجميع هذه الأصناف موضوعة على إناء نحاس مدور وقطره قدم ونصف، ووضعوه فوق إحدى السجاجيد.

أكلنا بسرعة، ولم نتحدث أبدًا، تناولنا الطعام باليد لكي نتكيف مع عاداتهم، وبعد انتهائنا من الطعام، قدموا لنا ماء ومنشفة لغسل وتنشيف أيدينا وفمنا، ثم قدموا لنا القهوة والغليون.

وبعد قليل انسحبنا ورجعنا إلى موقع خيامنا.

وفي المساء أرسلنا للشيخ بضع ليبرات قهوة وسكر، ويبدو أنها أعجبته كثيرًا.

لم يكن أفراد هذه القبيلة كثيرون، ويبدو أنهم ليسو أغنيا أيضًا، وقد لاحظت أن خيامهم حوالي ثلاثين خيمة، ولم نشاهد لديهم أي حيوانات سوى الأغنام، ويمكنها تجهيز حوالي خمسين رجل يمكنهم استخدام الرماح، ومن بينهم خمسة عشر أو عشرين فارس.

ويرجع أصل هذه القبيلة إلى قبيلة بني لام، التي تشغل مساحة كبيرة في الجزء الصحراوي من بلاد ما بين النهرين، وتمتد حتى شمال دجلة.

في الرابع والعشرين من آيار سرنا ثلاث ساعات، وفي الخامس والعشرين سرنا ثلاث ساعات ونصف.

كنا بالقرب من السهل الممتد من الصحراء إلى النهر، بحيث كان الطريق أقل أو أكثر من فرسخ بعدًا عن النهر، رأينا بقايا ترعة قديمة وعريضة جدًا، وقد اعتقدنا أنها هي نفسها التي شاهدناها في الأيام السابقة، وعلمنا أنها لا تمتد حتى هيت.

أما النهر الذي كنا نراه بوضوح في أرض مرتفعة قليلاً كنا نسير عليها، فكان ينقسم هنا ليشكل جزيرة واسعة جدًا.

أردنا الاستراحة قليلاً، فنزلنا السهل عبر موقع كان قد استخدم سابقًا لاستخراج نوع جيد من الجبس، وتوقفنا على بعد ربع فرسخ من الفرات، وفرسخ ونصف من هيت.

وقد لاحظنا عدة مرات أن حجر الجبس (الرخام) موجودة في كل المنطقة تقريبًا، ويتواجد هذا الحجر على عمق قليل في معظم الأراضي الغير مزروعة في بلاد ما بين النهرين.

وقد وصفنا هذا الحجر عند حديثنا عن المنطقة الثالثة، ويتواجد أيضًا في جميع أنحاء الجزء الذي قطعناه من أراضي غرب الفرات، وهذا الأمر يوضح سبب ملوحة مياه آبار الجزيرة.

ذهبنا إلى مدينة هيت في المساء مع بعض تجار القافلة، ولاحظت أنها ليست ذات أهمية، كما كانت في السابق، وتقع على أرض مرتفعة على شكل قبعة، على الضفة الغربية من النهر.

ويبدو أنها كانت ممتدة بشكل كبير حول هذا المرتفع، ويعتقد أيضًا أنها تدهورت وأصبحت على حالتها الحالية بسبب الحروب الأهلية بها، بحيث إن معظم مدن هذه النواحي اختفت أو تضررت جدًا.

ولا يوجد بها الآن سوى ألف ساكن، وهم جميعًا من العرب المستقرين والمزارعين، منازلهم رديئة، وليس بها سوى طابق أرضي، ويتم بنائها من الصوان المثبت بالتراب.

ورأينا بها القليل من النخيل، ولكنها تضم الكثير من الحقول على ضفتي النهر، ولا يزرع بها سوى النباتات الزراعية وبعض البقول، وكان بها شعير تم حصده منذ عشرة أيام تقريبًا، أما الحنطة، فكانت قد نضجت، وكان الأهالي منشغلين في جمعها ودرسها مع التبن.

تروى هذه الأراضي بواسطة دولاب كبير يحركه ماء النهر، وبين مسافة أخرى ترى نواعير تأخذ الماء، ثم تصبه في القسم العلوي في مجرى مياه يحمله إلى الحقول.

وترى على النهر طوف عائم خصيصًا لعبور الأهالي من ضفة إلى أخرى.

تحمل نساء هيت الماء من نهر الفرات بواسطة سلال من القصب أو بجرة مطلية بالقار، وليس لديهم من بين أدوات المنزل شيء آخر يصلح لحمل الماء، وهذه السلال والجرار تدوم فترات طويلة، كما أنها تحفظ السوائل التي بها جيدًا.

أما ملابس نساء هيت، فجميع من قابلتهم في المدينة أو في الأرياف، يرتدون قميصا أزرق ذا أزرار يصل إلى أسفل الركبتين، وعصابة بيضاء تغطي الرأس والحنك والفم، وتترك باقي الوجه مكشوف، وتمتد هذه العصابة حول الرقبة، وتثبت إلى الخلف بواسطة كلاب، وتنحدر إلى وسط الجسم.

بينما تكون ملابس الرجال الاعتيادية بسيطة، ففي الصيف يرتدون قميص أبيض من قماش قطني يصل إلى الرجلين، وشال يلتف حول الرأس.

أما في الشتاء فيرتدون ثوبًا آخر فوق القميص يصل إلى الفخذين أو أطول بقليل، وللزينة يرتدون العباءة فوق الثياب كلها.

في السادس والعشرين من آيار واصلنا المسير، وعلى بغد فرسخ واحد من هيت، وربع فرسخ من النهر، شاهدنا أرض يستخرج منها القار بكثرة، خاصة في أطراف مدينة هيت، وبعد قليل دخلنا في الصحراء، وأقمنا خيامنا على بعد مائتي خطوة من النهر، بعد أن قطعنا حوالي اثني عشر ميلاً.

وفي السابع والعشرين منه، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف، خيمنا بالقرب من منحدر كلسي، ومن هذه المنطقة بدأت طبيعة الصحراء تتغير بالتدريج، وبدأ وادي الفرات يصبح أضيق

وأعمق.

وفي الثامن والعشرين، سرنا ساعتين خلال الوادي، ثم توقفنا أسفل منحدر كلسي يجعل نهر الفرات أكثر ضيقًا في هذا المكان.

ولأول مرة اليوم نرى حورًا جميل للغاية، وهو غير معروف لعلماء النبات، فرسمناه كما في الشكلين ٤٥ و ٤٦.

وهو يشكل في بعض الأنحاء عليقًا شديد التشابك، قد يظن أنه حسك لأننا لم نر خلاله أشجار ترتفع بقدر الحور الأوربي عندنا، وعند امتدادها تتخذ أوراق مختلفة عن الأوراق الأولى.

فالأوراق الأولى (الشكل ٤٥ رقم ١) كاملة، ومستطيلة، وضيقة ومسننة بعض الشيء في نهايتها، ولها ذيل صغير جدًا، وكلما ارتفعت للشجرة أصبحت الأوراق (الشكل ٤٥، رقم ٢) أكثر عرضًا، ويمتد زيلها وتصبح حافتها ملتوية تقريبًا ومسننة، وأوراق هذه الشجرة مثلثة تشبه الدلتا اليونانية ولها حافة مسننة في قسم منها، وملتوية في قسم آخر، وكاملة في عدد قليل منها.

وثمرتها ذات ثلاثة أصداف، ويبدو أنها من الداخل ليس بها بوابات وحواجز، وحبوبها دقيقة جدًا، وبيضوية، ومسطحة قليلاً، وقاعدتها محاطة بزغب قطني يتسع فيملأ الحقل كله، وفي أواخر شهر آيار كانت ناضجة.

في التاسع والعشرين من آيار، سرنا تسع ساعات فوق أرض غير مستوية، ورأينا في كل مكان رخامًا (جبس) جميل، كبير الشبه بذلك الذي يستخرج ويستخدم في أطراف الموصل.

وصادفنا أيضًا العديد من النباتات النادرة، مثل الكبر ذو الأوراق القطنية، وبعض الوسمة، والشيح أو الأبسنت المعطر الصحراوي، وكان هذا النوع منتشر في كل مكان.

وفي الثلاثين من الشهر لاحظنا تغير المرمر السابق ذكره إلى صخر جبسي ورخو، وبعد مسيرة أربع ساعات اقتربنا من النهر ونزلنا سهل متسع للغاية، وغير مزروع، وخيمنا على بعد ثلاثمائة خطوة من النهر.

وفي الأول من حزيران قطعنا منحدرًا شبيه بالمنحدر السابق، وبعد مسيرة أربع ساعات خيمنا على بعد ربع فرسخ من النهر.

وعلى ضفاف هذا النهر رأينا بعض المزروعات، ومن بينها الحنطة التي لم تكن قد نضجت بعد كما في هيت، ولكنهم بدءوا في حصادها.

وفي الثاني من حزيران لم نقطع سوى خمسة أميال، وخيمنا على ضفة الفرات، وكان النهر في هذا المكان أكثر اتساعًا وعمقًا وهدوءًا. جاءونا بقاربين من عانة، وفي الثالث من الشهر بدأت القافلة في عبور النهر، وقد استغرقنا في هذا العبور عشرة أيام.

في الثامن من حزيران قضينا طوال النهار في عانة، وهذه المدينة مشيدة في سهل، يقع على الضفة اليمنى (الغربية) من النهر، ولا يوجد بها سوى طريق واحد طوله خمسة أو ستة أميال، وبيوتها قائمة من الجهتين، ومنعزلة، ومتباعدة الواحدة عن الأخرى، وجميع البيوت يوجد في قسمها الخلفي حقل للزراعة، سواء كانت في الطرف الشرقي أو الغربي من البيت.

لا يوجد أكثر من خمسين (تواز) للبيوت على النهر في بلاد ما بين النهرين، بينما في أطراف جزيرة

العرب تبلغ المسافة بين البيوت والصخرة الكلسية التي ينتهي السهل عندها ثلاثمائة أو أربعمائة ومنها تبدأ الصحراء.

وعانة هذه مقامة بنوع أفضل من هيت، فالبيوت مشيدة على حسب أسس بناء، وجميعها تقريبًا مكونة من طابق أو طابقين، وللأسف لم أستطع تقدير عدد السكان الذين ما زالوا مقيمين بها، ولكنني أعتقد أنهم يزيدون عن ثلاثة آلاف، ولكنني سمعت أنهم في تناقص كل يوم، لأن المدينة ليست محمية، ولا تستطيع وحدها الصمود في وجه من يهاجموها من أعراب الجزيرة.

كما أنها بلا أسوار أو تحصينات، وهي خاضعة لأمير عربي يراجع باشا بغداد، وليس له أكثر من خمسة وعشرين شخص في خدمته.

وقد رأينا في الثلثين من عانة جزيرة واسعة وسط النهر، عليها بقايا قلعة كان اليونانيون قد شيدوها، ثم قام جوليان بتخريبها، ثم جددها العرب، ولكنها خربت مرة أخرى.

وعلى الطرف الشمالي من الجزيرة، وعلى مسافة أبعد منها كانت توجد صخور أو جزر صغيرة ترتفع بضعة أمتار فوق الماء.

وأمام هذه المدينة تجد النهر أصبح ضيق جدًا وأسرع من السابق، وتمتد الصخور الكلسية من جهة بلاد ما بين النهرين وحتى حافة النهر، ويشاهد تل آخر كلسي باتجاه جزيرة العرب، موازي ومشابه للأول.

أما في الجهة الأمامية فترى شريط أراضي أو سهل صغير تقع عليه المدينة، حيث البساتين والحقول المزروعة والتي قلنا في السابق أنها محاذية للبيوت، وهذا الشريط أعلى بكثير من النهر، وأعتقد أنه لا يوجد أي خطر عليه من الفيضان، حتى وإن كان شديد.

وكما ذكرنا سابقًا أن حقول عانة وبساتينها مخصصة للنباتات الزراعية والبقول، وعند مرورنا بها كانوا يحصدون الحنطة، ويزرعون بها أيضًا النخيل والتين، والمشمش، والرمان، والقليل من الكمثرى، والقليل جدًا من البرتقال.

ويحصلون على المياه، عبر دواليب كبيرة ذات رأس موضوعه على حافة النهر، كما يفعلون في هيت.

ونساء عانة يرتدين قميصًا واحدًا أبيض أو أزرق، وثوبًا طويل ذا أكمام فوقية.

ويضعن أيضًا عصابة بيضاء قطنية تنزل من الرأس قليلاً حتى تغطي الفم والحنك وجزءًا من الخدين، ثم يلفونها حول العنق، وتنحدر خلف الكتفين.

وجميع النساء تقريبًا يضعن حلقة ذهبية كبيرة في الأنف بين المنخرين، و وشم عبارة عن نقط زرقاء في الوجه، أما في الباقي فهم على أفضل حال، فبشرتهن سمراء داكنة، ولكن ملامحهن قياسية.

طوال المدة التي خيمنا فيها على ضفاف الفرات، كنا نرى عائلات عربية تدخل النهر، وتمضي للقيام بالحصاد، وجميعهم من زوج وزوجة وأولاد يستندون إلى قرب منفوخة، تاركين التيار يجرفهم، ويجدفون بأرجلهم، وبإحدى اليدين، عندما يريدون تعجيل حركتهم، أو تغيير

اتجاههم، ورأينا الأمهات يرضعن أولادهن من أثدائهن.

أما الأطفال الصغار الغير قادرين على السباحة مثل أبويهم، فتراهم متشبثين بكتف أمهم أو أبيهم، وذات مرة شاهدت سبعة أولاد يعبرون النهر بهذه الطريقة، وكانت مؤن السفر محفوظة داخل القرب، بينما كانت ملابسهم معقودة على رؤوسهم.

وكانوا كل يوم يجلبون احتياجاتنا من المدينة، وبما أننا كنا نبعد عنها بمسافة فرسخين، كما كان السير متعبًا، فقد كان الرجال يملأون إحدى القرب حتى نصفها بالمشمش أو الزبد أو الجبن، وأحيانًا الخبز أيضًا، وينفخونها جيدًا، ويركبون فوق إحدى القرب، ويسحبون الجميع في الماء حتى يصلوا إلينا، ولم يكونوا يقطعون هذين الفرسخين في ساعة حتى، وبعد انتهائهم من بيع هذه البضائع يرجعون مشيًا على الأقدام، وليس معهم سوى القرب الفارغة.

والعرب المقيمون هناك لا يعرفون وسيلة أخرى للسفر، عندما يريدون السفر إلى هيت، أو الحلة، أو بغداد، وعند وصولهم إلى بغداد، بالتقرب إليها أكبر قدر ممكن عبر الفرات، يواصلون الطريق بعد ذلك سيرًا على الأقدام، ويبيعون قربهم بربح يصل إلى خمسين أو ستين بالمائة، مما يوفر لهم حياة جيدة، حتى يجدوا عمل.

وهذه الطريقة في السفر لا تتبع سوى في الفصل الجميل، بحيث تكون المياه منخفضة، ولا يعرضون أنفسهم للخطر، ولأن يمكنهم من رؤية الصخور وجذوع الأشجار، وكل ما قد يمزق قربهم أو يؤذيها ويتجنبوه.

ومن المعروف أن هذا النهر لا يوجد به أي تمساح أو سمكة خطيرة، ومع ذلك فإن مياه نهر الفرات أقل خطورة في الصيف من مياه نهر دجلة.

لقد لاحظنا منذ وقت طويل، في نهري دجلة والفرات سلحفاة كبيرة، ولكننا لم نتمكن من الحصول على إحداها لأنها نادرًا ما تخرج إلى سطح الماء، وعادة لم يكن يظهر منها سوى طرف رأسها، وغالبًا كانت تتوجه إلى مسافة بعيدة عن الساحل، ولذا فقد اضطررت إلى الدخول في عمق النهر لأصيبها بإطلاقة بندقية.

وقد رسمت هذه السلفحاة في الشكل (١، رقم ١ و ٢)، ويطلق العرب عليها اسم (رفش) وهم يعتقدون أن لحمها غير صالح للأكل، بينما شحمها مفيد لعلاج الحزاز، والبثور الجلدية الأخرى.

ويبلغ طولها ثلاثة أقدام، أما ظهرها أو الجزء العلوي من الصدفة فيبلغ قدم أو سبع بوصات وعشرة خطوط طولاً، وقدمًا وبوصتين عرضًا.

وهذه الصدفة ناعمة ومحدبة قليلاً، وبيضوية، وفي مؤخرتها أعرض من المقدمة، ولونها أخضر داكن، ووسطها منفوخ، ومتين ذو حافتين جانبيتين، أما الجزء الخلفي فهو لين وجلدي.

والقسم السفلي من الصدفة أو البطن لا يبلغ سوى عشر بوصات وستة خطوط طولاً، وهو منفوخ، ومتين، وله امتداد غضروفي في الأطراف يمضي فيتصل بالقسم العلوي من الصدفة.

ويمكن للرأس بالكامل الدخول في الصدفة، أو أنه يمتد نحو قدم تقريبًا، وينتهي بشيء يشبه الخرطوم، وفكها العلوى يبتعد عن السفلي قليلاً، وبوسع السفلي أن ينطبق بدقة أكبر، وليس

للفكين شفاه، لكنهما مسلحتان يعرف عظمي صلب جدًا ومقوس كحدوة الحصان.

وعيناها بارزتان قليلاً من الأعلى، وتبعدان عن بعضهما حوالي بوصة، أما فتحتهما فتبلغ خمسة خطوط.

وعنقها يتشنج عندما يشد، وهو أضيق من الرأس عندما يكون بروزه تام، وأرجلها تدخل الصدفة بصعوبة، قدمتاها الأماميتان تبلغان سبع بوصات ونصف طولاً، وذلك بدءًا من حافة الصدفة وحتى منبت الأظفار، ورأينا فوقها خطان أو ثلاثة خطوط عريضة متعارضة وقشرية، أما على الطرف الخارجي فتشاهد امتداد لغشاء الأصابع يمضي حتى ينتهي ثلاثة أرباع طولها، ولها خمس أصابع مغطاة بغشاء صلبي، من بينهم ثلاثة أظافر أمامية لها أظافر، أما الاثنان الآخران فلا شكل واضح لهما.

وأرجلها الخلفية أقصر من الأمامية، وليس لها أخاديد قشرية، ولها أيضًا خمس أصابع كالأمامية، ويحتويها غشاء صلب أيضًا، وليس لديها أظافر سوى في الثلاث أصابع الأولى.

جميع أظافرها بيضاء، وقوية، ومحدبة من الأعلى، ومسطحة من الأسفل، وبارزة خارج الغشاء بمقدار بوصة تقريبًا.

يبلغ الذنب سبع بوصات من اتصاله بالصدفة، وحتى نهايته، ويعتبر هذا الذنب كبير بالنسبة لحجم السلحفاة، وينتهي بمخروط، ويحمل في مؤخرته فتحة طويلة، وهي فتحة العانة وأعضاء الولادة.

الفصل الثاني عشر

محتويات هذا الفصل

سير القافلة ونظامها، تصرفات زعمائها، عرب الجزيرة، مغادرة عانة، طريق عبر الساحل الأيمن للفرات حتى الرحبة، وصف الطيّبة، الوصول إلى اللاذقية، الأضرار التي سببها الزلزال في هذه المدينة.

إن القوافل التي تهدف اجتياز الجزيرة العربية تتكون من عدد من الشيوخ أو من أصحاب الإبل، فيجتمعون للاهتمام بالأمر، ويتفقون على سعر لنقل البضائع التي تعهد إليهم على مسئوليتهم من مدينة لأخرى.

وبمجرد تشكيل القافلة، يجتمع الشيوخ لاختيار شيخ منهم، ليكون قائدًا على القافلة، مثل قواد الحملة العسكرية، وتتمثل مهامه في قيادة السير، وإصدار أوامر الاستراحة، والحفاظ على النظام العام، والحرص على سلامة الجميع، فيأمر كسيد، ويسير في مقدمة القافلة، وإذا اقتضى الأمر العدو.

وتختلف الأسعار التي يدفعها المسافرون أو البضائع عن كل جمل حسب المواسم، وهذا السعر يتلاءم مع مقدار الإكراميات التي يرونها ضرورية أن تمنح للعرب في الطريق، ووفقًا لعدد البنادق التي يضطرون إلى حملها لفرض السيطرة.

يركب الزعماء الجياد، ويسيرون في مقدمة القافلة، وأحيانًا يسبقونها بميلين أو ثلاثة، وتقضي مهمتهم أيضًا أن يصعدوا الأكمات حتى يروا ما إذا كان هناك أعراب في الأطراف، وإذا رأوا الأعراب قليلون يمضوا إليهم، أما إذا كانوا كثيرون فيرجعون وينضموا للقافلة عند إحساسهم بالخطر.

ويسير حاملي البنادق مترجلين، ولا يبتعدون أبدًا عن القافلة أثناء سيرها.

وعندما يريدون الاستراحة، يقوم الشيخ بغرز علم في الأرض، فيستعد أفراد القافلة للنزول ونصب خيامهم، محاولين أن يتخذوا شكل دائري حول العلم الذي غرزه الشيخ.

أما أكياس البضائع، فكل منها يزن ثلاثمائة ليبرة أو أكثر، وتوضع فوق بعضها، وترتب بحيث تشكل سورًا علوه أربعة أو خمسة أقدام.

وتنصب الخيم إلى الداخل بالقرب من الأكياس، وبعد نصب الخيم يرسلون الجمال إلى المراعي، بصحبة عدد من السواس وبعض أصحاب البنادق، وفي الليل يدخلونها إلى المخيم.

تظلم الخيام عند غروب الشمس، وليس لأحد ضياء في الليل، ينهض الشيوخ في الصباح، ويهتم السواس بالجمال وبتحميلها، وبعد شروق الشمس يصدر الأمر بالرحيل، فيتحرك الجميع دون بطء أو إسراع، ويستطيع الخيالة وحدهم أن يسيروا في مقدمة القافلة كما يريدون، وعادة يسيرون سويًا، وبعد أن يقطعوا فرسخين أو ثلاثة ينزلون أرضًا في انتظار القافلة، وخلال هذا الوقت يأكلون، أو يستمتعون بكل بساطة بتدخين الغليون، وشرب القهوة التي يعدونها في أمكانهم بواسطة بعض أغصان النباتات أو الشجيرات التي يجمعونها ويوقدونها في نفس المكان.

وعند اقتراب القافلة منهم، يمتطي الخيالة جيادهم ويسيرون حتى الموضع الذي يخيمون فيه، وهم يختارون هذا المكان خصيصًا إذا كان قد سبق وأقامت به قوافل أخرى.

وهم يستفيدون من هذا الأمر، حيث إنهم يجدون بقايا بعر الجمال الذي يستخدمونه في إشعال النار وإعداد الطعام، إلى جانب تجهيز الخبز، حيث يستخدم بعر الجمال في تجهيز الخبز عادة، فيصنعون منه قوالب ويشعلوا فيها النار، وخلال اشتعالها وتحولها إلى رماد، يعجنون الخبز على الأرض، ويغطونه جيدًا، فيخبز دون أن يحترق، ورغم أن هذا الخبز سيء، إلا أن العرب يكتفون به، أما المسافرون فعادة ما يحملون معهم بسكويتًا.

كما أن هناك طريقة أخرى لصنع الخبز في الصحراء، وهي عن طريق تسخين صفيحة نحاسية تسخينًا جيدًا، ويضعون عليها العجين، ثم يضعوا الصفيحة فوق الرماد الحار، حتى تحتفظ بحرارتها فترة طويلة، حتى يخبز العجين جيدًا.

ولا يشعل الأعراب النار إلا بغرض الشوي وصنع القهوة وتجهيز الخبز، وعادة يصنعون القهوة والخبز يوميًا، حيث إن خبز الأمس يكون أسوأ من الخبز الطازج، كما أن القهوة المقشرة والمحمصة قبل شربها على الفور تكون ألذ وأطيب من المحمصة والمحفوظة.

لذا فهم لا يقشرون قهوتهم إلا قبل صنع القهوة تمامًا، حيث إن تقشيرها وطحنها يفقدانها الكثير من النكهة، وهم يفضلون طحن القهوة المقشرة كالتراب على القهوة المطحونة فقط.

أما بالنسبة لباقي المأكولات، فنحن لم نرهم يتناولون أي شيء سوى التمر، ونوع ليس جيد من الجبن المحفوظ في ظروف مصنوعة من جلود الضأن.

في الوقت الذي كنا منشغلين فيه بتحميل الجمال والبضائع من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى، كان زعماء القافلة يهتمون بأمور أكثر أهمية، حيث أرسلوا اثنين منهم إلى قبيلة كبيرة العدد، مقيمة غربي عانة للتفاوض معها، ويطلبوا منهم السماح لنا بدخول أراضيهم بهدوء، وإذا كان هناك ضرورة لتجهيزنا بحماية من بينهم تحرسنا، حتى نصل إلى حدود القبيلة المجاورة.

وأعتقد أن هذا الأمر لم يكن ذو فائدة في هذا الوقت من الشتاء، حيث إن القبائل الغفيرة العدد تدخل الصحراء أواخر الصيف، وتبقى في المناطق المرتفعة والأقل حرارة، حيث يتوفر بها بعض المزروعات، إلى جانب المراعي شديدة الخصوبة.

ذلك باستثناء القبائل الموجودة على ضفاف شط العرب، والفرات جنوبي الحلة، حيث إن لديهم مزروعات على ضفاف الأنهار، فلا تجد منهم سوى القليل الذين يذهبون بقطعانهم إلى عمق الأراضي.

ولا تعود هذه القبائل إلى ضفاف الفرات إلا لدى إقبال فصل الربيع، لذا لا ينبغي الخوف من القبائل الغفيرة في ضفاف الأنهر خلال فصل الشتاء، فهي لا أرض لها، ولا مساكن خاصة، لذا فهي مرغمة على رعي أغنامها في أراضي الغير حتى تعيش.

وهكذا تضطر إلى سلوك مسافات طويلة، وهي عادة فقيرة جدًا، لذا تجدها تسعى للسرقة والنهب.

وليس لديها خيام أو أمتعة أو علف أو أي شيء يؤخرها أو يعطلها عن الهروب، ماعدا بضعة

بغال، وبعض النوق والحمير، وهذه هي كل ثروتهم عادة.

وليس لدى هذه القبائل أكثر من ثلاثين أو أربعين محارب، لذا لا داعي لكي تخشاها القافلة إذا سارت بانتظام، واتخذت الاحتياطات اللازمة لأمنها.

أما بالنسبة للقبائل كبيرة العدد التي تقيم على أراضيها، فمن المؤكد أن المرور خلالها لا يدعو للخوف مطلقًا، فهي لا تطلب منك سوى إكرامية بسيطة، تتناسب مع أهمية قافلتك.

عندما رأت القبيلة الموجودة على بعد يوم من عانة زعيمينا مقبلين، أرسلت شخصين معتبرين للتفاوض مع قافلتنا على الإكرامية التي سندفعها.

وقد وصلا إلينا في الساعة العاشرة تقريبًا من الثاني عشر من حزيران، كانت ملامحهم جيدة، ويبدو أنهم شابان، ويبدو أن أصغرهم قد قام بالكثير من الحروب، إذ لم يكن يتحدث سوى عن المعارك، ولا يستنشق سوى أنفاس القتال، وعلى وجهه آثار خنجر وإصابة رمح، ورغم ذلك إلا أنه كان مرح، وصادق، ولطيف جدًا، ومن المؤكد أيضًا أنه كان شجاع كباقي الموجودين في هذه المناطق.

احتفلت القافلة احتفال كبير بحضور هذين العربيين، وحضر الاحتفال جميع زعماء القافلة، وذبحوا جملاً سمينًا وصغيرًا، وخصصوا قسمه الأكبر للضيفين، أما الباقي فقد وزعوه مجانًا على التجار والمسافرين.

وقد أعطونا منه حوالي اثنتي عشرة أو خمسة عشرة ليبرة، ونحن أمرنا أن تطهى بعدة أصناف، وقد كان هذا اللحم جيد، بل وينافس لحم البقر السويسري الفاخر أو النورمندي.

وقبل جلوس الضيفين إلى المائدة ومشاركة الطعام وتقاسم الخبز والملح، اتفقوا أن تدفع القافلة إكرامية لشيخ قبيلتهم تقدر بأربعمائة قرش، وبعض المأكولات وثيابًا كاملة، وفي المقابل يلزم العربيين بحماية القافلة ومرافقتها حتى حدود القبيلة المجاورة التي تقع على بعد ثمانين ميلاً من عانة.

استعدت القافلة بأكملها للرحيل في النهار، وفي أمنة تحركنا مع شروق الشمس متجهين نحو الغرب والشمال الغربي.

لم تكن الأرض مستوية، ولكنها جميلة بعض الشيء، وكلسية، وغير صالحة للزراعة، ولا تشبه أراضي ما بين النهرين.

وبعد مسيرة ثمانية أميال تقريبًا، عبرنا ساقية جافة، ولكنهم أكدوا لنا أنها في الشتاء تكون مليئة بالماء، أقمنا خيامنا بعدها بقليل، وعلى بعد ميلين من النهر، وكانوا قد حملوا الماء للقافلة بأسرها، لأنهم كانوا غير متأكدين من وجود ماء في الساقية السابق ذكرها.

وبعد الظهر رأى سواس الجمال خمسة عشر فارسًا من الأعراب، فركب زعماء القافلة جيادهم، وتقدموا بانتظام والرماح بأيديهم.

وكان هؤلاء الفرسان واحد وعشرين رجل، ومن ضمنهم الاثنان المرافقين لنا (من القبيلة التي في المنطقة) جهز أفراد القافلة بنادقهم، وتقدم حاملوها واحدًا تلو الآخر.

ومع ذلك لم يهرب الأعراب؛ بل انتظروا الزعماء وقالوا لهم إنهم أصدقاء، واتضح أنهم من قبيلة

تسكن منطقة ما بين النهرين، وهي تعادي القبيلة المقيمة في الأطراف، وقد عبروا النهر سابحين، ماسكين بأيديهم أسرجة، وحاملين فوق رؤوسهم ملابسهم وبعض الطعام.

ويبدو أنهم كانوا ينوون سرقة بعض الحيوانات من أعدائهم، والهرب سريعًا عبر النهر مع مسروقاتهم.

بعد ربع ساعة من المفاوضات حصلنا على وعد منهم ألا يقوموا بأي شيء، وأن يعودوا إلى منطقة ما بين النهرين، وهكذا انفصلوا عن بعضهم بدون أي مشاكل.

في اليوم الخامس عشر من الشهر، وبعد مسيرة سبع ساعات في أرض جبسية مرتفعة، انحدرنا في وادي الفرات عبر طريق متآكل بسبب المياه.

ثم اجتزنا ساقية جافة، وخيمنا على بعد عدة خطوات من النهر كانت ضفاف النهر مغطاة بأشجار الحور الجميلة التي ذكرناها سابقًا.

كما ينمو الإسبانخ أيضًا في هذه الأماكن بدون زراعة، وقد أخذنا منها حبوبًا نمت في باريس.

وفي السادس عشر من الشهر قطعنا اثني عشر ميلاً دون أن نبتعد عن النهر كثيرًا، وأصبحت الأرض سيئة وغير صالحة للزراعة على خلاف الأرض التي رأيناها في الأيام السابقة.

وعلى شمالنا تركنا تلاً جبسيًا مرتفعًا، كما لاحظنا تلاً آخر في منطقة ما بين النهرين، واعتقد أنه من نفس النوع السابق.

خيمنا على مقربة من حقل على شكل خور فيه حنطة وشعير وخندروس (حنطة رومية) كالذي شاهدناه في منطقة ما بين النهرين، ورأينا أيضًا نوع من أشجار اللوز، وقمنا برسمها في الشكل ٤٧.

ولا ترتفع شجرة اللوز أكثر من قدمين أو ثلاث، وأعضائها خضراء ومقرنة، وأوراقها مخططة ومستطيلة وضيقة قليلاً من أسفل، وتكاد تكون بدون قمع، ومسننة في الأطراف، مستديرة، وأحيانًا تكون مقورة في القمة، وهذه الشجرة أحادية الثمرة، وثمرتها مستديرة ولها ريش، ومحدبة في القمة، وتقوم على محل طوله خط واحد.

ونواته تشبه نواة الكرز من حيث الشكل والحجم، ولكنها لينة وتحتوي على لوزة قليلة المرارة، وقد أخذنا واحدة وقطعناها فوجدناها ناضجة، أما قشرتها فلها طعم خفيف، لا يمص، ولم نر زهرها.

في السابع عشر من الشهر قطعنا مسيرة ست ساعات وربع على أرض غير مستوية، وعلى بعد نصف فرسخ من النهر رأينا أكمه، ويبدو أنه مرصد للمراقبة، وأعتقد أنه ليس قديم، ويوجد حوله قبور للمسلمين.

وفي ١٧ منه سرنا خمسة عشر ميلاً، وبعد نصف ساعة من انطلاقنا مررنا بأطلال مدينة قديمة، ولكننا لم نتمكن من معرفة اسمها.

وكان بها بقايا أسوار مبنية من اللبن المشوي بالشمس، وهو ضخم الحجم، ولاحظنا أيضًا أن الخندق المحفور حولها ما زال موجودًا، وهذه الأسوار على هيئة مربع كبير المساحة.

ولاحظنا أيضًا حول هذه الأطلال آثار جدران ضخمة مشيدة من الطابوق المشوي، وملصقة ببعضها البعض بواسطة ملاط سمكه بوصة واحدة.

وقد علمت أن هذا السور كان يمر به سابقًا فرع نهر أو ترعة من الجهة الشمالية الشرقية، أي من جهة بلاد ما بين النهرين.

ولكنه الآن مردوم لا يوجد به سوى مياه آسنة، وعلى ضفافه وجدنا كومة تراب، ونحن نظن أنها أنقاض قلعة كانت تحمي المدينة من هذه الناحية، والآن بها قبور إسلامية.

ولكما تقدمنا في المسير كلما اتسع وادي الفرات، وكلما أصبحت الأرض أكثر خصوبة، والبلاد أكثر جمالاً، وقد شاهدت في بلاد ما بين النهرين تلاً أتلفت قاعدته بسبب المياه، كما في منطقة جزيرة العرب.

وقد أصبح مجرى النهر واسع، ولكنه أصبح بطيء جدًا، ورأينا أيضًا بعض الجزر المكسوة بالخضرة، وكنا نرى عدة ترع محفورة سابقًا لتسهيل الري.

أقمنا خيامنا على بعد فرسخ من النهر، والناس هنا يسقون أراضيهم بواسطة ترعة تكثر فيها السواقي.

وفي الوقت الذي كنا ننصب خيامنا به، رأى أحد شيوخ القبيلة الذين كانوا يحرسونا بعض الأعراب من بعيد، فذهب إليهم، وتبعه العديد من زعماء القافلة، وبعد ساعتين تقريبًا رأيناهم عائدين مع فارس وشخصين مترجلين، ويبدو أنهم اطمأنوا لهم.

وقد علمنا أنهم من قبيلة تائهة مخيمة على بعد ميلين أو ثلاثة من موقعنا، ولم يلحقوا بهم أي أذى، ولكنهم لم يريدوا أن يتركوهم إلا بعد أن نبتعد عنهم غدًا مسافة طويلة.

في التاسع عشر منه سرنا لمدة تسع ساعات في السهل، وعلى بعد فرسخ تقريبًا من النهر، وعندما اقتربنا من المكان الذي ترعى به خيولنا، فوجئنا بوجود أربعة عشر شخص، من بينهم خمسة يمتطون الهجن، ومعهم رماح، أما بقيتهم فكانوا مترجلين وبدون سلاح.

أما نحن فكان عددنا خمسة عشر فارس، ومعظمنا من التجار والمسافرين، وجميعنا مسلحون جيدًا ومستعدين للدفاع عن أنفسنا، وكنا نتقدم عن القافلة بمسافة فرسخ.

تبادلنا التحية في هدوء وبرود وعن بعد، ثم سألناهم في حذر عن هويتهم، فعرفنا أنهم من قبيلة صديقة للقبيلة التي تحرسنا، وعلمنا أنهم موجودين بالقرب من هنا، وعندها اطمأننا وعلمنا أنهم لن يتعرضوا لنا إذا أعطيناهم إكرامية جيدة، وبالفعل فإنه عند وصول القافلة، والتعرف على هؤلاء الأشخاص، رأينا زعماء القافلة والتجار مطمئنين.

لقد أخذنا هؤلاء الأعراب إلى مكان يبعد عن النهر بمسافة فرسخين ونيف، فوق مرتفع بسيط، وكانت قبيلتهم موجودة على بعد ثلاثمائة خطوة تقريبًا، وكان لديهم أكثر من مائة خيمة، ومن بينهم مائتي رجل على الأقل مستعدين للقتال.

وبالرغم من عدم وجود أسباب للقلق، إلا أننا وجدنا المخيم منتظم للغاية، وأصبح أكثر ضيقًا، وقاموا بوضع الأكياس على هيئة سور دائري لا تستطيع الخيول والهجن اختراقه بسهولة.

ووضعوا البنادق في المقدمة في حالة استعداد للاستعمال عند أول إشارة، ولم ترسل الجمال إلى

المراعي حالاً، ولكنهم أناخوها في الداخل، وكان كلاً منهم ينصب خيمته أو يضع الأكياس بينها.

وقد أصبحت هذه الاحتياطات ضرورية، وكان علينا أن نظهر أنفسنا وكأننا في حالة صمود لكي تخفف من قوة ادعاءات الأعراب على الأراضي التي كنا فيها.

وتفاوض زعماؤنا معهم، وجاءوا سريعًا لإخبارنا بتسوية الأمور، وأنهم اتفقوا معهم على إعطائهم بعض المال والطعام.

وبعد فترة قصيرة جاء أكثر من خمسين أعرابيًا مترجلاً وبدون أسلحة، ومعهم الشيخ.

كانوا يحملون معهم حليبًا وزبدًا وجبنًا، وباعوهم لنا بسعر رخيص، كما اشترينا منهم خروفين لم ندفع مقابلهم سوى أربعة قروش، أي ما يساوي ٨ فرنكات تقريبًا، ذبحنا خروفًا في الحقل، وتبعنا الخروف الآخر لمدة يومين.

كانت الأراضي التي خيمنا عليها مرتفعة وبعيدة عن النهر، وصالحة للزراعة كان العشب منتشرًا بكل مكان، وكان كثيفًا وعاليًا، ورأينا الكثير من شعن الكعوب، وقد عرفنا هذا النبات من خلال وصف تورنفور، وقد أخبرنا أحد الأعراب أن جذوره لذيذة، وأنه يجب لتناوله قطع ما ليس به زهر وطهيه، وبالفعل وجدنا طعمه لذيذ، وكان أيضًا أقل فجًا من جذور السلسفيل الأسود.

وأنا على ثقة أن هذه النباتات لا تنمو جيدًا في جميع أنحاء فرنسا الجنوبية، وإلا كانت ستصبح من أفضل أنواع بقولنا.

قمنا بتوديع العربيان اللذان رافقونا من عانة، ورافقنا فارسان آخران كان قد أرسلها الشيخ الذي خيمت القافلة بالقرب من قبيلته بالأمس، وأمرهم بمرافقتنا حتى الطيبة، حيث إن هذه المسافة بالكامل تشغلها قبائل متعددة جميعها من أصل واحد.

وبعد مسيرة إحدى عشر ميلاً تقريبًا، وصلنا حفريات واسعة وعميقة فنزلنا إليها، ووجدنا قاعها سيء، وكان الجبس ظاهرًا في أماكن عديدة، وكان مظهره جميل، وصلب، وقابل للتنظيف، مثل الرخام الذي يستخرج من أطراف الموصل.

وبعد ذلك اجتزنا عين ماء غزير، ولكنها مالحة، غير صالحة للشرب، وعلى مسافة قريبة من هذه العين، تقع قرية تسمى (مشهد)، وتقع هذه القرية على أرض جبسية، ولم نر بها منزل واحد غير متضرر، حتى أنهم قد اقتلعوا الأبواب والشبابيك.

ورأينا بها أيضًا جامع في حالة جيدة، ولكنه بدون أبواب وشبابيك كالمنازل، ولا يوجد به أي شيء سوى الجدران والسقف، وكانت منارته لا تزال قائمة، ويبدو أنها قد رممت منذ سنوات.

كانت الأرض كالسابق عبر خور، فهي مستوية وخصبة جدًا، والعشب عالي وكثيف رغم أنه جاف، ولم نلاحظ في الأفق وجود جبال أو ثلوج أقمنا خيامنا على بعد مائتي أو ثلاثمائة خطوة من خور آخر، وعلى بعد ميلين من أهوار سببتها مياه الفرات.

إن هذه المدينة كانت في السابق متوسطة الحجم، ونحن الآن على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي منها، وسوف نقصدها في المساء.

وهذه المدينة لا يوجد بها سوى أطلال غير واضحة، إلى جانب بقايا قلعة يبدو أنها كانت مهمة جدًا في الماضي، النهر على بعد ميل من هنا، وأخبرنا الإدلاء أن مدينة قرقيسية، تقع على بعد

ثلاثة أميال إلى الشمال من مخيمنا.

وقد كنا منذ مغادرتنا عانة نسير في الاتجاه الشمالي الغربي دون أن نبتعد عن النهر كثيرًا، وكنا في الثلاثة أيام السابقة نتجه نحو الشمال باستقامة.

وقد وجدنا أن نهر الفرات في هذا المكان غير منحرف بالقدر الموجود على خارطة دانفيل.

إنما بالشكل الذي رسمناه نحن، وإن كان النهر منحرف كثيرًا غرب عانة، لكنا اضطررنا إلى السير أيامًا في الاتجاه الغربي والجنوبي الغربي.

كما أن انحراف النهر في هيت ليس أكبر مما هو عليه في خارطتنا، لذا يجب رفع مدينة هيت ووضعها على درجة ٢٥.٣٣ دقيقة طولاً، و ٤٠ درجة و١٢ دقيقة عرضًا.

في ٢١ منه تركنا النهر، واتجهنا نحو الغرب، وبعد مسيرة ثماني ساعات على أرض مستوية صالحة للزراعة، خيمنا بالقرب من بئر ذو ماء مالح لدرجة أن العرب نفسهم لم يستطيعوا الشرب منه، ولكنهم سقوا الجمال والجياد، ووزعوا على أفراد القافلة مياه نهر الفرات التي حملوها في القرب، وقد كانوا أخذوا منه كمية كبيرة لأننا لم نجد ماء صالح حتى وصلنا إلى الطيبة.

وفي ظهر هذا اليوم رأينا على غير المعتاد كميات كبيرة من اليرابيع، والأرانب، والغزلان، والنعام، والقطا، وكانت هذه اليرابيع تدخل جحورها عند ارتفاع الحرارة، أما الأرانب فكانت تركض حول أقدامنا باستمرار، وقد قتلنا منها العديد ضربًا بالعصا.

وكنا نرى الغزلان في مجموعات مكونة من خمسة عشر أو عشرين، وأحيانًا ثلاثين غزال، وكانوا يقتربون دائمًا من أكياس القافلة، بينما كان النعام يبقى بعيدًا، بحيث كنا بالكاد نراه، أما القطط فلن نتحدث عنها رغم أننا رأينا منها ألوف.

وبينما كنا مخيمين عند هذا البئر، كان يحيطنا أعراب رعاة من نفس القبيلة السابقة، وكان أمامنا باتجاه الغرب جبل بالكاد نراه، أخذنا يوم ٢٢ من الشهر استراحة، وفي اليوم التالي سرنا لمدة ست ساعات ونصف، وكانت الأراضي التي سرنا عليها هي نفسها أرض الأمس، مليئة بالحيوانات، ولكنها أقل جودة، خاصة في المناطق التي يظهر فيها الجبس عند سطحها.

واليوم خيمنا بالقرب من بئر ذو ماء أكثر ملوحة من البئر السابق، واسترحنا في اليوم الرابع والعشرين منه، وفي اليوم التالي سرنا لمدة تسع ساعات وربع في أرض شبيهة بأرض الأيام السابقة، ولكن خلال تقدمنا كانت الأرض تصبح أكثر تعرج، وكنا نرى في الأفق تلول صغيرة، وعلى بعد فرسخين أو ثلاثة إلى اليمين تركنا الجبل الذي رأيناه عند وصولنا إلى البئر الأول.

كانت درجة الحرارة ترتفع تدريجيًا، رغم أننا كنا نرتفع يومًا بعد الآخر، ونتقدم بدرجة نحو الشمال، وفي هذا اليوم أصبحت درجة الحرارة مرتفعة بشكل كبير، حتى أننا لم نعد نستطيع لمس الفراش الذي تحت خيمنا، لأنه كان ملتهب.

وكالعادة كانت الرياح تهب من الشمال الغربي أو من البحر الأبيض المتوسط، وكانت حارة جدًا بدءًا من الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحًا وحتى المساء، وكأنها قادمة من فرن محرق.

وللأسف فقد انكسر محرارنا الأخير أثناء إقامتنا عند أول بئر في بلاد ما بين النهرين، ولذلك لم

نتمكن بعدها من التعرف على درجة الحرارة بدقة، كما فعلنا خلال الرحلة كلها، ولكننا لم نقدرها بأقل من ٣٠ درجة لدى البئر الأول في عانة، وربما ٣٢ أو ٣٣ من عانة إلى مشهد، وحوالي ٣٤ أو ٣٥ درجة من مشهد إلى حلب، و٣٤، ٣٢، ٣٠، ٢٨ من الطيبة إلى حلب.

ولاحظنا أن الليل شديد البرودة، وكانت الرياح تهدأ من غروب الشمس، فيبرد الهواء تدريجيًا، لدرجة أننا اضطررنا إلى تغطية أنفسنا جيدًا عند اقتراب الصباح.

وبالرغم من هذه البرودة، إلا أننا لم نر الندى إطلاقًا، ولم نشعر بأي رطوبة، كما كانت ثيابنا وأسرتنا يابسة جدًا ليلاً ونهارًا، ماعدا الأيام التي خيمنا فيها بالقرب من عانة، على حافة النهر، ولكن هذه الرطوبة أيضًا كانت خفيفة، ولم تكن شديدة لدرجة تجعلها تتحول إلى ندى.

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

المركز الثقافي الآسيوي

مؤسسة بحثية مستقلة، تتبع جمعية خريجي معهد الدراسات والبحوث الآسيوية، تخضع لقانون الجمعيات الأهلية المصري، مشهرة في وزارة التضامن الاجتماعي برقم ١٣٢٨ لسنة ٢٠٠٢م.

يتكون المركز الثقافي الآسيوي من الوحدات التالية:

- وحدة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية.
- وحدة الدراسات الإيرانية.
- وحدة الدراسات التركية والعثمانية.
- وحدة الدراسات الأرمنية والقوقازية.
- وحدة الدراسات اليهودية والإسرائيلية.
- وحدة دراسات الشرق الأقصى.
- وحدة دراسات الفنون والتراث.
- وحدة دراسات تركستان الشرقية - شينجيانج

يهدف المركز الثقافي الآسيوي إلى عمل البحوث والدراسات المتعلقة بقارة آسيا في النواحي التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكافة النواحي الحضارية.

يعمل المركز الثقافي الآسيوي على طباعة ونشر الدراسات التي تنتجها وحداته المختلفة، كذلك الدراسات التي يتقدم بها الباحثون المتخصصون في مجال اهتمامات وحدات المركز.

كما يقوم المركز الثقافي الآسيوي بترجمة الإصدارات العالمية الخاصة بقارة آسيا وإصدارها في نشرات خاصة.

يسعى المركز الثقافي الآسيوي إلى إصدار عدة سلاسل من الكتب والدوريات المتخصصة والتي تخدم الدراسات الآسيوية خاصة، والثقافة الإنسانية بشكل عام.

يمد المركز الثقافي الآسيوي يد التعاون للباحثين والمراكز البحثية والهيئات العلمية الأخرى، للقيام بالأنشطة العلمية والندوات والمؤتمرات وعمل الأبحاث ونشرها.

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

مشروع الرحلات..

المقدمة..

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر

المركز الثقافي الآسيوي

Notes

[←1]

(1) يتحدث الرحالة عن جبل زاجروس وكرمنشاه..... إلخ كما وضح في محتويات الفصل، كما يصف رحلته إلى إيران وانصرافه إلى المهمة السياسية التي جاء من أجلها، حتى يعود ثانية إلى العراق، في طريق عودته إلى بلاده. وقد تجاوزنا ذلك في الترجمة لالتزامنا بما يتعلق بالعراق فقط، وسوف نترجم ذلك الجزء – إن شاء الله – في الفصول الخاصة برحلته إلى إيران.

[←2]

(2) يتحدث الرحالة في بداية هذا الفصل عن سفره من أصفهان في طريق العودة إلى بغداد عبر كرمنشاه..... إلخ كما وضح في محتويات الفصل. وقد تجاوزنا ذلك في الترجمة لالتزامنا بما يتعلق بالعراق فقط، وسوف نترجم ذلك الجزء – إن شاء الله – في الفصول الخاصة برحلته إلى إيران.